تاريخ بلاد الرافدين

مُنذ أقدَم العصُور حتى عام 539 ق.م

تأليف
الدكتور عيد مرعي

الأبجدية
للنشر

تاريخ بلاد الرافدين

مُنذ أقدم العصور حتى عام 539 ق.م

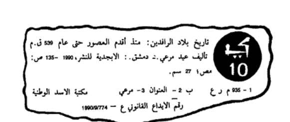
تأليف
الدكتور عيد مرعي

الأبجدية
للنشر

الجمهورية العربية السورية
دمشق ـ قصور
ص . ب : 4428 .
برقياً : أبجدار .
تلكس : 412059 TAJ SY .
هاتف : 455720 .



الطبعة الأولى
1991
1000 نسخة


تاريخ بلاد الرافدين: منذ أقدم العصور حتى عام 539 ق.م
تأليف عيد مرعي.ـ دمشق.: الابجدية للنشر، 1990 ‎-135 ص:
مص؛ 27 سم.
1 - 935 م ر ع ب 2 - العنوان 3 - مرعي مكتبة الاسد الوطنية
رقم الايداع القانوني ع — 1990/9/774

* التصميم والاخراج والتنفيذ : القسم الفني في الابجدية للنشر .
* التنضيد الضوئي : القسم الفني في الابجدية للنشر .
* التصوير الطباعي : زنكوغراف الشام .

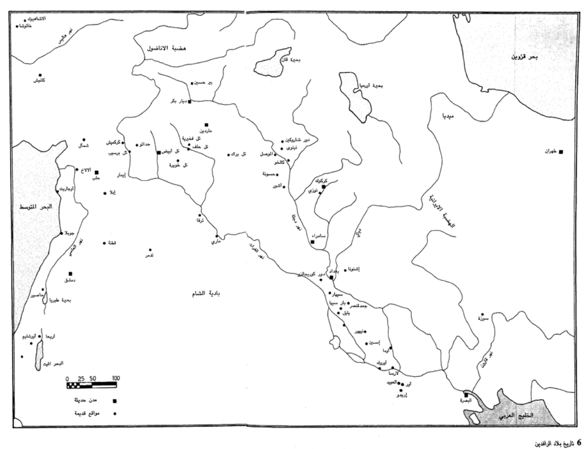
مطابع ألف باء الأديب

الكتابةُ أمُّ الفصاحة وأبُ الفنون

« حكمة سومرية »

من لا يعرف التّاريخ يبقَ طفلاً أبدَ الدّهر

« الخطيب الروماني شيشرون »
106 - 43 ق.م



بلاد الرافدين وسورية
في العصور القديمة

المحتويات

المقدمة

يعالج هذا الكتاب تاريخ بلاد الرافدين منذ بدايات نشوء الحضارة الانسانية في عصور ما قبل الكتابة حتى عام 539ق.م عندما سقطت بابل عاصمة الامبراطورية البابلية الحديثة بيد الملك الفارسي قورش الثاني ودخلت بالتالي بلاد الرافدين ومن ثم بلدان الشرق الادنى القديم كلها مرحلة جديدة من تاريخها هي مرحلة الاحتلال الفارسي.

وقد شهدت بلاد الرافدين خلال الفترة المذكورة التي تزيد عن ثلاثة الاف عام تطورات عديدة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية أظهر فيها الانسان الرافدي إبداعاته الخلاقة التي انتقلت مع الزمن وانتشرت في المناطق المجاورة، ولا زال تأثير بعضها واضحاً في العديد من جوانب حياتنا المعاصرة. فالكتابة مثلاً اخترعت أولا في بلاد الرافدين ومن ثم انتقلت غربا الى مصر وشرقا الى وادي السند حيث أثرت في نشوء الكتابة في هاتين المنطقتين وكانت الاساس الذي انطلق منه الفنينيقيون في اختراعهم للأبجدية في أوجاريت وجبيل على الساحل السوري، تلك الابجدية التي انتقلت في القرن الثامن قبل الميلاد الى بلاد الإغريق وانتشرت من هناك في كل مناطق الحوض الغربي للبحر المتوسط

ونشأت في بلاد الرافدين أفكار سياسية شاعت فيها بعد في مناطق أخرى نذكر منها فكرة دولة المدينة التي نشأت أولا في سومر وعرفتها بلاد الاغريق في الالف الاول قبل الميلاد. كذلك فإن فكرة أن الملكية هبة إلهية هي فكرة ذات أصول رافدية انتقلت وشاعت في العصور التالية في مناطق عديدة من العالم.

ودون الانسان الرافدي أولى القوانين التي عرفتها البشرية. وقد أثرت تلك القوانين في القوانين اللاحقة التي نشأت في البلدان المجاورة في كثير من الجوانب الحقوقية والمبادىء التي قامت عليها.

وإن نشوء مثل هذه القوانين في بلاد الرافدين يدل على تطور راق للدولة والمجتمع وعلى تفتح فكري وإدراك موضوعي لاهمية تنظيم حياة الطبقات الاجتماعية وترتيب شؤون الدولة.

أما في المجال الديني فيبدو التأثير الرافدي واضحاً في كثير من الافكار والمعتقدات التي لا زالت تعيش بين ظهرانينا. فالتصور الرافدي أن الماء هو أصل الخلق دخل مثلا في

قصة الخلق في سفر التكوين، وأن الكوارث والامراض ليست الا عقوبة الهية، و أن على الانسان أن يتحمل الالم والعذاب بصبر لها ما يقابلها في التصورات الدينية الرافدية. كذلك الاحتفال بأول السنة الجديدة يعود بأصوله الى بلاد الرافدين. علماً أن السنة الرافدية الجديدة كانت تبدأ في شهر نيسان أما في مجال الفلك فيبدو التأثير الرافدي واضحاً في أعمال الفلاسفة الاغريق الذين اطلعوا في أونية على أعمال الفلكيين البابليين ومن ثم بدأوا دراساتهم عن الكون التي وصلت الاوج في مدارس أثينة الفلسفية فالملاحظات الفلكية الرافدية قادت الى اكتشاف الاعتدالات الفصلية ورتابة مراحل الدورة القمرية.

وسمى سكان بلاد الرافدين الابراج السماوية بأسماء لايزال بعضها مستخدما كالجوزاء والاسد والعقرب.. الخ. ومع أنهم كانوا يستخدمون التقويم القمري في حساباتهم فإنهم أدركوا عدم التطابق بين دورة القمر من جهة ودورة الشمس وبالتالي تعاقب فصول السنة من جهة أخرى. لذلك كانوا يضيفون شهراً الى السنة كل ثلاث سنوات حتى يحافظ التقويم على انتظامه.

ولا بد من الاشارة هنا الى ان اسماء الاشهر المستخدمة حالياً في التقويم الميلادي في بعض بلدان المشرق العربي (كانون - شباط - آذار - نيسان.. الخ) تعود الى أصول رافدية. وتؤكد بالتالي الى جانب اللغة والمعتقدات والافكار قوة الرباط الذي يربط الانسان العربي في العصر الحاضر مع حضارة المشرق العربي القديم، وتبرهن بما لا يدع مجالا للشك أنه الوريث الشرعي لهذه الحضارة.

ومن الاكتشافات الرافدية الهامة التي لا تزال مستخدمة حتى الان النظام الستيني فالدائرة تقسم الى درجات والساعة الى دقائق اعتمادا على هذا النظام.

وقد اعتمدت في كتابة فصول هذا الكتاب على النصوص والوثائق الاصلية المكتشفة في بلاد الرافدين والبلدان المجاورة والتي تشكل الان المصدر الاساسي لكتابة تاريخ تلك المنطقة والتي لا يمكن بدونها رسم صورة واقعية للأحداث التي جرت. واعتمدت أيضا على أحدث الدراسات المنشورة بلغات أجنبية التي تيسر لي الحصول عليها.

إن الكتابة في التاريخ القديم تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل المؤرخ لعدم توفر الادوات الضرورية للبحث والكتابة، وبخاصة من حيث الحصول على المصادر والمراجع المطلوبة وقد حاولت جهدي أن أرسم صورة أقرب ما تكون الى الواقع عن تاريخ بلاد الرافدين. فأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك.

عيد مرعي

الفصل الأول

بلاد الرافدين

«بلاد الرافدين» أو «بلاد ما بين النهرين» ، هي ترجمة للتسمية الاغريقية Mesopotamia التي أطلقت على المنطقة الواقعة ما بين نهري دجلة والفرات . وقد استخدم الجغرافي الاغريقي سترابون هذه التسمية للدلالة فقط على الجزء الشمالي من تلك المنطقة ، وسمى الجزء الجنوبي منها Babylonia أي بلاد بابل .

ثم كان المؤرخ الروماني پلينيوس الذي وسع حدود ميزوبوتاميا لتصل حتى الخليج العربي .

إن استخدام تسمية «بلاد الرافدين» حالياً في الدراسات التاريخية له معنى تاريخي أكثر منه جغرافي . فهي تدل على منطقة كانت تشكل مسرحاً هاماً لأحداث التاريخ القديم . وترتبط بعلاقات متفاوتة مع المناطق المجاورة ، ففي الشمال تقع هضبة الأناضول وفي الشرق جبال زاغروس ، بينما تحدها من الغرب بادية الشام ومن الجنوب الخليج العربي .

أما السكان المحليون فقد أطلقوا على بلادهم تسميات عديدة حسب الفترات التاريخية المختلفة ، وحسب قيام دولة أو مدينة أو مجموعة من السكان ببناء صرح الحضارة في فترة من الفترات . فكانت منطقة جنوب بلاد الرافدين تسمى بلاد بابل Babylonia (باللغة الأكادية مات بابل) ، ومنطقة الشمال بلاد آشور Assyria (بالأكادية مات آشور) .

وتمتد بلاد بابل من بغداد الحالية حتى سواحل الخليج العربي في الجنوب . وتتميز بشدة الحرارة في فصل الصيف وبسقوط كميات قليلة من الأمطار في فصل الشتاء . لذلك فإن الزراعة في هذه المنطقة اعتمدت منذ وقت مبكر على مياه الأنهار ، وتمكن الانسان بفضل التربة الخصبة ومشاريع الري الصناعية التي أقامها على الأنهار من زراعة أنواع مختلفة من الحبوب والمزروعات .

كانت بلاد بابل مؤلفة من قسمين رئيسين هما سومر Sumer [1] في الجنوب حيث عاش السومريون وازدهرت حضارتهم ، وأكّاد[2] في الشمال التي كانت عاصمة أول امبراطورية كبرى في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ألا وهي الامبراطورية الأكادية - .

1 - سومر باللغة الأكادية شـومـيروم Sumerum ، وبـلاد سومـر : مـات شـوميري mat sumeri ، وباللغة السـومريـة ki/ e-en-gi (r) . وربما كانت بالأصل تسمية للمنطقة المحيطة بمدينة نيبور في وسط بـلاد بـابـل واستخدمت فيما بعـد كاسم لكل وسط بلاد بابل وجنوبها . وربما تعني «أرض زراعية» .
انظر :
Römer, W.H.Ph., Einfuhrung in die Sumerologie, 6. verbesserte Auflage, Nijmegen 1984, S. 6-7.

2 - بالسومرية Ki-Uri : بلاد أكّاد . المرجع السابق . بينمـا بالأكـادية مـات اكادي .

أما بلاد آشور ، أي القسم الشمالي من بلاد الرافدين ، فتتميز بأن مساحتها أكبر بقليل من القسم الجنوبي ومناخها أكثر اعتدالاً وتتلقى كميات أكبر من الأمطار . ولكنها تختلف عنه بطبيعتها الجبلية الوعرة . وقد استوطن الآشوريون في هذه المنطقة وبنوا مدناً عديدة ازدهرت وكانت مراكز اشعاع حضاري ، ومنطلقاً لتأسيس امبراطوريات كبرى مشهورة في تاريخ الشرق الأدنى القديم .



الفصل الثاني

مصادر تاريخ بلاد الرافدين

يمتد تاريخ بلاد الرافدين القديم منذ عصور ما قبل التاريخ (أو ما قبل الكتابة) وحتى عام 539 ق . م ، وهو العام الذي سقطت فيه بابل بيد الملك الفارسي قورش الثاني الذي أخضع وخليفته قمبيز كل منطقة الشرق الأدنى القديم للسيطرة الفارسية الأخمينية .

وقد عرف العالم في البداية بعض جوانب تاريخ بلاد الرافدين بشكل خاص ، وتاريخ الشرق الأدنى القديم بشكل عام ، من الأخبار الواردة في التوراة ومن كتابات بعض المؤرخين الاغريق والرومان . وكانت هذه الأخبار باعثاً للعديد من الرحالة والمغامرين والباحثين الأوروبيين للقيام برحلات استكشافية إلى بقاع الشرق الأدنى القديم للبحث عن أطلال المدن المندثرة من أمثال الايطالي بيترو ديلاّ فالّ pietro della Valle والدانماركي كارستن ينبور C.Niebuhr والألماني بوركارت Y.L. Burckhardt وغيرهم .

ولكن الخطوة الحاسمة التي قادت إلى التعرف على المصادر الأساسية لتاريخ بلاد الرافدين كانت فك رموز الكتابة المسمارية جزئياً من قبل الألماني غروتفند G.F.Grotefend (1775–1853) عام 1802 . وقد تابع جهود هذا العالم علماء آخرون مثل رولنسون Rawlinson وهينكس Hincks ولورنس Lowrens الذين أدت جهودهم وأبحاثهم إلى التعرف بشكل جيد على نظام الكتابة المسمارية عام 1857 .

لفتت محاولات فك رموز الكتابة المسمارية أنظار أوروبة إلى بلاد الرافدين وأدت إلى القيام بحفريات أثرية قبل منتصف القرن التاسع عشر في عواصم الامبراطورية الآشورية الحديثة ، (في نينوى بالقرب من الموصل ، وفي دور شاروكين وفي كلخو) .

وقد قاد تلك الحفريات موظفون وقناصل انكليز وفرنسيون مهتمون بالآثار من أمثال اميل بوتا E.Botta وفلاندين E.Flandin ولايارد A.H.Layard الذين جعلوا العالم يتعرف على الآثار الرافدية من قصور ومعابد وما تحويه من رسوم وتزيينات وتماثيل وتحف فنية وغيرها . وكانت معظم الآثار المكتشفة تنقل إلى فرنسا وانكلترا وتودع في متحف اللوفر في باريس وفي المتحف البريطاني في لندن . وتعد اليوم من الكنوز التي يملكها هذان المتحفان . وأسفرت الحفريات الأثرية في شمال بلاد الرافدين بعد منتصف القرن التاسع عشر عن اكتشافات هامة أشهرها مكتبة العاهل الآشوري المشهور آشور بانيبال (669–627ق . م) في نينوى والمؤلفة من نحوخمسة وعشرين ألف رقيم طيني تمثل أعمالاً علمية وأدبية ودينية سومرية وبابلية وآشورية .

شملت الحفريات الأثرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جنوب بلاد الرافدين الذي جرت فيه حفريات عديدة منها حفريات نائب القنصل الفرنسي في البصرة إرنست دو سارزيك E.Sarzek في موقع تللو Tello (جرسو القديمة) منذ عام 1877 حيث عثر على العديد من الآثار السومرية ، من بينها العديد من تماثيل جوديا أمير مدينة لاجاش (2143–2124 ق .م) واسطوانتين طينيتين خُلدت عليهما أعمال ذلك الأمير .

أما في نيبور (نُفَّر حالياً) عاصمة سومر الدينية فقد جرت حفريات أمريكية ما بين 1888–1900 بقيادة كل من هلبرخت H.V.Hilprecht وبيتيرس J.P.Peters وهاينيس I.H.Haynes أسفرت عن الكشف عن نحو خمسين ألف نص سومري ، وعن زقورة ومعبد للإله إنليل ، وعن معبد للإلهة إنانا .

تميزت الحفريات الاثرية التي تمت حتى نهاية القرن التاسع عشر بالعشوائية والبعد عن إتباع الطرق العلمية في التنقيب الاثري . وكان معظم الذين مارسوها من المغامرين والقناصل والموظفين الفرنسيين والانكليز الذين كان دافعهم للقيام بها البحث عن الكنوز الدفينة وتحقيق شهرة ذاتية . وقد اتخذت عمليات التنقيب في معظم الاحيان شكل سباق وتنافس حاد بين فرنسا وبريطانيا للحصول على أكبر كمية ممكنة من الاثار المكتشفة . ونقلت معظم المكتشفات الى كل من متحف اللوفر في باريس والمتحف البريطاني في لندن .

استمرت التنقيبات الأثرية مع بداية القرن الحالي وأشهرها التنقيبات في مدينة بابل من قبل بعثة ألمانية برئاسة روبرت كولدوي R.Koldewey بين 1899–1917 والتي أدت إلى العديد من الاكتشافات التي يرقى زمنها إلى عهد المملكة البابلية الحديثة القرن 7–6 ق .م) .

وجرت أيضاً حفريات ألمانية في آشور (قلعة شرقاط حالياً) في الفترة ما بين 1903–1914 بقيادة كل من كولدوي وفالتر آندريه W.Andrae ويوليوس يوردان J.Jordan : وتتصف الحفريات الألمانية في كل من بابل وآشور باتباع الأساليب العلمية الدقيقة في البحث الأثري حتى أن كولدوي يعدّ مؤسس البحث في هندسة الأبنية الأثرية .

كانت نتيجة الحفريات التي جرت في تل المقيِّر (أور) في جنوب بلاد الرافدين بين 1922–1934 بقيادة الانكليزي ليونارد وولي L.Woolley اكتشاف المقبرة الملكية . وأدت الحفريات الفرنسية في موقع تل حريري على الفرات الأوسط (ماري) منذ عام 1933بقيادة أندريه پارو A. parrot إلى اكتشافات هامة عديدة أشهرها الأرشيف الملكي المؤلف من آلاف عديدة من الرقم الطينية ، والقصر الملكي الضخم ، ومعبد الإلهة عشتار إلهة الحب والحرب في بلاد الرافدين .

لم تقتصر الحفريات والاكتشافات الأثرية على بلاد الرافدين وحدها بل شملت مناطق عديدة أخرى في الشرق مثل اكتشاف أرشيف تل العمارنة (أخيت أتون) عام 1887 في مصر الوسطى ، والأرشيف الحثي في حاتوشا العاصمة الحثية (حالياً بوغاز كوي) عام 1907 على يد الألماني ڤنِكلر H.Winckler . كذلك جرت حفريات أثرية على الساحل السوري في موقع رأس

شمرا منذ عام 1929 من قبل الفرنسي كلود شيفر C. Schaeffer أدت إلى الكشف عن مدينة أوجاريت. وقامت بعثة انكليزية بقيادة السير ليونارد وولي مكتشف مقبرة أور الملكية بالتنقيب في منطقة سهل العمق عام 1937 وكشفت عن مدينة ألالاخ القديمة في موقع تل عطشانة الحالي بالقرب من أنطاكية .

إن قائمة الحفريات والاكتشافات الأثرية طويلة ونكتفي هنا بالإشارة إلى أهمها وأحدثها . فهناك الحفريات الايطالية برئاسة پاولو ماتييهP.Matthiae منذ عام 1964 في موقع تل مرديخ جنوب حلب والتي أدت إلى الكشف عن مدينة إبلا وأرشيفها الملكي عام 1974 . وتوصلت بعثة أمريكية برئاسة هارفي فايس H.Weiss عام 1987 إلى الكشف عن مدينة شوباط إنليل في موقع تل ليلان الحالي بالقرب من الحسكة . كانت محصلة التنقيبات الأثرية الكثيرة التى تمت سواء في بلاد الرافدين أو في بلدان المشرق العربي الأخرى ، والتي ذكرنا أهمها وأكثرها شهرة فقط ، الكشف عن العديد من الأبنية القديمة كالمعابد والقصور ، وعن تماثيل وتزيينات وتحف فنية رائعة ، وعن مئات الألوف من الألواح الطينية المدونة بالخط المسماري وباللغات السومرية والأكادية بلهجاتها المتعددة .

وقد أدت محاولات قراءة وتفسير النصوص المختلفة إلى نشوء عِلمَيّ السومريات Sumerology : أي دراسة اللغة والنصوص السومرية والتاريخ السومري ، والآشوريات Assyriology : أي دراسة اللغة الأكادية والنصوص الأكادية والتاريخ الرافدي بشكل عام . وقد أطلقت هذه التسمية (علم الآشوريات) لأن أولى النصوص المكتشفة كانت نصوصاً مكتوبة باللهجة الآشورية . ولكن تبين فيما بعد أن هذه اللهجة ليست إلا فرعاً من لغة أم هي اللغة الأكادية . لذلك يميل كثير من الباحثين اليوم إلى استخدام «علم الأكاديات» Akkadistik بدلاً عن «علم الآشوريات» .

وتشكل المكتشفات التي تم العثور عليها نتيجة للتنقيبات الأثرية المصادر الأساسية لكتابة تاريخ بلاد الرافدين . فمنها نستقي معلوماتنا المختلفة عن تاريخ تلك المنطقة في العصور القديمة . ويمكن تقسيمها إلى قسمين هما مصادر مادية ومصادر مكتوبة .

1 ـ المصادر المادية :

وتشمل جميع أنواع المكتشفات الأثرية والتي لا تحمل كتابة كالقصور والمعابد والزقورات والأبنية الأخرى والتماثيل والزخارف والرسوم والأختام والدمى والمنحوتات المختلفة وغيرها . إن دراسة هذه المكتشفات تمكننا من معرفة جوانب كثيرة من تاريخ بلاد الرافدين مثل فن البناء والنحت والنقش والتزيين وغيرها . ومما تجدر الإشارة إليه أن الآثار المادية تشكل المصدر الأساسي في دراسة عصور ما قبل التاريخ ، أي تلك العصور التي لم يكن الانسان فيها قد توصل بعد إلى اختراع الكتابة .

وعلى الرغم من اختراع الكتابة فإن المؤرخ لم يستغن عن الآثار المادية في بحثه عن معرفة الماضي فهي تظهر أشياء مختلفة لا تذكرها الوثيقة المكتوبة .

2 ـ المصادر المكتوبة :

وهي ما كُتب عن بلاد الرافدين في العصور القديمة المختلفة . وتُقسم المصادر المكتوبة إلى عدة أنواع :

أ ـ مصادر أصلية أو أساسية :

وتشمل جميع الكتابات والوثائق والنصوص المكتشفة في بلاد الرافدين أو خارجها (مثل نصوص العمارنة ونصوص ألالاخ ونصوص إبلا) .

وقد دونت النصوص المكتشفة في بلاد الرافدين بالخط المسماري وباللغات السومرية والأكادية بلهجاتها المختلفة . وهناك عدد من النصوص كتب باللغة الحورية .

مما تجدر الإشارة إليه أن الكتابة المسمارية انتشرت في مختلف أنحاء الشرق الأدنى القديم وكُتبت بها لغات عديدة هي السومرية والأكادية والعيلامية والحثية والحورية والابلائية . وقد طرأت عليها تطورات عديدة خلال تاريخها الطويل . ويمكن تشبيهها بالحرف اللاتيني المستخدم حالياً لكتابة العديد من اللغات الأوروبية الحديثة ، وبالحرف العربي الذي تكتب به حالياً اللغة الفارسية وغيرها .

تمدنا المصادر المكتوبة الأساسية بمعلومات جمة عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادارية والدينية ، وعن جوانب أخرى عديدة من تاريخ بلاد الرافدين . وتصنف عند اكتشافها حسب محتواها فهناك وثائق اقتصادية ووثائق إدارية ووثائق قانونية ومراسلات ونصوص دينية وملاحم ومعاجم وغيرها .

وتعد نصوص المصادر الأساسية ووثائقها بمئات الألوف موزعة في مختلف متاحف العالم ونذكر منها على سبيل المثال : محفوظات ماري الملكية ـ نصوص نيپور ـ مكتبة آشور بانيپال ـ قانون حمورابي ـ مراسلات العمارنة ـ الكتابات الملكية المختلفة وغيرها .

وقد نشر عدد كبير من هذه الوثائق في سلاسل ودوريات مختلفة وبلغات عدة كالانكليزية والفرنسية والألمانية .

ب ـ التوراة :

التوراة كتاب ديني وُضع لخدمة أهداف دينية وأخلاقية محددة ويعود تاريخ تدوينه الى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد . ويرد فيه ، وخاصة في الأسفار التاريخية ، ذكر الكثير من الأحداث التي جرت في بلاد الرافدين وفي غيرها من مناطق المشرق العربي القديم الأخرى . ويلاحظ المرء أن كثيراً من المعلومات الواردة فيه منقولة عن مصادر أقدم منه بقرون عديدة كالمصادر الرافدية والكنعانية والمصرية القديمة . وتتصف الأخبار الواردة فيه بالايجاز أحياناً وبالبعد عن التحليل وذكر الأسباب الحقيقية أحياناً أخرى . لذلك لا يمكن الاعتماد عليه

كمصدر تاريخي موثوق دون إخضاعه لعملية النقد التاريخي والعلمي ، ومقارنة الأخبار الواردة فيه مع ما تذكره المصادر المكتوبة الأساسية سواء الرافدية أو غيرها من المصادر القديمة .

جـ ـ كتابات المؤرخين الكلاسيكيين :

قام العديد من المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين (اليونان والرومان) بزيارة بلاد الرافدين وبعض مناطق المشرق العربي القديم الأخرى وكتبوا عنها في مؤلفاتهم التي وضعوها . غير أن كتاباتهم عن تلك المناطق تعد مصدراً ثانوياً من مصادر تاريخها لأنها تعود إلى أزمنة متأخرة وتفتقر إلى الدقة العلمية . ولكن تكمن أهميتها أننا تعرفنا من خلالها على كتابات لمؤرخين محليين فقدت وضاعت على مر الزمن . ونذكر من هؤلاء :

1ـ هيرودوت : Herodot (نحو 490–425 ق م.)

قام هيرودوت المؤرخ الاغريقي المشهور الملقب بـ «أبي التاريخ» برحلات عديدة ، منها رحلات إلى المشرق العربي القديم زار خلالها بلاد الرافدين وسورية ومصر . وكتب عن هذه البلدان في مؤلفه الضخم «التواريخ» الذي كرسه للحديث عن الحروب الفارسية ـ الاغريقية (490–479 ق . م) . فتحدث في الكتاب الأول : الفصول 177–200 عن بلاد بابل . ولكن المعلومات التي أوردها تفتقر إلى الموضوعية والدقة وتتصف بالسطحية وكثرة الأخطاء . والسبب في ذلك هو جهل كاتبها بلغة البلاد في تلك الفترة واعتماده على روايات غير موثوقة عن طريق تراجمة . بيد أنه يمكن الاستفادة منها بمقارنتها مع الكتابات المحلية المكتشفة أو التي قد تكتشف في المستقبل .

2ـ كزينزفون Xenophon(430–354ق .م)

دون هذا المؤرخ في كتابه "أناباسيس" Anabasisأو "حملة الى الداخل" أخبار الحملة المؤلفة من عشرة ألاف مرتزق يوناني التي حاربت مع قورش Kyrosالصغير ضد أخيه أرتاكسيريكس الثاني Artaxerexesملك الفرس بين عامي 405–359ق . م . وقد منيت تلك الحملة بالهزيمة بعد مقتل قورش الصغير وعاد المرتزقة اليونان الى بلادهم بقيادة كزينوفون .

يصف كزينوفون سير الحملة بمحاذاة الفرات باتجاه الجنوب ويتحدث بشكل مختصر عن الزراعة واستثمار المياه وجرها في قنوات من نهر دجلة ويصف كذلك أطلال المدن المندثرة في شمال بلاد الرافدين .

3ـ سترابون : Strabon (63ق .م ـ20م)

يتحدث الجغرافي الاغريقي سترابون في مؤلفه Geographica (الجغرافية) والبالغ سبعة عشر كتاباً عن بلاد الرافدين ، ويصف بشكل جيد استغلال المياه في الزراعة وجرها في قنوات .

بالاضافة إلى هؤلاء هناك كتاب ومؤرخون كلاسيكيون آخرون كتبوا في مؤلفاتهم عن بلاد الرافدين مثل پلينيوس Plinius (23-79م) وفلاڤيوس يوسيفوس F.Josephus وديودور الصقلي وغيرهم .

ولدينا من بابل مؤرخ محلي هو برحوشا (باليونانية بيروسوس Berossos) . ويتضح من اسمه أنه من أصل آرامي . عاش برحوشا في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، أي خلال عهد السيطرة السلوقية على بلاد الرافدين .

وضع برحوشا كتاباً عن «تاريخ بابل» بعنوان «Babyloniaca» وقسّمه إلى ثلاثة أقسام . تحدث في القسم الأول (وعنوانه الحكمة) عن الأساطير البابلية ، وفي الثاني عن تاريخ بلاد الرافدين منذ خلق الكون وحتى عهد الملك الآشوري تيجلات پيليصر الثالث ، وفي الثالث عن تاريخ بلاد الرافدين حتى وفاة الاسكندر المقدوني . وقد تمكن برحوشا من كتابة مؤلفه الضخم بفضل عوامل عدة هي معرفته باللغات المحلية بالاضافة إلى اللغة اليونانية التي كتب مؤلفه بها ، وكونه كاهناً في معبد مردوك الاله البابلي المشهور مكّنه من الاطلاع على أرشيف المعبد المؤلف من آلاف الرقم الطينية والاستفادة منها في كتابة مؤلفه . ولكن للأسف ضاع هذا العمل ولم يبق منه إلا ما نقل عنه الكتاب والمؤرخون الكلاسيكيون المتأخرون أمثال فلاڤيوس يوسيفوس ويوليوس أفريكانوس J.Africanus وأوزيبيوس Eusebius واسكندر بوليستور A.polyhistor وأتينايوس Atenaeos .



الفصل الثالث

حضارات عصور ما قبل التاريخ

أدى اختراع الانسان للكتابة في بلاد الرافدين نحو 3200 ق.م إلى انتقاله إلى مرحلة جديدة من حياته ألا وهي مرحلة العصور التاريخية. أما الفترة التي تسبق ذلك التأريخ فتسمى عصور ما قبل التاريخ Prehistory أو عصور ما قبل الكتابة. وتتميز هذه العصور بطولها بالمقارنة مع العصور التاريخية. وقد استخدم الانسان خلالها الحجر لصنع أدواته المختلفة لذلك تسمى أيضاً العصور الحجرية التي يميز فيها:

1 ـ العصر الحجري القديم (پاليوليت) Palaeolithic الذي يبدأ مع ظهور الانسان وينتهي نحو 12,000 ق.م.

2 ـ العصر الحجري الوسيط (ميزوليت) Mezolithic ويمتد من 12,000 إلى 8000 ق.م.

3 ـ العصر الحجري الحديث (نيوليت) Neolithic ويبدأ نحو 8000 ق.م وينتهي مع بداية الألف الخامس قبل الميلاد.

كان الانسان يعيش في العصر الحجري القديم حياة تنقل وترحال معتمداً في غذائه على الصيد وجمع القوت (مرحلة جمع القوت food collecting stage) مما تجود به الطبيعة، وانتقل في العصر الحجري الحديث إلى مرحلة الاستقرار والعيش في بيوت ثابتة وإنتاج القوت (مرحلة انتاج القوت food–producing stage) بعد أن عرف الزراعة وتدجين الحيوانات.

حدث هذا التحول الجذري في حياة الانسان أي الانتقال من البحث عن القوت إلى إنتاجه في الفترة ما بين 8000–6000 ق.م، وأطلق عليه بعضهم اسم «الثورة النيوليتية» (Neolithic Revolution) لأنه أدى إلى إحداث انقلاب كبير في طريقة عيش الانسان. ولكن هذا الانقلاب لم يكن تغييراً مفاجئاً بل تطوراً تدريجياً لجهود الإنسان المستمرة لتحسين مستوى معيشته.

وقد تم هذا التحول في مواقع عديدة في المشرق العربي القديم أقدمها موقع المريبط في سورية.

اعتقد الأمريكي روبرت برايدوود R.J.Braidwood من جامعة شيكاغو أن أولى المجتمعات الزراعية يجب أن تكون قد قامت في شمال بلاد الرافدين على أطراف سلسلة جبال زاغروس في المنطقة التي تعرف حالياً باسم كردستان، حيث كانت تسقط أمطار كافية وينمو القمح والشعير البري وتعيش أنواع عديدة من الحيوانات البرية كالأغنام والماعز والأبقار والخنازير.

وكان برايدوود يأمل أن يكتشف آثار فلاحي العالم الأوائل ومربي حيواناته . فقام بالحفريات الأثرية في موقع جرمو الواقع إلى الشرق من كركوك بين عامي 1948–1955 وهو تل تبلغ مساحته 1,5 هكتار ويقع في سفوح جبال زاغروس الشمالية . كشف برايدوود هناك عن خمس عشرة سوية أثرية متوضعة فوق بعضها بعضاً وتحوي آثار استيطان إنساني . وتبين من دراسة هذه السويات أن العشرة السفلى منها (15–5) تعود إلى عصر ما قبل الفخار . وكان السكان يصنعون أدواتهم من الأحجار وخاصة من الكلس والمرمر ، ويبنون بيوتهم من الطين على شكل مربع وتتألف من عدة غرف ومجهزة بمواقد ذات مداخن . كان سكان جرمو الأوائل متطورين في صنع الأدوات الحجرية كما تبين المكتشفات من بلطات حجرية ذات الأنصال المسننة والصحون والأدوات الأخرى المصنوعة من الحجر الكلسي . وصنعوا أيضاً من عظام الحيوانات مخارز وإبر ، وزينوا أنفسهم بعقود وأقراط وأساور وخواتم من الحجر والعظام . وعلى المستوى الديني صنعوا تماثيل ودمى إنسانية وحيوانية من الطين المشوي .

قام سكان جرمو بزراعة القمح والشعير والعدس والذرة كما يظهر من البقايا المتفحمة من تلك الأنواع . وتدل عظام الحيوانات المكتشفة على تربيتهم للماعز والأغنام والأبقار والخنازير والكلاب .

باختصار يمكن القول أن برايدوود اكتشف في جرمو مجتمعاً زراعياً مستقراً يرقى تاريخه ، حسب طريقة الفحم المشع ، إلى الفترة ما بين 6500–5800 ق . م ، عرف سكانه المتأخرون فقط (السويات 5–1) صناعة الفخار التي عرفها سابقاً سكان المجتمعات الزراعية الأخرى التي نشأت في الشرق الأدنى القديم .

رغم أهمية الاكتشافات التي تمت في جرمو فإنها لم تعط جواباً عن السؤال المطروح : «أين ومتى بدأت الزراعة»؟ لذلك وسع برايدوود نطاق بحثه فقام بالحفريات في موقع يدعى كريم شاهير يبعد عن جرمو نحو 2 كم ، ووجد هناك سوية استيطان بشري واحدة تحوي أدلة على ممارسة زراعة مبكرة وهي فؤوس حجرية ومناجل من حجر الصوان وعظام كثيرة لحيوانات مدجنة . ولكن لم يعثر على آثار لأية حبوب أو أساسات بيوت . وهذا أدى الى الاعتقاد أن المكان ربما كان مقراً لجماعة شبه بدوية مارست الزراعة باستخدام الفأس الحجري وكانت تنتقل من مكان إلى آخر عندما تُجهد التربة .

تعطي كريم شاهير الانطباع أنها أقدم من جرمو بقرون عديدة ومن المؤكد أن الزراعة وجدت هناك في بداية تطورها .

تعد حفريات برايد وود في جرمو وكريم شاهير ذات أهمية كبيرة لدراسة تاريخ نشوء الزراعة ، والنتيجة الأساسية التي أظهرتها أن جرمو هي أقدم مستوطنة زراعية قامت في بلاد الرافدين[3] . ولكن الانسان كان قد استقر ومارس الزراعة قبل ذلك في مواقع أخرى من الشرق القديم . فقد بينت حفريات أثرية في سورية وفلسطين وآسية الصغرى وإيران أن مستوطنات وقرى زراعية نشأت في هذه المناطق قبل أن تنشأ في بلاد الرافدين . وأقدم موقع مكتشف حتى الآن مارس الانسان فيه الزراعة هو موقع المريبط (القرية الثالثة) على الضفة

3 ـ انظر حول حفريات بريد وود في جرمو وكريم شاهير :
Braidwood, R., J. and B.Howe, Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan, Chicago 1960.

اليسرى للفرات الأوسط في سورية ، والذي غمرته مياه سد الفرات . وقد قام بالتنقيب فيه جاك كوفان J.Cauvin في الفترة ما بين 1971-1974 . وكشفت التنقيبات عن بقايا حبوب في السوية الثالثة التي يرقى تاريخها حسب الكربون المشع إلى نحو 7700 ق . م . ويعد هذا التاريخ أقدم تاريخ معروف حتى الآن عن ممارسة الزراعة .

كذلك فإن أريحا (مدينة القمر) في فلسطين الواقعة على بعد نحو 15 كم شمال غرب مصب نهر الأردن في البحر الميت ، والتي تعود بدايات الاستيطان البشري فيها إلى الألف التاسع قبل الميلاد ، أقدم من جرمو . فقد كشفت الحفريات التي جرت في تل السلطان (بالقرب من أريحا) ما بين 1952-1958 من قبل كاتلين كينيون Kathleen M.Kenyon عن موقع يعود إلى عصر ما قبل الفخار محاطاً بسور من أحجار غير منحوتة . وتدل الهاونات والمدقات المكتشفة على قيام زراعة بدائية لإعالة سكان بلغ عددهم نحو ألفي نسمة أو أكثر بقليل . مارس سكان أريحا في الألف الثامن زراعة القمح والشعير لكنهم لم يدجنوا الحيوانات ولم يتخلوا عن الصيد البري .

يتضح مما تقدم أن بلاد الرافدين لم تكن المسرح الأول الذي تمت عليه ولادة الزراعة و«الثورة الزراعية» بل تم ذلك في مواقع أخرى من المشرق العربي القديم . ولكن مما لا شك فيه أن الزراعة في بلاد الرافدين تطورت مع الزمن وقدمت الشروط الأساسية والضرورية لنشوء المدن وتطورها وبالتالي ازدهار الحضارة الانسانية . انتقلت الزراعة بالتدريج مع الزمن من المناطق الشمالية الجبلية في بلاد الرافدين إلى المناطق الوسطى والجنوبية وخاصة إلى وديان دجلة والفرات حيث التربة الخصبة والمياه الغزيرة . وبدأت تظهر منذ منتصف الألف السادس قبل الميلاد حضارات معروفة ذات خصائص معينة نستعرضها فيما يلي :

1ـ حضارة حسونة :

سميت بهذا الاسم نسبة إلى تل حسونة الواقع جنوب الموصل الذي عثر فيه آثاريون عراقيون على أولى آثار هذه الحضارة التي يرقى تاريخها إلى نحو 5800 ق . م . يبدو أن سكان حسونة الأوائل كانوا أشباه بدو ربطوا ما بين زراعة بدائية واقتصاد غذائي وحفظوا الفائض من الحبوب في جرار فخارية غير مشوية وعاشوا في بيوت ضعيفة البنيان . بعد عدة أجيال تخلى هؤلاء السكان عن حياتهم شبه البدوية وصاروا يعيشون في قرى بنوا فيها بيوتهم من اللبن المجفف تحت أشعة الشمس .

مارس سكان حسونة زراعة القمح والشعير والذرة وربّوا الأغنام والماعز والأبقار والخنازير واصطادوا الحيوانات البرية كالثور والغزال . وكانوا يحفظون الحبوب في أوانٍ طينية كبيرة توضع في الأرض .

إن أهم مميزات حضارة حسونة صناعة الفخار . لقد عُرِفت صناعة الفخار قبل هذا العصر بوقت قصير في موقع أم الدباغية في شمال بلاد الرافدين . لكنها تطورت بشكل أفضل في هذا العصر وأصبحت أكثر اتقاناً بسبب ابتكار أفران كبيرة مؤلفة من طابقين : موقد وغرفة لشي الفخار .

عرف سكان حسونة نوعين من الفخار هما فخار حسونة العتيق البسيط الملون أحياناً بالأحمر أو الأسود ، وفخار حسونة النموذجي الملون بعدة ألوان الذي لم يعرف الزخرفة بالأشكال الحيوانية أو النباتية أو البشرية . وعرف سكان حسونة صناعة النسيج أيضاً .

من المعتقد أن الزيادة في الانتاج الزراعي وتوفر فائض من الحبوب أديا إلى نشوء تجارة مع مناطق بعيدة . والدليل على هذا هو تلك القطع الفنية التي عثر عليها في مواقع حضارة حسونة . فقد استُورِد الأوبسيديان (السبَج) من منطقة بحيرة ڤان Van في شرق تركية حيث وجدت مناجم له هناك ، والكحل والأحجار الكريمة من إيران ، والأصداف من منطقة الخليج العربي . من آثار حضارة حسونة أيضاً الأختام الحجرية المسطحة التي تحمل رسوماً هندسية . انتشرت حضارة حسونة في منطقة واسعة امتدت من جبل سنجار في الغرب وحتى الزاب الأصغر في الشرق والزاب الأكبر في الجنوب ، ودامت حتى بداية الألف الخامس قبل الميلاد .

2ـ حضارة سامراء :

نسبة إلى مدينة سامراء في شمال العراق حيث عثر على الفخار العائد لهذه الحضارة التي غطت الثلث الأخير من الألف السادس قبل الميلاد . وكانت بذلك معاصرة لحضارة حسونة ولحضارة حلف . وامتدت من الموصل شمالاً وحتى بغداد جنوباً ، ومن سفوح زاغروس شرقاً وحتى الفرات الأوسط غرباً .

بنيت بيوت هذه الفترة من اللبن وأصبحت القرى والمستوطنات الزراعة أكبر من سابقاتها وأحيطت ، ولأول مرة في بلاد الرافدين ، بخنادق وأسوار وأبراج للدفاع عنها . أما في مجال الزراعة فقد زرع السامرائيون القمح والشعير وعرفوا الزراعة المروية عن طريق إنشاء الأقنية وجر المياه فيها . وقد مكنهم هذا من زراعة الكتان . أما الحيوانات التي دجنوها فكانت الأغنام والماعز والأبقار والخنازير والكلاب .

أما صناعة الفخار فقد تطورت بشكل كبير في هذا العصر ويمكن تمييز ثلاث مراحل فيها هي المرحلة الأولى ذات الفخار الخشن غير الملون ، والمرحلة الثانية ذات الفخار المتقن الصنع الملون بألوان عديدة والمزخرف بأشكال هندسية مختلفة مستوحاة من نماذج الأقمشة والصناعات النسيجية التي تطورت في هذه الفترة . استخدمت في الزخرفة أيضاً أشكال إنسانية وحيوانية ونباتية . أما المرحلة الثالثة من فخار سامراء فتتميز بغياب الزخارف الطبيعية وسيادة الزخارف الهندسية .

ساد الاعتقاد سابقاً أن حضارة سامراء حضارة مستوردة من إيران . ولكن تبين نتيجة الحفريات والاكتشافات والدراسات المختلفة أن حضارة سامراء حضارة رافدية أصيلة ومستقلة .

اختفت حضارة سامراء في نهاية الألف السادس قبل الميلاد وانتهى معها العصر الحجري الحديث وبدأ عصر جديد تميز باستخدام النحاس في صنع الأدوات المختلفة سمي العصر الحجري ـ النحاسي لأن الانسان لم يتخل عن استخدام الأدوات الحجرية على الرغم

من معرفته النحاس . وقد امتد ذلك العصر من بداية الألف الخامس حتى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وظهرت خلاله حضارات حلف والعُبيد .

3ـ حضارة حلف :

يعود تاريخ نشوء هذه الحضارة إلى النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد . وسميت بهذا الاسم نسبة إلى تل حلف الواقع شمال شرق سورية ، شمال غرب رأس العين على ضفة الخابور ، حيث اكتشفت هناك أولى آثار هذه الحضارة على يد الألماني ماكس فون أوبنهايم M.V.Oppenheim أثناء حفرياته ما بين 1911–1913و 1927–1929 .

أحرز سكان حلف تقدماً كبيراً في المجالات المختلفة . فعلى الرغم من قيام هذه الحضارة في مناطق تعتمد على مياه الأمطار فقد ازدهرت الزراعة وعرف السكان أنواعاًجديدة من الحبوب واقتنوا قطعاناً من الأبقار والماعز . أما في مجال صناعة الفخار فقد تحقق تقدم كبير حيث صُنع الفخار المصقول بعناية والمزين والملون بألوان عديدة والمزخرف بأشكال طبيعية نباتية أو حيوانية . وقد انتشر هذا الفخار في مناطق واسعة امتدت من شمال بلاد الرافدين حتى سواحل البحر المتوسط ، وعُرِف باسم فخار تل حلف .

عرفت عملية بناء البيوت في عصر حلف مراحل مختلفة من التطور وكانت مواد البناء تتألف من الطين والحجر . استخدم الحلفيون النحاس والرصاص لصنع أدوات الزينة والأدوات الصغيرة . وصُنعت الأختام المسطحة من الحجر أو الفخار ورسمت عليها زخارف هندسية متنوعة . أما على الصعيد الديني فقد صنع الحلفيون دمى نسائية من الحجر أو الطين تجسيداً لفكرة «الإلهة الأم» التي انتشرت عبادتها منذ الألف الثامن قبل الميلاد . من أشهر مراكز حضارة حلف موقع العربجية في شمال العراق الذي يظهر مراحل تطور هذه الحضارة بشكل واضح .

اختفت حضارة حلف في نهاية الألف الخامس قبل ا لميلاد ، ولم تُعرف حتى الآن الأسباب التي أدت إلى ذلك . ولكن التطور الحضاري في بلاد الرافدين لم يتوقف فظهرت حضارة جديدة هي حضارة العُبيد في جنوب بلاد الرافدين التي تأثرت في البداية بحضارة حلف ثم تطورت بشكل مستقل عنها .

4ـ حضارة العُبيد :

ظهرت هذه الحضارة في بداية الألف الخامس قبل الميلاد فكانت بالتالي معاصرة للمرحلة الأخيرة من حضارة حلف . وسُميت بهذا الاسم نسبة الى تل العُبيد الواقع على بعد نحو 6 كم غرب مدينة أور (المقيَّر حالياً) حيث اكتشفت هناك أولى آثارها قبل نحو خمسين عاماً .

ساد الاعتقاد سابقاً أن العُبيديين هم أول سكان عرفهم الجنوب الرافدي ولكن الاكتشافات الأثرية الأخيرة أظهرت وجود مجتمعات أقدم من سكان العُبيد سبقتهم إلى استيطان المنطقة .

ويمكن تمييز أربع مراحل في هذه الحضارة التي استمرت حتى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد . اقتصر وجود العُبيديين في المرحلتين الأولى والثانية على جنوب بلاد الرافدين وانتشروا فيما بعد إلى الشمال . وأشهر مواقع المرحلة العُبيدية الأولى أبو شهرين (مدينة إريدو القديمة) حيث كُشِفت هناك أواني فخارية وأبنية مختلفة الأشكال بنيت من اللبن وكانت الأساس ، على ما يبدو ، الذي تطورت عنه المعابد السومرية في العصور اللاحقة .

أما في المرحلة الثانية فقد صُنع الفخار ايضاً واستخدمت الأدوات المصنوعة من حجر الصوان والأوبسيديان . ويعتقد أن الزراعة بالمحراث عُرفت في هذه الفترة ودُجنت الأبقار التي استخدمت في العمليات الزراعية . وعلى الصعيد الديني استمرت عبادة «الإلهة الأم» . أشهر مواقع هذه المرحلة موقع حجي محمد في جنوب العراق . انتشر العُبيديون في المرحلة الثالثة في منطقة واسعة شملت كل بلاد الرافدين وشمال سورية حتى سواحل البحر المتوسط . وقد أُحرزت خلال هذه الفترة ابتكارات هامة في جنوب بلاد الرافدين منها اختراع دولاب الفخار الذي ساعد على زيادة إنتاج الأواني الفخارية وتحسين نوعيتها . وبسبب افتقار منطقة الجنوب الرافدي إلى الأحجار صنع السكان أدواتهم المختلفة من الطين المشوي . أما في شمال بلاد الرافدين فقد تأثر العُبيديون بالحضارة الحلفية التي كانت سائدة قبلهم هناك ودجنوا الأغنام والماعز ومارسوا الزراعة البعلية وصنعوا أدواتهم من الأحجار بسبب توفرها هناك وصنعوا الأختام المسطحة من الأحجار والعظام والطين . وأهم مراكز هذه الفترة تبه غوره .

وفي المرحلة الرابعة من الحضارة العبيدية استمر تطور الاختراعات التي تمت سابقاً وأُحْرِز تقدم كبير في مجال الأبنية الدينية التي تعكس في شكل بنائها واتساع أبعادها تطوراً اجتماعياً ودينياً .

لقد حقق العُبيديون تطورات حضارية هامة في مختلف المجالات . ويبدو أن أسماء بعض المدن الرافدية مثل إريدو وأور ولاجاش ونيبور ، التي ليست سومرية ، ترجع إلى عصر العُبيد . ومن المعتقد أن اللغة التي انتشرت خلال هذا العصر هي اللغة التي استعار منها السومريون كلمات هامة مثل فلاح وراعي ومحراث ونسّاج ونجار . . . إلخ .

بدأت نحو نهاية الألف الخامس قبل الميلاد بعض القبائل البدوية بالدخول إلى بلاد الرافدين قادمة من شبه الجزيرةالعربية وبادية الشام ، ودخلت المنطقة عن طريق العنف أحياناً ، وبشكل سلمي أحياناً أخرى . وقد نتجت عن هذا التمازج بين القادمين والمقيمين فترة خصبة جديدة يمكن أن يقال عنها إنها وضعت «حجر الأساس» لأول حضارة حقيقية عرفتها البشرية .

نحو منتصف الألف الرابع قبل الميلاد أصاب تدمير وتخريب المراكز الحضارية العُبيدية التي ازدهرت في الفترة السابقة وانتقل مركز الاشعاع الحضاري إلى سومر في أقصى جنوب بلاد الرافدين . ويعود ظهور السومريين على مسرح التاريخ إلى نحو 3500 ق . م . وربما هاجروا إلى جنوب بلاد الرافدين من بعض مناطق آسية الوسطى عن طريق إيران ، أو من وادي السند عن طريق الخليج العربي ، أو من مناطق أخرى ، فالنظريات حول أصولهم وموطنهم الأول عديدة ومتضاربة .

بظهور هذه المجموعة البشرية الجديدة بدأ في جنوب بلاد الرافدين تمازج بشري وحضاري مثمر وبنّاء أعطى نتائجه في العصور اللاحقة .

5ـ حضارة الوركاء :

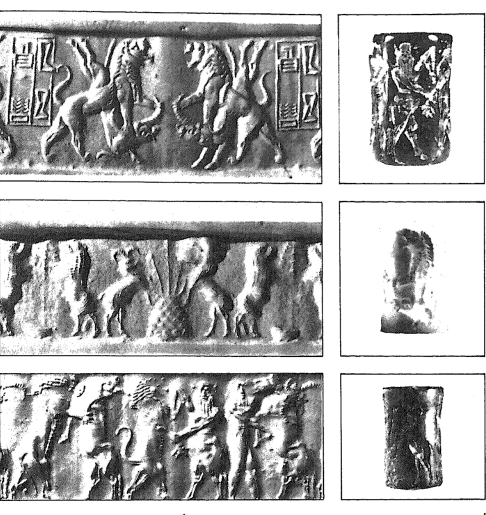
ظهرت هذه الحضارة في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد ، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى موقع الوركاء الحالي (مدينة أوروك القديمة) في جنوب العراق الذي كان مركزاً لانجازات حضارية هامة في تاريخ البشرية أبرزها اختراع الكتابة ، الذي يعد حداً فاصلاً بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية . لذلك يسمى هذا العصر أيضاً عصر «فجر الحضارة» أو «فجر التاريخ» لأن تغيراً أساسياً بارزاً طرأ على حياة الانسان وهو ابتكاره وسيلة للتدوين جعلته قادراً على كتابة أفكاره . فقد اكتشفت أولى البراهين على محاولة الانسان الكتابة في الطبقة الرابعة أ من أوروك (Uruk IV a) المؤرخة على نحو3200 ق .م ، وهي أقدم مرحلة من مراحل الكتابة وتعرف بالكتابة التصويرية Pictography ، حيث رُسمت إشارات وصور على لوحات طينية للتعبير عن أفكار معينة . وكان عدد الاشارات الصورية في البداية كبيراً ويقدَّر بنحو ألفين . كانت اللوحات الطينية المكتشفة عبارة عن وثائق إدارية تتعلق باقتصاد المعبد الكبير وممتلكاته التي يديرها الكهنة . لذلك فإن اختراع الكتابة ارتبط بالتطور الاقتصادي والاجتماعي للمدن الأولى التي نشأت والتي كانت تدار من قبل سلطات دينية . وربما كان الكهنة مخترعي الكتابة التصويرية . وقد تطورت هذه الكتابة في العصور اللاحقة إلى الكتابة المسمارية التي شاع استخدامها في بلاد الرافدين وخارجها .

أما اللغة المستخدمة في كتابة اللوحات المكتشفة فتميل معظم الآراء إلى القول إنها اللغة السومرية ، ويمكن القول بناءً على ذلك أن السومريين هم مبتكروا الكتابة .

لم تكن الوركاء المكان الوحيد الذي حاول فيه الانسان خلال هذا العصر إيجاد نظام للكتابة . فقد كشفت حفريات حديثة في مواقع تل براك وحبوبة كبيرة الجنوبية وجبل عرودة في سورية عن ألواح كتابية تصويرية معاصرة للألواح المكتشفة في الوركاء .

تم في عصر الوركاء إنجاز حضاري هام آخر هو اختراع الختم الاسطواني Cylinder Seal ، الذي يرتبط ظهوره بتطور التجارة وظهور الملكية الخاصة (**الشكـل 1**) . فكانت وظيفته اقتصادية حيث كان يستخدم لختم سدادات الأوعية المختلفة وبذلك توثق الملكية والمحتوى . وهو عبارة عن قطعة اسطوانية الشكل صغيرة الحجم (بين 5–7 سم) من الحجر أو العظم أو الخشب مثقوبة على امتداد محورها لتعليقها ، نقشت على سطحها الخارجي أشكال معكوسة مستمدة من مشاهد الحياة أو من تصورات دينية أو أسطورية أو مشاهد حربية . وكان الختم الاسطواني عند دحرجته على الألواح الطينية الطرية يترك طبعة هي بمثابة توثيق للشيء المدحرج فوقه .

صُنعت أختام الوركاء من مواد طرية كالكلس والعظم والخشب وكانت كبيرة الحجم نسبياً (نحو 6 سم) .



(الشكل 1) نماذج اختام اسطوانية مع طبعاتها من اواخر العصر الاكادي

عُرفت الأختام الاسطوانية في هذا العصر في سورية أيضاً في حبوبة كبيرة الجنوبية وفي جبل عرودة .

ظهر الختم الاسطواني وانتشر استخدامه في منطقة المشرق العربي القديم فقط وتطورت صناعته مع الزمن سواء من حيث المادة المصنوع منها أو من حيث الرسوم والكتابات التي يحملها ، ونشأ بالتالي فرع من البحث ضمن إطار الدراسات الشرقية القديمة يهتم بدراسة الأختام الاسطوانية .

بالاضافة إلى الانجازين الحضاريين الهامين أي اختراع الكتابة والختم الاسطواني حدثت تطورات عديدة أخرى في عصر الوركاء . ففي مجال العمارة شيدت معابد ضخمة اكتشفت أفضل نماذجها في مدينة أوروك نفسها ، وأحيطت المدن بأسوار للدفاع عنها ، وأصبحت المعابد مراكز للنشاط الديني والاقتصادي ووقف على رأسها الكاهن الأكبر الذي كان بيده السلطتين الدينية والمدنية .

أما في المجال الاقتصادي فقد شاع استخدام المحراث في الزراعة وهذا أدى إلى زيادة في المحصول وبالتالي إلى نمو العلاقات التجارية مع المناطق المجاورة . وعرف الانسان في هذا

العصر البرونز ، وذلك بخلط النحاس مع القصدير ، واستخدمه في صنع الأسلحة وأدوات الزينة أولاً ثم استخدمه في صنع الأدوات المختلفة وحل محل الحجر ، لذلك سميت العصور اللاحقة بالعصور البرونزية .

6- حضارة جمدة نصر : (3100-2900 ق.م)

تمثل هذه الحضارة عصراً انتقالياً من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية إذ تطورت خلاله الابتكارات الكبرى التي تمت في عصر الوركاء ، فالكتابة التصويرية أصبحت نصف تصويرية وأصبح لبعض الصور والرموز قيمة صوتية . ولكن على الرغم من ذلك فإن الوثائق المكتوبة ظلت قليلة وعبارة عن سجلات لواردات وصادرات المعابد . لذلك فإن دراسة هذا العصر بقيت قائمة على الآثار المادية . وقد سميت حضارة جمدة نصر بهذا الاسم نسبة إلى موقع جمدة نصر الواقع على بعد نحو 40 كم شمال شرق بابل حيث عُثر عناك على أولى آثار هذه الحضارة . وساد خلال عصر جمدة نصر استخدام الأختام الاسطوانية بدلاً عن المسطحة وتطورت صناعتها .

سادت حضارة جمدة نصر في جنوب بلاد الرافدين وكانت أهم مراكزها مدن شوروباك (فارا حالياً) وإشنونا (تل أسمر) وكيش (تل الأحيمر) .



الفصل الرابع

عصر السلالات الباكرة

يشمل هذا العصر الفترة الممتدة من نهاية حضارة جمدة نصر نحو 2900 ق . م حتى قيام الامبراطورية الأكادية نحو 2350 ق . م . وسمي بهذا الاسم لأن كل مدينة كانت تحكم من قبل سلالة حاكمة . وتذكر «قائمة الملوك السومرية» هذه السلالات ومدة حكم كل منها . وهناك من يسمي هذا العصر «عصر دول المدن» لأن سومر كانت تتألف خلاله من العديد من دول المدن المستقلة التي تتصارع فيما بينها على السيادة والنفوذ في المنطقة . وتوجد تسمية ثالثة لهذا العصر هي «العصر ما قبل الصارجوني» présargonique التي كان أول من استخدمها الفرنسي أندريه پارو مؤكداً بذلك على أهمية قيام الامبراطورية الأكادية في التاريخ الرافدي .

أدت الحفريات الأثرية التي قامت بها بعثة معهد الدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو في منطقة وادي ديالى (الخفاجية ـ تل أسمر ـ تل أجرب ـ) في العراق في الفترة ما بين 1929–1937 إلى اكتشافات أثرية هامة ضمت بقايا أبنية ومنحوتات وفخار وأختام وأشياء أخرى . وبناءً على هذه الاكتشافات قام هنري فرانكفورت H.Frankfort مدير البعثة بتقسيم عصر السلالات الباكرة إلى ثلاث فترات رئيسة هي :

1 ـ عصر السلالات الباكرة الأول : 2900–2750 ق . م وأهم آثاره المكتشفة في منطقة ديالى معبد سين VII ، VI (إله القمر) في الخفاجية والمعبد العتيق في تل أسمر . من مميزات هذه الفترة اللبن ذو الشكل الدائري والأدوات الفخارية ذات اللون الأحمر .

2 ـ عصر السلالات الباكرة الثاني : 2750–2650 ق . م ويتميز بتقدم كبير في مختلف المجالات وبظهور العديد من الوثائق المكتوبة . فيظهر على سبيل المثال اسم ميباراجيزي ملك كيش (نحو 2650 ق . م) على إناء حجري . من مكتشفات هذه الفترة معبد الإله سين VIII وIX والمعبد البيضوي في الخفاجية والمعبد المربع في تل أسمر ومعبد الإله شارا في تل أجرب .

كانت المميزات البارزة في فن البناء تطور المعبد البيضوي ، وفي فن النحت عُرِض الصراع بين الإنسان والحيوان ، وحُفرت على الأختام صور أولى الزقورات . وظهرت الأدوات المصنوعة من المعادن .

3 ـ عصر السلالات الباكرة الثالث : 2650–2360 ق . م ويقسم إلى قسمين عصر السلالات الباكرة الثالث أ ويمتد من 2650 إلى 2550 ق . م ، وعصر السلالات الباكرة الثالث ب ويمتد ما بين 2550–2350 ق . م .

لم تحدث خلال هذا العصر تجديدات ملفتة للانتباه ، ولكن يلاحظ تطور واضح للغنى المادي يظهر جلياً في مكتشفات قبور أور الملكية .

تطورت في هذه الفترة علاقات جنوب بلاد الرافدين التجارية مع البلدان الأخرى ولعبت أور الدور الرئيس في ذلك . من مميزات هذا العصر الفنية الأعمال المعدنية الرائعة وغياب الفخار الأحمر .

تظهر القبور المكتشفة والعائدة إلى هذا العصر غنى بالأشياء الموضوعة مع المتوَفى والتي اكتشفت في أور وكيش وماري . وكان معظمها مصنوعاً من النحاس .

وهناك تقسيم ثانٍ لعصر السلالات الباكرة مبني على التغييرات في الفن قال به العلماء الألمان من أمثال مورتغات Moortgat وشترومنغر Strommenger ويقوم على تقسيم ذلك العصر إلى خمسة أقسام هي :

1 ـ عصر ما قبل السلالات : ويشمل عصر جمدة نصر المتأخر وعصر السلالات الباكرة الأول .

2 ـ عصر ميساليم Mesalim : ويطابق تقريباً النصف الأول من عصر السلالات الباكرة الثاني ويمتاز بطرازه الفني المجرد . وسماه مورتغات عصر ميساليم استناداً إلى صولجان منحوت من الحجر الكلسي الأبيض نقش عليه اسم ميساليم ملك مدينة كيش .

3 ـ عصر فارا Fara : ويشمل أواخر عصر السلالات الباكرة الثاني وبداية عصر السلالات الباكرة الثالث أ ويتميز بتطور أسلوب طبيعي كما يظهر من كتابات فارا ، وبدرجة محددة من تطور الكتابة .

4 ـ عصر ميسكالام دوج Meskalamdug : سُمي باسم الحاكم الذي كُشِفَ قبره في أور الذي يعود تاريخه إلى العصر المتأخر للمقبرة الملكية التي تعود إلى عصر السلالات الباكرة الثالث أ .

5 ـ عصر سلالة أور الأولى : ويطابق عصر السلالات الباكرة الثالث ب .

إن تقسيم عصر السلالات الباكرة إلى فترات مختلفة لا يستند إلى أحداث بارزة في التاريخ الرافدي وإنما هو تقسيم اصطلاحي الهدف منه تسهيل البحث والدراسة في تاريخ بلاد الرافدين خلال النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد . تبدأ مع عصر السلالات الباكرة العصور التاريخية في بلاد الرافدين حيث تأخذ الوثائق المكتوبة بالتكلم عن أحداث ووقائع مختلفة حدثت في جنوب تلك المنطقة . ولكن هذا لا يعني أن المؤرخ سيتخلى عن الآثار المادية في دراسته لتاريخ تلك الفترة . فالوثائق المكتوبة على أهميتها (معظمها وثائق إدارية وحقوقية واقتصادية) قليلة ولا تعطي صورة واضحة عن الأحداث التي تمت في ذلك العصر ، وبعضها كـ «قائمة الملوك السومرية» التي تعود النسخ المكتشفة منها إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، يحمل طابعاً أسطورياً ، فهي تقسم ملوك مدن الجنوب الرافدي إلى قسمين : ملوك حكموا قبل «الطوفان» ، وملوك حكموا بعد «الطوفان» ، وتعطي غالباً أرقاماً خيالية لسنوات حكمهم . علماً أن الطوفان لا يعني هنا إلا فيضاناً كاسحاً ومدمراً لنهري دجلة والفرات في فصل الربيع . وهو ما كانت تعاني منه المدن الواقعة على ضفاف هذين النهرين حتى عهد قريب .

يتميز عصر السلالات الباكرة بسيادة السومريين سياسياً وحضارياً في أقصى الجنوب الرافدي الذي أصبح يسمى منذ الآن كي ـ إن ـ جي ki-en-gi (بالسومرية) وفيها بعد سومر (بالأكادية) ، وكان مقسماً إلى العديد من دويلات المدن التي كانت تتصارع فيما بينها للسيطرة على المنطقة وأشهرها كيش ، أور ، أوروك ، لاجاش .

إن المعلومات المتوافرة عن هذه المدن قليلة لذلك لا يمكننا رسم صورة واضحة للعلاقات التي كانت قائمة بينها ، أو لتاريخ سومر ككل في هذا العصر .

كانت كيش Kish المدينة الأولى التي توصلت إلى مد نفوذها وسيادتها على كل بلاد سومر ، وتقع خرائبها اليوم على بعد نحو 88 كم جنوب شرق بغداد و20 كم شرق بابل . ويبدو أن كيش حققت تلك السيادة والنفوذ على عهد ملكها المدعو إتانا Etana الذي حكم على ما يبدو في بداية الألف الثالث قبل الميلاد . وتذكره «قائمة الملوك السومرية» أنه الملك الثاني عشر بعد «الطوفان» من ملوك كيش «الراعي الذي صعد إلى السماء ، الذي وطد الاستقرار في كل البلاد الأجنبية» [4] .

إن ذكر «البلاد الأجنبية» هنا يشير ربما إلى سيطرة إتانا على بعض البلدان المجاورة لبلاد الرافدين . وقد وضعت حول هذا الحاكم في العصور اللاحقة أسطورة تصف صعوده إلى السماء على ظهر نسر في سبيل الحصول على «نبتة الولادة» لكي يضمن وريثاً له على عرش كيش [5] . ويكمن في هذا بحث الانسان منذ الأزل عن الخلود متمثلاً هنا بالرغبة في الحصول على نسل .

من ملوك كيش الآخرين في هذا العصر ميباراجيزي Mebaragesi (نحو 2675 ق . م) . غير أن المعلومات المتوافرة عنه قليلة وتذكره «قائمة الملوك السومرية» أنه الملك الثاني والعشرون من ملوك سلالة كيش الأولى «الذي سلب أسلحة بلاد عيلام» [6] .

غير أن أعظم ملوك كيش الذي تمتع بشهرة كبيرة في عصر السلالات الباكرة هو ميساليم Mesalin (نحو 2600 ق . م) الذي سيطر على مناطق واسعة من بلاد الرافدين وأطلق على نفسه لقب «ملك كيش» (شاركيش) ، وهو لقب استخدمه ملوك العصور اللاحقة على الرغم من أنهم لم يحكموا في كيش . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على القوة والمكانة الكبيرتين اللتين أحرزتها هذه المدينة في عهد ملكها ميساليم . وتذكر ألواح إبلا المكتشفة في سورية ميساليم . وهذا يدل على شهرة ومكانة كبيرة كان يتمتع بها حتى خارج بلاد الرافدين . أما في بلاد الرافدين فقد عُثر على بعض الكتابات التي تذكر اسمه وتتحدث عن أعماله ، منها تلك المنقوشة على مقبض صولجان منحوت من الحجر الكلسي والتي تقول : «ميساليم ، ملك كيش ، باني معبد (الاله) نينجرسو ، يقدم هذا (الصولجان) إلى نينجرسو . (عندما كان) لوجال شاجين جور إنزي (حاكم) لاجاش» [7] .

ويرد ذكر ميساليم أيضاً على نصب الصقور لـ إياناتوم وفي كتابة على مخروط طيني لـ إنتيمينا كحكم في الصراع الذي نشب بين مديني لاجاش وأومّا المتجاورتين [8] .

4 ـ Römer, W. H.Ph., in: TUAT, Band I, Lieferung 4, Historisch-chronologische Texte I, Gutersloh 1984, S.331.

5 ـ انظر احدث دراسة عن هذه الأسطورة : Kinnier Wilson, J.V., The Legend of Etana, anew edition, Warminster 1985.

6 ـ انظر الهامش رقم 3 .

7 ـ Schmökel, H., Geschichte des Alten Vorderasien, Leiden 1957, S.17.

8 ـ Römer, op. cit., S. 298, 309.

كان ميساليم "سامياً" أي أنه ينحدر من العناصر التي هاجرت منذ وقت مبكر من شبه الجزيرة العربية وبادية الشام إلى بلاد الرافدين واستقرت هناك واتخذت من مدينة كيش قاعدة رئيسة لها .

أوروك : Uruk (بالسومرية Unug)

بعد إتانا حكم كيش عدد من الملوك ويبد أنها ضعفت في عهدهم ووجدت منافساً لها على السيادة في بلاد سومر ، مدينة أوروك الواقعة على بعد نحو 160 كم إلى الجنوب الشرقي منها . يعد ميسكياجاشير Meskiaggasher مؤسس سلالة أوروك الأولى ، ويظهر أنه كان ملكاً قوياً . وقد اعتلى بعده عرش أوروك ملوك آخرون تركوا في نفوس رعاياهم انطباعاً عميقاً فأُلهوا بعد وفاتهم مثل دوموزي Dumuzi حبيب الإلهة إنانا (عشتار) وزوجها ، الذي أصبح إلهاً للخصب في بلاد الرافدين . وتركت عبادته أثراً كبيراً في ديانات الشرق الأدنى القديم الأخرى ، وعرفه البابليون والاشوريون والعرب والآراميون والعبريون باسم تموز وسمي شهر من أشهر السنة باسمه [9] .

من ملوك أوروك المشهورين جلجاميش Gilgamesh الذي حكم على ما يبدو نحو 2700 ق . م ونُسجت الأساطير حوله وتحول مع الزمن إلى نصف إله وبطل شعبي ليس في بلاد الرافدين وحدها بل في معظم مناطق الشرق القديم ، ودُونت أسطورته ، عدا عن السومرية ، بالأكادية والحثية وغيرها من لغات الشرق القديم الأخرى . ويُعتقد أنه كان لها تأثير على أسطورة البطل الاغريقي هرقل .

الفكرة الأساسية التي تكمن وراء الأسطورة هي بحث الإنسان عن الخلود الذي كان صفة خاصة بالآلهة حسب الميثولوجيا السومرية نفسها . وعلى الرغم من فشل جلجاميش في الوصول إلى الحياة الدائمة في زمنه فإن أمنيته تحققت وأصبح خالداً على مر الزمن ، فأسطورته غدت عالمية ومترجمة إلى معظم لغات العالم الحية .

لا توجد وثائق مكتوبة معاصرة تلقي أضواءاً على حياة جلجاميش وأحداث عهده ولكن المصادر البابلية اللاحقة تذكر أنه أحاط مدينة أوروك بسور للدفاع عنها . وتصفه الأسطورة طاغية يرغم شعبه على القيام بذلك . وقد بينت الحفريات الأثرية التي جرت في أوروك أن المدينة كانت تمتد على مساحة قدرها نحو 2,2x3 كم وكانت محاطة بسور مبني من الطوب ومجهز بأبراج دفاعية ويبلغ طوله نحو 9كم . وهو أقدم سور مدينة معروف في بلاد الرافدين حتى الآن .

تذكر قائمة الآلهة المكتشفة في شورورباك (نحو 2600 ق . م) جلجاميش وأباه لوجال بندا Lugalbanda أبطالاً مؤلهين . ويعد هذا أقدم ذكر لجلجاميش في نص مكتوب .

توالى على عرش أوروك اثنا عشر ملك بعد جلجاميش ، ولكن يبدو أن أوروك أصابها الضعف على عهدهم ، وهذا أتاح الفرصة لبروز مدينة أور وتسنمها مركز الصدارة في سومر .

9 ـ انظر حول تموز كإله : Edzard, D. O., in: Wörterbuch der Mythologie, Band I., Stuttgart 1965, S. 51 f.

أور :Ur (حالياً تل المقيَّر)

تقدم مقبرة أور الملكية (نحو 2500 ق . م) التي كشف عنها ليونارد وولي خلال حفرياته في أور بين 1922–1934 معلومات هامة عن ديانة سومر وحضارتها خلال عصر السلالات الباكرة . فقد عُثر على نحو ستين قبراً مبنية من الحجر واللبن والخشب ، وأشهرها قبر الملك ميسكالام دوج وقبر الملكة بوآبي . وتظهر القبور غنى كبيراً بالحلي والأدوات المختلفة من الذهب والفضة والأسلحة والآلات الموسيقية التي تدل على تقدم فني وحضاري كبير . وتبين مقبرة أور الملكية أن عادة دفن الأتباع مع الملك المتوفى أو مع أحد أعضاء الأسرة المالكة كانت سائدة في سومر في هذه الفترة . فقد وجد في أحد القبور ثمانون من الأتباع مدفونين مع سيدهم ، ويمسك كل واحد منهم كأساً ، كان فيه على ما يبدو شراب مخدر لتسهيل عملية مرافقة المتوفى إلى القبر . ووجدت على مدخل قبر الملكة بو آبي خمس عشرة جثة ، وفي غرفة ملحقة بالقبر تسع وخمسون جثة .

كانت أور نحو 2500 ق . م عاصمة سومر وامتدت علاقاتها التجارية حتى ديلمون Dilmun (البحرين) وماجان Magan (عُمان) وميلوخّا Meluchcha (منطقة في وادي السند) . وقد استفادت في ذلك من موقعها المناسب على المجرى السفلي لنهر الفرات . تذكر قائمة الملوك السومرية أن أول ملوك أور هو ميزانيپادا Mesanipada (نحو 2475ق . م) ، وأن إنليل Enlil سيد مجمع الآلهة السومرية وهبه حكم مدينة أور [10] . يكمن في هذا المبرر الشرعي لاستلامه الحكم .

10 – Römer, op. cit., S. 332.

كان ميزانيپادا ، كما تظهر كتاباته ، «ملك كيش» . ويبدو أنه أراد بذلك الادعاء بالسيادة على بلاد بابل . وخلفه ابنه أنِّيپادا Aannepada الذي بنى معبداً للإلهة الأم نينخورساج Ninchursag في موقع تل العبيد الواقع على بعد نحو 6 كم شمال غرب أور . وخلف هذا ابن آخر لـ ميزانيپادا الذي تبعه ملكان يحملان اسمين أكاديين (إلولو Elulu وبالولو Balulu) . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على التأثير الأكادي المتزايد .

كانت أور مركزاً لعبادة نانا Nanna إله القمر السومري الذي كان في الوقت نفسه إلهها الرئيس . وقد بني له ولقرينته نينجال Ningal (السيدة الكبيرة) معبد فيها كان بمثابة مركز لها ، ويدعى إي أنّا Eanna أي «بيت السماء» .

لاجاش وأومّا : Lagash, Umma

كانت لاجاش (حالياً الهباء أو الهبة) في البداية خاضعة لمدينة أور ثم أخذت قوتها بالصعود في عهد حاكمها أورنانشي Urnanshe (نحو 2520 ق . م) الذي استقل عن سيطرة أور وأطلق على نفسه لقب "ملك" . يتحدث أورنانشي في كتابة منقوشة على حجر اكتشفت في لاجاش خلال حفريات تمت هناك ما بين 1975–1976 ، ومحفوظة حالياً في المتحف العراقي في بغداد ، عن قيامه ببناء معابد وحفر أقنية وصنع تماثيل للآلهة ، وعن معارك خاضها ضد ملوك أور وأومّا .

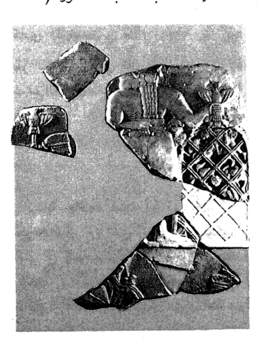
يقول أورنانشي : "أورنانشي ملك لاجاش بن جونيدو Gunidu ، مواطن من جورسار Gursar (مكان في منطقة لاجاش) ، بنى بَجارا Bagara (معبد نينجرسو إله الخصب والحرب في لاجاش) من الآجر وحفر قناة بَجارا . بنى معبد (الإلهة) نانشي ، بنى معبد جيرسو Girsu (موقع بالقرب من لاجاش وتابع لها اسمه الحالي تللو) ، بنى معبد جاتومدو Gatumdu (إلهة قديمة جداً من لاجاش وكانت أصلاً الإلهة الرئيسة للمدينة) . . . . بنى سور لاجاش . . . أورنانشي ملك لاجاش خرج للمعركة ضد ملك أور وملك أومّا . ملك لاجاش انتصر على ملك أور . . . . وانتصر على ملك أوما[11] » .

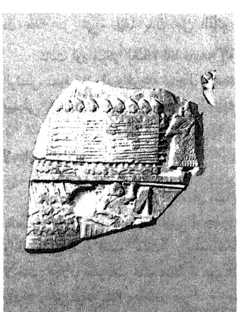
11 ـ Römer, op. cit., S. 290 f.

بلغت لاجاش أوج قوتها في عهد إياناتوم Eanatum (نحو 2470ق . م) حفيد أورنانشي الذي أطلق على نفسه لقب «ملك كيش» وسيطر على أور وأوروك وكيش وأومّا ، وبذلك أخضع كل بلاد سومر لسيادته . وانتصر على عيلام في جنوب غرب إيران ، وربما وصل حتى ماري على الفرات الأوسط .

إن أهم ما خلّفه إياناتوم ما يسمى بـ «نصب الصقور»[12] الذي عثر على كسراته الفرنسي دو سارزيك خلال حفرياته في تللو في نهاية القرن الماضي ، ويوجد النصب حالياً في متحف اللوفر في باريس . وقد نُحت من الحجر الرملي وتبلغ أبعاده 11x130x188 سم وهو مدور من الأعلى ومشوه في بعض أجزائه . ونقشت عليه بالكلمة والصورة أخبار النصر الذي حققه إياناتوم على مدينة أوما المجاورة . تظهر على الوجه الأمامي للنصب صورة الإله نينجرسو كمنتصر يمسك بيده اليسرى الأعداء كالأسماك في شبكة . ويعرض الوجه الخلفي مشاهد حربية يظهر فيها إياناتوم يقود جنوده إلى النصر . فنراه في الفريز الأعلى على رأس مجموعة من المحاربين المسلحين بالحراب يسيرون فوق جثث القتلى من الأعداء التي تنهشها الصقور ، ومن هنا تسمية النصب نصب الصقور (**الشكـــل 2**)

12 ـ انظر حول النصب : Moortgat, A., Die Kunst des Alten Mesopotamien, Sumer und Akkad, S.82, 96. وحول الكتابة المنقوشة عليه : Römer, op. cit., S.297 f.





(**الشكـــل 12**) الوجه الامامي من نصب الصقور

(**الشكـــل 2 ب**) مقطع من الوجه الخلفي من نصب الصقور

يتحدث إياناتوم في النص المنقوش على النصب بالكتابة المسمارية وباللغة السومرية عن العلاقات بين لاجاش وأوما ، وعن ميلاده وتربيته من قبل عدد من الآلهة . ويذكر أن حاكم أوما احتل منطقة جوإدينا Guedena التي تعد من ممتلكات الإله نينجرسو . فيهب هو لمقاومته ويهزمه شر هزيمة . بعد ذلك أقسم حاكم أوما بسبعة آلهة بعدم الاعتداء على منطقة جوإدينا ، وفي حال حنثه بقسمه فإن الآلهة ستعاقبه وتعاقب أوما بشدة . يمثل النص معاهدة أملى إياناتوم شروطها على أوما المدينة المهزومة ، وتعد هذه أول معاهدة معروفة حتى الآن في التاريخ . وكما يظهر من النص فإن الأسباب التي أدت إلى الحرب بين المدينتين كانت خلافات على الحدود . ويذكر إياناتوم عند قيامه بالحرب ضد أوما أنه ينفذ إرادة الإله نينجرسو . ويكفي هذا ليكون مبرراً شرعياً لكل ما يقوم به .

خلف إياناتوم ابنه إنتيمينا Entemena (نحو 2430 ق . م) الذي حارب وانتصر مرة أخرى على أمير أوما بسبب نقضه شروط المعاهدة السابقة المعقودة بين الطرفين واعتدائه على أراضي لاجاش . وقد خلد ذلك في كتابة دونت على مخروط طيني [13] .

ازدهرت لاجاش في عهد هذا الملك فتطورت الحرف والتجارة وتزايد استيراد مواد البناء والأخشاب والأحجار ، وحُفِرت الأقنية ونمت ملكية الأراضي .

أخذت قوة لاجاش بالضعف بعد إنتيمينا . ولم تنس أوما المدينة المجاورة هزيمتها ، وكانت تنتظر الفرصة المناسبة للثأر لنفسها . وقد سنحت تلك الفرصة بعد عدة أجيال عندما اعتلى عرش لاجاش المدعو أورو إنمجينا Uruenemgina (القراءة القديمة أورو كاجينا) (نحو 2351-2342ق . م) ، الذي يعد أول مصلح اجتماعي في التاريخ .

اعتلى أورو إنمجينا عرش لاجاش بعد خلعه الحاكم السابق لوجالاندا Lugalanda في سنة حكمه السابعة . ولم يكتف بلقب إنزي Ensi (أمير مدينة) بل سمى نفسه ملكاً ، ورفض الخضوع لسلطة ملك كيش الضعيف ، وربما كان يصبو إلى القضاء عليه حيث يذكر إن نينجرسو إله مدينته «حاكم» أيضاً في مدينة نيبور ، أي في المدينة التي كان لإلهها إنليل الحق وحده في تحديد ملك للبلاد . [14] ، ولتحقيق مثل هذا الهدف كان على أورو إنمجينا أن يجعل من لاجاش مدينة قوية . لكن الوضع الاجتماعي كان مضطرباً بسبب سوء أحوال الطبقات الفقيرة من جراء ظلم وتعديات الأمراء والموظفين والكهنة . فقام أورو إنمجينا باصدار مراسيم إصلاحية تحد من امتيازات العائلات والطبقات المتنفذة التي كانت مستاءة من وصوله إلى السلطة ، وترفع الظلم والاستغلال عن كاهل الطبقات المسحوقة .

وقد دُونت الاصلاحات على ثلاث مخاريط طينية ولوح حجري في نهاية كتابات ملكية تتحدث عن أعمال بناء أو ترميم وحفر قنوات وأعمال أخرى قام بها أورو إنمجينا .

وتعود كتابتان من هذه الكتابات إلى سنة حكمه الأولى وتعللان الاصلاح بأمر صريح واضح من نينجرسو إله المدينة : «عندما نينجرسو محارب الإله إلّيل (إنليل) وهب أورو أنمجينا الملكية على لاجاش وأمسك يده من بين ستة وثلاثين ألف إنسان (من هذه المدينة) وأعاد (أي أوروإنمجينا) التعاليم السابقة ونفّذ الأمر الذي أمره به ملكه نينجرسو» .

13 - Römer, op. cit., S. 308 f.

14 - انظر حول أورو إنمجينا : Von Soden, W., Herrscher im alten Orient, Berlin, Gottingen, Heidelberg 1954, S. 8 f.

لم يذكر أوروإنمجينا هنا كيف وصل إلى الحكم ولكنه يعلل وصوله إلى السلطة برغبة نينجرسو بالاصلاح . لذلك يمكن الاعتقاد أن الرغبة بإزالة الأوضاع الاجتماعية السيئة كانت موجودة عنده عندما ثار على سلفه .

شملت اصلاحات أوروإنمجينا مجالات عديدة فقد منعت استخدام وتسخير ممتلكات المعابد لصالح الانزي والموظفين ، وضبطت تصرفات الموظفين ومعاونيهم مع المواطنين وخاصة عند جباية الضرائب المفروضة ، وخفضت الضرائب المفروضة من قبل الكهان على عمليات دفن الموتى (80 رغيف خبز و3 جرار بيرة وفراش وجدي بدلا من 420رغيف و120مكيال حبوب و7جرار بيرة وثوب وفراش وجدي) . ونصت إصلاحات أوروإنمجينا على منع إجبار الناس البسطاء على بيع ممتلكاتهم ، كالأراضي والبيوت وغيرها ، إلى المتنفذين وكبار الموظفين ، وبدفع السعر المناسب في حال الموافقة على البيع . وحررت الاصلاحات سكان لاجاش من سلسلة من علاقات الدين وسُجلت حريتهم ، وأُلغي زواج المرأة من رجلين . ويختم أورو أنمجينا إصلاحاته بقوله :

« . . . تكلم (أورو إنمجينا) فحرر أبناء لاجاش من الجدب والسرقة والجريمة وحمى الأرامل والأيتام من الأثقال وأعاد للآلهة ممتلكاتها وأحلّ «الحرية» . حتى لا يظلم القوي اليتيم والأرملة عقد أورو أنمجينا هذا «الميثاق» مع نينجرسو» .

تبرز في إصلاحات أورو إنمجينا شخصية الحاكم الحريص على حماية الفقراء والأرامل والأيتام من شعبه . ونجد هذه الصورة عند كثير من حكام بلاد الرافدين وبخاصة في القوانين التي ظهرت في العصور اللاحقة كقانون حمورابي .

لم يدم حكم أورو أنمجينا طويلاً (نحو عشرة أعوام) إذ ما كادت إصلاحاته تعطي ثمارها حتى ظهرت شخصية قوية في مدينة أومّا المجاورة هي شخصية لوجال زاجيزي الذي استولى على السلطة هناك نحو 2350 ق . م . كان أبوه يدعى بوبو Bubu ، ومن ذلك يمكن الاستنتاج أنه ينحدر من أصل أكادي . وقد عمل كاهناً للإلهة نيسابا Nisaba من أومّا وشغل ابنه لوجال زاجزي هذا المنصب أيضاً قبل أن يغتصب الحكم .

استغل لوجال زاجيزي ضعف لاجاش الناجم عن إصلاحات أورو إنمجينا الاجتماعية ونشوء طبقة معارضة لذلك ، فقام بالهجوم على المدينة واحتلها ودمرها وأحرق معابدها بعد نهب كنوزها . وقد اعتبر ذلك أورو إنمجينا إثماً كبيراً بحق مدينة لاجاش وصفه في إحدى الكتابات بشكل مأساوي محملاً المسؤولية نيسابا إلهة مدينة أومّا حيث يقول[15] :

«حاكم أوما ، بما أنه دمر لاجاش ، ارتكب إثماً بحق نينجرسو . سوف تقطع اليد التي مدها عليه . لا يوجد إثم ارتكبه أورو إنمجينا ملك جيرسو . لتجعل الإلهة نيسابا لوجال زاجيزي أمير أوما يحمل هذا الاثم على رقبته» .

خلق لوجال زاجيزي ، بالسيطرة على مدينة لاجاش ، القاعدة الأولية لفتوحاته التالية فاستولى على أوروك مدينة البطل الأسطوري جلجاميش واتخذها عاصمة لدولته ،

15 _ Römer, op. cit., S. 313. f.

وسمى نفسه «ملك أوروك وملك بلاد سومر» . كذلك احتل مدن أداب وإريدو ونيبور عاصمة سومر الدينية .

يلاحظ المرء في الكتابة الطويلة التي خلّفها لوجال زاجيزي والتي تعد المصدر الوحيد عنه ظهور فكر سياسي جديد ، فمن خلال الأوصاف التي أطلقها على نفسه يشير إلى الآلهة الرئيسة لمدن سومر الكبرى التي يسيطر عليها ، وهو بذلك يتجاوز أفق دولة المدينة المعروف سابقاً في سومر وينتقل إلى أفق المملكة الواحدة التي تضم مدناً عديدة . فقد سمى نفسه «كاهن تنظيف أن (إله أوروك) ، إنزي إنليل القديم (نيبور) وزير سو إين الكبير (إله القمر من أور سو إين أو سين اسمه بالأكادية بينما نانا اسمه بالسومرية) والي أوتو (إله الشمس من لارسا) [16] . ويذكر أيضاً : «من البحر الأدنى (الخليج العربي) وعلى طول دجلة والفرات وحتى البحر الأعلى (البحر المتوسط) جعل إنليل كل البلاد تذهب إليه» .

16 ـ Edzard, D. O., in: Fischer Weltgeschichte 2, Frankfurt am Main, Hamburg 1965, S. 85.

يرد هنا لأول مرة ذكر حدود العالم الذي كان معروفاً من قبل السومريين في تلك الفترة . وقد استطاع الأكاديون فيما بعد السيطرة على هذا العالم . لكن ذكره في كتابة لوجال زاجيزي لا يعني السيطرة عليه من قبل هذا الملك بل الإشارة إلى معرفة الطرق التجارية من قبل السومريين مع تلك المناطق . وترد في إحدى كتابات ميسكيجالا Meskigala إنزي مدينة أداب المعاصر لـ لوجال زاجيزي أقدم إشارة إلى استيراد أخشاب البناء من «بلاد الأرز الجبلية» أي جبال الأمانوس . أيضاً المقارنة مع استخدامات مشابهة في كتابات جوديا حاكم لاجاش تؤيد التفسير المقترح لما ورد في كتابة لوجال زاجيزي [17] .

17 ـ انظر الهامش السابق .

شملت المملكة التي أنشأها لوجال زاجيزي أواسط بلاد الرافدين وجنوبها ، وربما امتد نفوذه إلى مناطق أبعد من ذلك وبقيت قائمة حتى قضى عليها شارّوكين الأكادي مؤسس أول امبراطورية في الشرق الأدنى القديم .

بقيام الامبراطورية الأكادية يبدأ عصر جديد في تاريخ بلاد الرافدين يتميز بتراجع السومريين كقوة سياسية وحلول الأكاديين محلهم .

مظاهر حضارة عصر السلالات الباكرة :

تميز عصر السلالات الباكرة بوجود عدة دويلات ـ مدن في سومر لكل منها إلهها الخاص الذي أقيم له معبد كبير فيها . وقد عُدَّت المدينة مُلْكاً للإله وينوب عنه في حكمها شخص يحمل لقباً معيناً يعكس قوة المدينة ونفوذها بين المدن الأخرى . فعرفت بلاد سومر ثلاثة ألقاب للحكام هي :

1 ـ إنزي ENZI : «أمير مدينة» ، وكان يطلق إما على حاكم مستقل أو على تابع لحاكم آخر . وينحصر نفوذ حامل لقب الانزي في منطقة أو مدينة . يظهر هذا من إحدى كتابات إياناتوم حاكم لاجاش حيث يقول أنه حاز على مرتبة الانزي في لاجاش وعلى شرف الملكية في كيش [18] .

18 ـ Römer, op. cit., S. 295.

2 ـ إن EN : «سيد أوكاهن أعلى» . وقد اقتصر استخدام هذا اللقب على حكام مدينة أوروك . ويعد لقب «إن» أعلى مرتبة من لقب إنزي . وقد استخدم هذا اللقب في إبلا

للإشارة إلى الملك . من هذا يمكن الاستنتاج أنه كانت تقوم علاقات قوية بين إبلا وأوروك .

3 ـ لوجال LUGAL : وتعني حرفياً «الرجل الكبير» ، ويقابلها في اللغة الأكادية شارّوم Sarrum ملك . وهذا اللقب أعلى من اللقبين السابقين . ويبدو أن حدوث المنازعات الحادة والدائمة بين المدن السومرية المختلفة أدى إلى تعيين أو بروز حاكم قوي أطلق عليه هذا اللقب . وظهر هذا اللقب لأول مرة مرتبطاً مع اسم شخص في مدن كيش وأور .

كان الملك قائد شعبه في السلم والحرب ومسؤولاً عن وضع القوانين . أما الملكية (بالسومرية : NAM–LUGAL–LA) فكان الاعتقاد السائد أنها منزلة من الأعلى من قبل الآلهة . فتذكر قائمة الملوك السومرية أن أول ملك تُوِّج في مدينة إريدو Eridu التي تُعدُّ حسب المصادر السومرية أقدم مدينة في بلاد الرافدين . وعندما كانت شوروباك مركز المُلك حدث "الطوفان" وبعد انحساره أُنزِلت الملكية من جديد من السماء إلى كيش وانتقلت منها فيما بعد إلى مدن أخرى .[19]

كان المعبد في البداية المركز السياسي والاقتصادي والاداري والديني لدولة ـ المدينة يدير منه الحاكم شؤون دولته المختلفة . وأقدم المعابد المكتشفة في بلاد الرافدين ، والذي يعدُّ أقدم معبد عرفته الانسانية هو معبد إريدو الذي كان مخصصاً للإله السومري إنكي Enki إله الأرض والماء العذب والحكمة والشفاء . ويرقى تاريخ بنائه إلى منتصف الألف الخامس قبل الميلاد . أخذت السلطة السياسية مع الزمن بالانفصال عن السلطة الدينية فـأصبح للحاكم مقر خاص به خارج المعبد يدعى E.GAL (الشكل الأقدم هيكل hai–kal) أي "البيت الكبير" . وانتقلت هذه الكلمة إلى الأكادية على شكل إكالوم ekallum وتعني قصراً . وأخذها سكان سورية القدماء في بداية الألف الثاني قبل الميلاد فاستخدمت في اللغات الأوجاريتية والعبرية والآرامية والعربية أحياناً بمعنى «قصر» وأحياناً أخرى بمعنى «معبد» .

19 ـ «عندما نزلت الملكية من السماء كانت الملكية في إريدو . في إريدو أصبح ألوليم ملكاً» . «بعد أن زال الطوفان (كانت) الملكية ، عندما نزلت الملكية من السماء في كيش» . انظر: Römer, op. cit., S. 330 f.

اللغة والكتابة :

ساد في عصر السلالات الباكرة استخدام اللغة السومرية (بالسومرية EME GI7 ويقابلها في الأكادية شوميرو (م) ولشان شوميري) وهي أقدم لغة مكتوبة معروفة من الشرق الأدنى القديم . وهي من اللغات اللاصقة ، أي التي لا تعرف الاشتقاق ، فعندما يريد المرء تشكيل تعبير جديد عليه أن يضيف كلمة إلى كلمة أخرى مثل : دومو DUMU : ابن ، فعندما نقول ابنة نضيف مي MI الدالة على الانثى فيصبح لدينا دومو . مي DUMU.MI . ولا يمكن تصنيف اللغة السومرية ضمن المجموعات اللغوية المعروفة بسبب صفاتها وخواصها المتميزة . وقد باءت محاولات إيجاد علاقة قربى بينها وبين لغات الهند القديمة واللغات القوقازية وغيرها بالفشل .

مرت اللغة السومرية خلال تاريخها الطويل (3200 ق . م ـ 100م) بتطورات عديدة وعرفت لهجات مختلفة . وقد كتبت بها آلاف الوثائق والنصوص . وبعد ظهور الأكاديين كقوة سياسية في بلاد الرافدين لم تعد تستخدم كلغة محكية وحلت محلها اللغة الأكادية . ولكن

السومرية عادت وازدهرت من جديد في عصر الإحياء السومري ودُونت بها آلاف النصوص الاقتصادية والادارية والكتابات الملكية والأدبية . ومع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد انحصر استخدام اللغة السومرية في المعابد لممارسة بعض الطقوس والعبادات المختلفة . وقد نشأ تأثير متبادل بين اللغتين السومرية والأكادية فدخل كثير من الكلمات الأكادية إلى السومرية مثل : تمخاروم : معركة ـ قتال التي تحولت إلى دم . خا . را DAM. HA. RA ، ماتوم : أرض ـ بلاد التي أصبحت ما . دا MA.DA . إلخ . ودخلت كلمات سومرية عديدة إلى الأكادية مثل : جو . زا GU.ZA : عرش ـ كرسي التي أصبحت في الأكادية كوسّوم Kussum ، وE.GAL التي أصبحت إيكالوم : قصر .

كُتِبت اللغة السومرية بالكتابة أو الخط المسماري Cuneiform المؤلف من عدد كبير من الاشارات والرموز والذي مر بمراحل عديدة من التطورات واستخدم لكتابة العديد من اللغات كالأكادية والابلائية والحثية والحورية والأورارتية وغيرها .

ذكرنا سابقاً أن الكتابة اخترعت في بلاد الرافدين نحو 3200 ق .م في عصر الوركاء حيث عثر في الطبقة الرابعة أ (Uruk IV a) على لوحات طينية تحمل كتابة تصويرية (**الشكل 3**) . وقد تطورت هذه الكتابة التصويرية في العصور اللاحقة إلى ما دعي الكتابة المسمارية أو الاسفينية كون شكلها الخارجي يشبه المسامير أو الأسافين . وينشأ الاسفين أو المسمار عن ضغط رأس القلم المدبب على الطين الطري . وكان القلم من القصب (بالسومرية GI–DUB–BA وبالأكادية قان طوبي qan tuppi : قصب اللوح = قصب الكتابة) . واستخدم الطين على شكل ألواح (بالسومرية DUB وبالأكادية طوبو "م") مستطيلة أو مربعة أو دائرية أو بيضوية الشكل وذات أبعاد مختلفة كمادة أساسية للكتابة ، ووجدت كتابات على الأحجار والمعادن ولكنها قليلة . ويمكن تمييز ثلاث مراحل أساسية في تطور الكتابة المسمارية هي :

1 ـ الكتابة التصويرية : فصورة الشيء تعبر عنه كالسنبلة للقمح أو الشعير والدائرة للشمس أو القمر .

2 ـ الكتابة نصف التصويرية : وفيها اختزلت الصور ورُسِم جزء منها فقط مثل رؤوس الحيوانات كالكلب والثور والحمار .

3 ـ الكتابة الرمزية أو المقطعية : وتحولت فيها الصورة إلى رمز لفكرة أو لشيء معين . ويمكن أن يعبر الرمز عن كلمة أو أن يكون جزءاً في كلمة .

– وقد عرفت الكتابة المسمارية تركيب إشارتين مستقلتين لتشكيل ثالثة مثل :

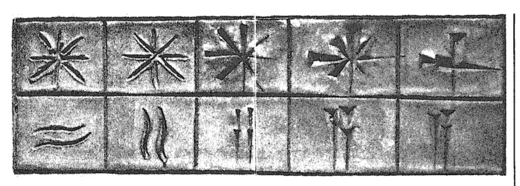
فم + خبز = يأكل Ku KA + NINDA=

امرأة + بلاد جبلية = أَمَة SAL + KUR = gemé

وقد بقي هذا التركيب معروفاً حتى في العصور المتأخرة وروعي عند تسمية الإشارات . وتتألف العناصر الأساسية للكتابة المسمارية من :

1 ـ الاسفين أو المسمار الأفقي ⟶

2 ـ الاسفين أو المسمار العمودي ▼



(الشكل 3 أ) جمع اشارتين مع بعضهما خلق معنى جديدا. الاشارة في الحقل العلوي تدل على "راس" إضافة خطوط اليها جعل المعنى "فم" في الحقل الأوسط. وجمع الاشارة مع الاشارة الدالة على "ماء" اعطى معنى "يشرب".



(الشكل 3 ب) تطور الكتابة المسمارية من صورة الى رمز. يظهر الحقل العلوي تطور الاشارة الدالة على "نجم" من صورة في اقصى اليسار الى رمز مجرد في اقصى اليمين. واستخدمت هذه الاشارة للدلالة ايضا على "سماء" و "إله" ويظهر الحقل السفلي تطور الاشارة الدالة على "ماء".

3 - الاسفين أو المسمار المائل

4 - الزاوية أو ما يشبه رأس السمكة

بناءً على ذلك يمكن تحليل كل رمز أو إشارة مسمارية إلى العناصر السابقة . يقدَّر عدد الرموز المسمارية بنحو ألفي رمز . ولكن هذا العدد تناقص مع الزمن فبلغ مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد نحو خمسمائة رمز . وقد طرأت تغييرات على شكل الرموز باختلاف الزمان والمكان ويمكن تمييز الكتابة المسمارية البابلية القديمة المعقدة عن الكتابة الآشورية الحديثة أو غيرها من الكتابات المسمارية (**الشكل 4**) .

وتتميز الكتابة المسمارية عن غيرها من الكتابات التي عرفها المشرق العربي القديم كالكنعانية والهيروغليفية أنها تكتب السواكن والمتحركات معاً وهذا يساعد على معرفة اللفظ الأقرب إلى الصحة للكلمة .

كانت الألواح تقسم إلى أعمدة ويكتب عليها ابتداءً من اليمين من الاعلى نحو الأسفل ومثال ذلك قانون حمورابي . ثم حدث نحو 2400ق.م تغيير في اتجاه اللوح الكتابي فأدير 90°

المعنى	عصر سلالة اور الثالثة 2000ق.م	عصر السلالات الباكرة 2400ق.م	عصر جمدة نصر 3000ق.م	عصر اوروك المتاخر 3100ق.م
SAG راس				
NINDA خبز				
KU ياكل				
AB بقرة				
APIN محراث				
KI مكان				
10 او 6				
1				

(الشكل 4) نماذج من الكتابة المسمارية.

نحو اليسار فأصبحت الكتابة بالتالي أفقية من اليسار إلى اليمين . ولكن احتفظت الكتابات التذكارية على الحجر بالتسلسل من فوق إلى تحت .

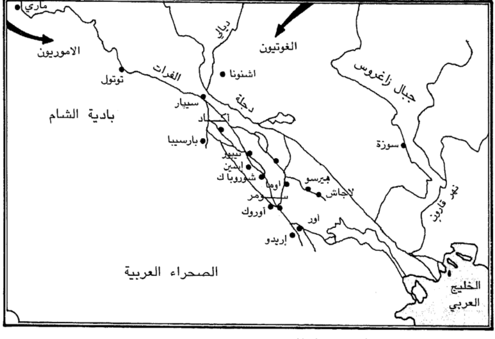
كان المرء يتعلم الكتابة في مدارس ملحقة بالمعابد تدعى بالسومرية E.DUB أي «بيت الألواح» . ويدعى الكاتب بالسومرية دوب سار DUB. SAR وبالأكادية طوبشارو (م) .

وقد تبوأ الكتاب مكانة هامة خلال فترات تاريخ بلاد الرافدين المختلفة .

الـــديـــن :

بالنسبة للدين في عصر السلالات الباكرة فقد كان لكل مدينة إلهها الخاص مثل نينجرسو إله لاجاش وزبابا إله كيش وغيره . وكانت الآلهة المختلفة مرتبة حسب أهميتها وقوتها ويوجد منها عدة أجيال . واحتلت المركز الأول الآلهة الكونية الكبرى أن An (بالأكادية أنوم Anum) وإنليل Enlil وإنكي Enki . ويعد أن إله السماء الإله الكبير وحامي النظام الكوني تتسلم الآلهة منه قوانينها ، ورمزه التاج ذا القرون وحيوانه المقدس الثور . وقد أقيم له معبد في أوروك . ولكن يبدو أن عبادته لم تكن هامة . أما إنليل (الاسم يعني : سيد ، هواء - جو ، وليس كما كان يعتقد سابقاً سيد الجو) فهو إله سومر الرئيسي ومالك ألواح القضاء ، خالق ومدمر في آن واحد . وهو ابن أن وأب لعدد من الآلهة الأخرى مثل إشكور إله الطقس ونانا إله القمر وأوتو إله الشمس . وكان معبده (E.KUR = البيت الجبل) في نيبور مركز سومر الديني حيث كانت تأتي إليه سنوياً المواكب من كل المدن السومرية .

أما إنكي (بالأكادية إيا Ea) فهو إله الأرض والماء العذب والحكمة والشفاء ومركز عبادته إريدو .



سومر واكاد في الالف الثالث قبل الميلاد

بالاضافة إلى هذه الآلهة الكبرى كانت هناك آلهة أخرى عديدة في سومر خلال هذا العصر .

كان للسومريين إنجازات حضارية هامة في ميادين الاقتصاد والتنظيم الاجتماعي والفن والهندسة فاهتموا بالزراعة وتقسيم الأراضي وحفر الأقنية وعرفوا النظام الستيني ، وقسموا السنة إلى أشهر والأشهر إلى أيام ، ووضعوا أنظمة دقيقة للقياس والكيل والوزن ، وبنوا قصوراً ومعابد ، وكتبوا آداباً رفيعة المستوى أشهرها ملحمة جلجاميش ، وأنجزوا أعمالاً فنية رائعة .



الفصل الخامس

الامبراطورية الأكادية

يرقى وجود العناصر السامية في بلاد الرافدين إلى عصور ما قبل التاريخ . ويُعتقد أن طلائعهم بدأت بالدخول إلى المنطقة قادمة من شبه الجزيرة العربية وبادية الشام منذ نهاية الألف الخامس قبل الميلاد حيث استقرت هناك وامتزجت مع جماعات بشرية أخرى تسكن المنطقة وساهمت في خلق وتطوير الحضارة الرافدية . ولكن لا يمكن تتبع تاريخ هذه الجماعات السامية في تلك الفترة بسبب عدم وجود الوثائق المكتوبة . وبتعلم الانسان الكتابة ودخوله مرحلة العصور التاريخية يتغير الوضع وتتوفر لدينا أولى الوثائق الكتابية من عصر السلالات الباكرة والتي تشير إلى وجود مجموعات سامية هي الأكادية في جنوب بلاد الرافدين . فأقدم البراهين المكتوبة الدالة على وجود الأكاديين في تلك المنطقة أسماء الأعلام الكادية المذكورة في الألواح السومرية القديمة المكتشفة في أور (نحو 2675 ق . م) ، وفي أرشيف فارا (نحو 2600 ق . م) والكلمات الأكادية القديمة الموجودة في اللغة السومرية .

عاش الأكاديون قروناً طويلة في جنوب بلاد الرافدين قبل أن يصبحوا قوة سياسية ذات شأن ويؤسسوا دولة لهم على يد شارّو (م) كين [20] Sharru (m) Kin (الملك الحقيقي) عام 2350 ق . م .

20 ـ شارّو (م) كين هو اسم الملك كما يرد في النصوص الاكادية . أما تسمية صارجون وسرجون فهي مأخوذة من التوراة وأصبحت اليوم غير مقبولة علمياً على الرغم من شيوعها .

تأسيس الامبراطورية :

كان شاروكين شخصية فذة تمتعت بامكانات كبيرة فقد تمكن خلال فترة حكمه (2350-2284 ق . م) أن يبني امبراطورية واسعة قوية . ولهذا السبب حيكت حوله أساطير عديدة تتحدث عن صفاته ، وأشهرها تلك التي تتحدث عن ولادته ونشأته فتقول : «شاروكين الملك القوي ملك أكّاد هو أنا . كانت أمي كاهنة إله ولم أعرف أبيَ . سكن عمي في الجبال . مدينتي هي أزوپيرانو Azupiranu التي تقع على ضفة الفرات . أمي الكاهنة حملت بي وولدتني سراً ووضعتني في صندوق من القصب أغلقت بابه بالاسفلت ورمتني في النهر الذي حملني إلى أكّي Akki الساقي (الفلاح) الذي انتشلني . أكّي البستاني جعلني ولده ورباني . أكّي الساقي جعلني بستانيه . عندما كنت بستانياً أحبتني عشتار . سدت وحكمت ذوي الرؤوس السوداء . خربت جبالاً قوية بوساطة بلطات برونزية . صعدت الجبال العليا وعبرت الجبال السفلى . حاصرت بلاد البحر ثلاث مرات . فتحت يدي ديلمون . . . .» [21] .

21 ـ Gressman, H., Altorientalische Texte zum Alten Testament, Berlin–Leipzig 1927, S. 234 f.

تعكس هذه الأسطورة الرغبة في إخفاء الأصل المظلم للرجال العظام والمشهورين وإضفاء صبغة القداسة عليهم ، وهي تذكّرنا بقصة ميلاد موسى الواردة في الكتب الدينية ، وبأسطورة ريموس ورومولوس .

بدأ شاروكين حياته السياسية في كيش المدينة السامية الكبرى ، ولكن لا توجد أية معلومات عن الظروف التي أحاطت به في البداية . تذكر قائمة الملوك السومرية أنه أصبح ساقياً للملك أورز بابا Urzababa الملك الثاني من سلالة كيش الثالثة . ويبدو أنه ثار على سيده في وقت خسر فيه هذا إحدى المعارك الحربية ، وسيطر على كيش فخلق بذلك منطلقاً لفتوحاته التالية . فقام بالسيطرة على شمال بلاد بابل وبنى هناك مدينة أكّاد Akkad وجعلها عاصمة لدولته . وقد عُرِف الأكاديون ولغتهم ودولتهم نسبة إلى تلك المدينة التي لم يستطع علماء الآثار حتى الآن تحديد موقعها . وتذكر وثيقة معاصرة أنها كانت تقع بالقرب من كيش ، وحسب وثيقة متأخرة لم تكن بعيدة عن بابل . ويُعتقد أن موقعها الحالي بالقرب من اليوسفية . كانت أكّاد مركز الامبراطورية وبقيت كذلك حتى سقوطها على يد الجوتيين . وأطلق شاروكين على نفسه لقب «ملك أكاد» و«ملك كيش» .

إن قيام شاروكين ببناء دولة جديدة في جنوب بلاد الرافدين أدى إلى اصطدامه مع الملك السومري القوي لوجال زاجيزي الذي كان يحلم هو الآخر ببناء دولة قوية وكبيرة دون منازع .

الأسباب التي أدت إلى نشوب النزاع بين الطرفين غير معروفة كذلك تفاصيل المعارك التي جرت . معروف فقط أن شاروكين حقق نصراً على لوجال زاجيزي وأسره . ويعزى ذلك إلى استعمال الأكاديين أسلحة جديدة لم تكن معروفة من قبل السومريين كالقوس والنشاب والحراب ، وإلى اتباع تكتيك جديد في المعارك يعتمد على المحارب كعنصر مرن الحركة بدلاً من الاعتماد على الكتل المتراصة من الجنود .

أصبح شاروكين بعد هذا الانتصار سيد أوروك وأور ولاجاش وأوما أي باختصار سيد سومر كلها حتى شواطىء الخليج العربي .

يقول في إحدى كتاباته :

«شاروكين ملك أكاد انتصر على مدينة أوروك ودمر أسوارها . سيطر في المعركة من أجل أوروك وأسر لوجال زاجيزي ملك أوروك في المعركة وقاده في قفص إلى باب إنليل . شاروكين ملك أكاد سيطر في المعركة من أجل أور وأخضع المدينة وهدم أسوارها . وأخضع إنين مار Eninmar وهدم أسوارها ، وأخضع (المناطق) حتى البحر وغسل سلاحه في البحر ، وانتصر على أومّا وأخضعها» [22] .

بعد أن أتم شاروكين سيطرته على بلاد بابل اتجه بأنظاره نحو المناطق المجاورة وتذكر كتاباته قيامه بحملة على شمال سورية أخضع فيها إبلا ووصل حتى جبال طوروس : «شاروكين الملك خرَّ خاشعاً في توتول (هيت حالياً) أمام (الإله) داجان Dangan وصلى . الأرض العليا أعطاه إياها (أي داجان) : ماري - يرموتي - إبلا وحتى غابة الأرز وجبال

22 - Hirsch, H., Die Inschriften der Konige von Agade, in: Archiv fur Orientforschungen 20 (1963), S. 34 f.

الفضة»[23] . المقصود بغابة الأرز جبال الأمانوس ، وبجبال الفضة جبال طوروس الواقعة شمال سورية . والسبب في هذه التسمية هو غنى هذه المناطق بأشجار الأرز والفضة .

وهناك عمل أدبي دُوِّن في عصر لاحق هو «شار تمخاري» (أي ملك المعركة) يذكر قيام شاروكين بحملات عسكرية وصل فيها حتى الأناضول . ويبدو أن هذا العمل كُتب بوحي من حملات شاروكين الحقيقية إلى تلك المنطقة والتي لم تؤد إلى احتلال دائم لها .

قام شاروكين بحملات أخرى أيضاً باتجاه الجنوب الشرقي ضد عيلام ، العدو التقليدي لبلاد الرافدين ، وباتجاه الشمال الشرقي ضد القبائل اللولوبية التي كانت تسكن المناطق الجبلية هناك ، واحتل سوبارتو Subartu (آشور فيما بعد) .

وهكذا استطاع شاروكين أن يقيم امبراطورية واسعة شملت كل بلاد الرافدين وسورية ، وهي أول امبراطورية في الشرق الأدنى القديم .

كانت الامبراطورية الأكادية امبراطورية مركزية مقسمة إلى مقاطعات يديرها حكام مقربون من الملك ويسهر جيش قوي ومدرب على بقائها .

اهتم شاروكين بالاضافة للأمور العسكرية والسياسية بأمور البناء والعمران في مملكته فبنى في أكاد العاصمة قصراً لنفسه ومعبداً لـ زَبابا Zababa إله الحرب من مدينة كيش ، وآخر للإلهة عشتار إلهة الحب والحرب . وأنشأ ميناءً في أكاد لتنشيط التجارة مع المناطق البعيدة عبر الخليج العربي . يقول في إحدى كتاباته : «شاروكين هو ملك كيش ، خاض أربع وثلاثين معركة وانتصر فيها ودمر أسواراً حتى شاطىء البحر وجعل سفناً من ميلوخا وسفناً من ماجان وسفناً من ديلمون ترسو في ميناء أكاد»[24] . دام حكم شاروكين أكثر من ستين عاماً (2350–2284 ق .م) وأطلق على نفسه لقب «ملك الجهات الأربع» (شار كبراتيم أربَئيم) للدلالة على أنه سيطر على العالم المعروف في ذلك الوقت . وتلخص قائمة الملوك السومرية سيرة حياته بقولها : «أوروك ضُربت بالسلاح . مُلكيتها انتقلت إلى أكاد . في أكاد أصبح شاروكين ملكاً ـ الذي كان مربيه بستانياً ـ ساقي أورزَبابا ، ملك أكاد الذي بنى أكاد . حكم 56 عاماً»[25] .

تسنم عرش أكاد بعد شاروكين ابنه ريموش Rimush (الاسم يعني «هديته») وهو اختصار لـ ريموشو 2284–2275 ق .م) الذي قامت ضده ثورات عديدة هدفها الاستقلال والتخلص من الحكم الأكادي ، ومنها تحالف عريض ضم مدناً بابلية عديدة بقيادة حاكم مدينة أور . ولكن ريموش استطاع القضاء عليه وأحرز نصراً على عيلام التي حاولت أيضاً التمرد عليه . وإن العثور على كتابة نذرية في تل براك على الخابور الأعلى تذكر ريموش ، وتسمية مدينة شمال نينوى باسم ريموش يدل على أن شمال بلاد الرافدين وسورية بقيا في عهد ريموش جزءاً من الامبراطورية الأكادية .

سقط ريموش نحو 2275 ق .م ضحية مؤامرة أودت بحياته فخلفه أخوه الأكبر مانيشتوسو Manishtusu (2275–2260 ق .م) الذي كان عليه أيضاً ، كأخيه ريموش ، أن يجابه صعوبات

23 _ ibid., S. 38.

24 _ ibid., S. 37 f.

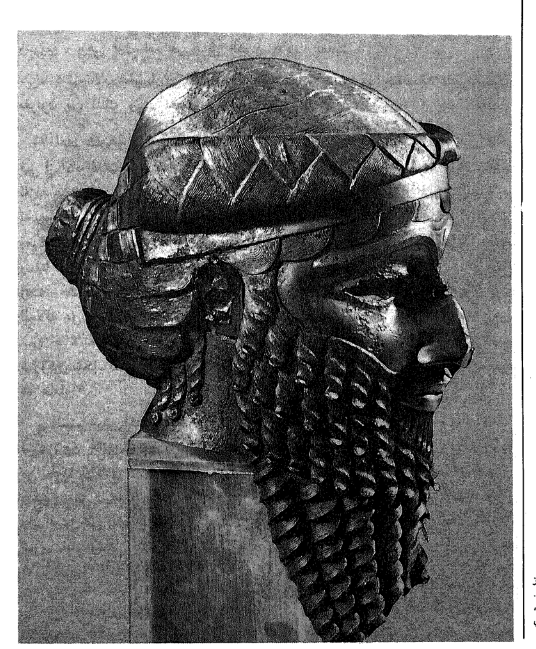
25 _ Römer, op. cit., S. 334.

وتمردات عديدة للتخلص من الحكم الأكادي . لكنه استطاع المحافظة على حدود الامبراطورية كما كانت في عهد سلفه .

ومما يلفت الانتباه ذكر نصر له على أنشان (حالياً تل مليان بالقرب من سوزة في إيران) . وقد جلب معه من حملة ضد 32 مدينة «على الجانب الآخر من البحر» ، ربما في منطقة شرق الخليج العربي ، «أحجاراً سوداء» وضع منها تماثيل له[26] .

26 ـ Hirsch, op. cit., S. 69–70.

يبين هذا النص أن هدف الحملة الرئيس كان الحصول على المواد الأولية . وتذكر كتابة من آشور كُتبت بعد مانيشتوسو بخمسمئة عام أنه مؤسس معبد عشتار في نينوى . هذا يظهر اهتمام هذا الملك بالأجزاء الشمالية من امبراطوريته .



(الشكل 5) راس من البرونز لاحد التماثيل عثر عليه في نينوى. ربما يمثل نارام سين الاكادي، ارتفاعه 36سم وموجود حاليا في المتحف العراقي في بغداد.

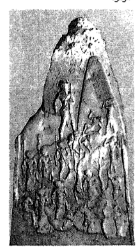
نارام سين : (الشكل 5)

اعتلى عرش أكاد بعد مانيشتوسو ابنه نارام سين Naramsin (محبوب (الاله) سين) (2260–2223 ق .م) الذي أوصل الامبراطورية الأكادية إلى ذروة قوتها ومجدها وازدهارها .

وهناك نص يرقى تاريخه إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد يتحدث عن تمردات واسعة قامت في بداية عهد نارام سين وشاركت فيها المدن البابلية كيش ومَراد وأومًا ونيبور وأوروك وسيبار وبلاد ماجان في الجنوب وعيلام ومناطق أخرى في الشرق والشمال الشرقي ونامار وأبيشال في الشمال وماري في الغرب . ولكن يبدو أن هذه المدن والبلدان ثارت ضد نارام سين في أوقات مختلفة خلال سنوات حكمه السبع والثلاثين .

بعد أن وطد نارام سين الأوضاع الداخلية انصرف إلى مجابهة الأخطار الخارجية التي تهدد امبراطوريته فقام بحملة ضد قبائل اللولوبيين الجبلية التي كانت تقطن جبال زاغروس شمال شرق بلاد الرافدين . وقد خلد نصره على تلك القبائل على نصب يعرف حالياً بـ «نصب النصر» أو «نصب نارام سين» (**الشكل 6**) ، الذي أقامه في سيبار Sippar مدينة شماش إله الشمس . وقد أخذه فيما بعد الملك العيلامي شوتروك ناخونتي ، ضمن ما أخذه من غنائم ، عندما أغار على بلاد بابل نحو عام 1170 ق .م ، وعثرت عليه بعثة فرنسية خلال تنقيباتها الأثرية في مدينة سوزة العاصمة العيلامية في مطلع هذا القرن ، ويوجد حالياً في متحف اللوفر في باريس . يبلغ طول النصب المنحوت من الحجر الرملي المائل إلى الحمرة نحو 2 م وأقصى عرض له 1م . ويظهر عليه نارام سين حاملاً أسلحته المؤلفة من القوس والنشاب والبلطة ، لابساً على رأسه خوذة ذات قرنين (وهما رمز الألوهية) ، وجسمه أكبر بكثير من أجسام جنوده الذين يتبعونه مارِّين فوق جثث الأعداء ، بينما تظلله في أعلى النصب نجوم سماوية ، ربما كانت ترمز إلى شماش إله الشمس . كان النصب يحمل أصلاً نصاً كتب بالخط المسماري وباللغة الأكادية ، لكن الملك العيلامي أمر بازالته لاستبداله بنص عيلامي يخلد انتصاراته هو ، لذلك لم يبق من النص الأكادي إلا القليل الذي يحدثنا عن نصر نارام سين الكبير على اللولوبيين .

(**الشكل 6**) نصب النصر لنارام سين عثر عليه في سوزة العاصمة العيلامية، موجود حاليا في متحف اللوفر.



قام نارام سين أيضاً بحملة على عيلام وماجان وأخضعهما لسيطرته . وربما كان الدافع للسير نحو ماجان الرغبة في الحصول على أحجار الديوريت التي كانت تُجلب من هناك إلى بلاد الرافدين وتستخدم في صناعة التماثيل المختلفة .

بعد أن وطد نارام سين حكمه في الجنوب الرافدي اتجه نحو الشمال فاحتل ماري وسوبارتو (آشور) ، ثم رنا بأنظاره نحو الغرب باتجاه سورية التي كان جده شاروكين سابقاً قد احتلها ، وعرف الأكاديون غناها وأهميتها الاقتصادية . ويفتخر نارام سين في إحدى كتاباته أنه وصل إلى سورية وحقق انتصارات هامة فيها : «منذ الأزل منذ خَلْقِ البشر لم يُخْضع أي ملك من الملوك أرمان Arman (ربما حلب) وإبلا . نيرجال Nergal (إله الطاعون والعالم السفلي عند السومريين) فتح الطريق لنار ام سين القوي وأعطاه أرمان وإبلا وأهداه جبال الأمانوس وجبال

الأرز ، والبحر الأعلى . وبسلاح داجان الذي جعل مملكته كبيرة أخضع نارام سين القوي أرمان وإبلا ، وقبل ذلك (المنطقة) من ضفة الفرات وحتى مدينة أوليشوم Ulishum (في منطقة أرمان وإبلا)» [27] .

27 - .ibid., S. 73

يُظهر لنا هذا النص أن نارام سين لم يكن صادقاً في قوله ، فقد رأينا سابقاً أن جده شاروكين احتل إبلا ووصل حتى جبال طوروس . ولكن التأكيد هنا على الانتصار على أرمان وإبلا يقود إلى الاعتقاد أن هاتين المدينتين كانتا ذات أهمية كبيرة وتتمتعان بقوة ومكانة معتبرة جعلت الملك الأكادي يبرز انتصاره عليهما في كتاباته .

وقد بينت الحفريات الأثرية التي بدأت عام 1964 في موقع تل مرديخ جنوب حلب من قبل بعثة إيطالية بقيادة پاولو ماتييه والمستمرة حتى الآن ، أن إبلا كانت خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد مملكة قوية ومزدهرة ، وأنها تعرضت لحريق كبير خلال تلك الفترة . وبناءً على هذا وعلى ما ورد في النص الوارد أعلاه يُعتقد أن نارام سين كان السبب في ذلك نتيجة مهاجمته المدينة واحتلالها . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ما هي الأسباب التي أدت إلى قيام نارام سين بمهاجمة إبلا واحتلالها؟ في الواقع لا تتحدث الوثائق المكتشفة عن هذا الموضوع ولكن يمكن القول أن تضارب مصالح أكاد وإبلا ، وبخاصة التجارية منها ، كان أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت نارام سين يسير بجيوشه نحو شمال سورية .

أوصل نارام سين الامبراطورية الأكادية إلى أقصى اتساع لها فشملت مناطق لم تكن تشملها سابقاً . ولكن على الرغم من ذلك فإن عهد نارام سين لم يبق عهد انتصارات دائماً فقد اضطر نارام سين في أواخر أيامه إلى عقد اتفاق مع ملك عيلام ، بسبب عجزه على ما يبدو من إخضاعه .

أطلق نارام سين على نفسه كجده لقب «ملك الجهات الأربع» وألَّه نفسه في حياته . وقد عُرِف ذلك من خلال وضع علامة الألوهية أمام اسمه في الكتابات التي خلَّفها ، ومن تسمية نفسه «إله أكّاد». إن تأليه الملوك لأنفسهم ليس جديداً فقبل نارام سين بنحو ثلاثمئة عام تذكر قائمة الآلهة المكتشفة في شوروباك حكاماً سابقين مثل لوجال بَندا وجلجاميش بين الآلهة .

نهاية الامبراطورية الاكادية :

اعتلى عرش أكاد بعد نارام سين ابنه شاركالي شار (ملك الملوك) . ويبدو أن هذا الاسم أُطلق عليه بعد اعتلائه العرش . واجهت الامبراطورية الأكادية على عهده (2223-2198 ق .م) أخطاراً عديدة ، فكان عليه أن يحارب على عدة جبهات للمحافظة على وحدتها واتساعها . فقد حاولت أوروك التخلص من الحكم الأكادي ، وربما حققت بعض النجاح ، وحصلت عيلام على استقلالها . وقام شاركالي شاري بصد الأموريين الذين كانوا يحاولون الدخول إلى بلاد الرافدين من بادية الشام وأحرز نصراً عليهم عند جبل بشري بالقرب من تدمر . وتصدى لخطر آخر كبير هو خطر الغوتيين الذين بدأوا يهاجمون المناطق الشرقية من بلاد الرافدين .

وكانعكاس لهذا الوضع المضطرب تخلى شاركالي شاري عن لقب «ملك الجهات الأربع» واكتفى بلقب «ملك أكاد» . عصفت الفوضى والاضطرابات بالامبراطورية الأكادية بعد موت شاركالي شاري فترة تقارب الثلاث سنوات (2198–2195 ق . م) تصارع خلالها أربعة متنافسين على السلطة . واستطاع بعدها شخص يدعى دودو Dudu أن يستولي على السلطة وأن يحكم نحو إحدى وعشرين سنة (2195–2174 ق . م) أعاد خلالها النظام إلى البلاد ولأكاد بعض قوتها . وخلفه على العرش ابنه شودورول Shudurul (2174–2159) الذي حدث في عهده الغزو الغوتي لبلاد بابل ، وكانت نتيجته سقوط الامبراطورية الأكادية .

تذكر قائمة الملوك السومرية الأحداث منذ عهد شاركالي شاري على النحو التالي : «شاركالي شاري بن نارام سين حكم خمس وعشرين سنة . من كان الملك؟ من لم يكن ملكاً؟ (أي من كان الملك الفعلي)؟ إ (ر) جيجي (كان) ملكاً ، نانوم (كان) ملكاً ، إمي (كان) ملكاً ، إلولو (كان) ملكاً . هؤلاء الأربعة (كانوا) ملوكاً . هم حكموا ثلاث سنوات . دودو حكم إحدى وعشرين سنة . شودورول بن دودو حكم خمس عشرة سنة . أحد عشر ملكاً (أي مجموع ملوك الامبراطورية الأكادية) حكموا هناك 181 سنة . أكاد ضُربت بالسلاح وانتقلت الملكية منها إلى أوروك» [28] .

28 – Römer, op., cit., S. 334–335

أسباب سقوط الامبراطورية الأكادية :

يلحظ المرء من خلال العرض السابق أن كل الحروب والفتوحات التي أدت إلى اتساع الامبراطورية الأكادية وازدهارها كانت ذات طبيعة اقتصادية ، مضافاً إليها طموح شاروكين وخلفاؤه إلى السلطة والمجد . فالدافع الأساسي كان الرغبة في الحصول على الثروات والمنتجات المختلفة . فقد كان الأكاديون يأخذون من البلدان الخاضعة لهم جزية مرتفعة . وحاولوا أن يجعلوا استيراد المواد الأولية ، وخاصة الأخشاب والمعادن والأحجار ، التي تفتقر إليها بلاد بابل ، احتكاراً حكومياً .

أما في المجال الاداري فقد وضع الأكاديون في المناطق الخاضعة لهم موظفين لمراقبة السلطات المحلية . وكان لدى هؤلاء بعض القوات الأكادية للقضاء على أي محاولة للخروج على الملك الأكادي . وفي حال حدوث تمرد حاكم أو أمير محلي كان يتم خلعه وتنصيب آخر مكانه .

كان الملك الأكادي يمارس سلطة مطلقة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية . . . . إلخ . وكان تحت أمرته جهاز كبير من الموظفين لإدارة شؤون الامبراطورية المترامية الأطراف . وعندما يفتخر شاروكين أن لديه يومياً 5400 إنسان على المائدة فهذا يعني الموظفين وأمثالهم ممن كان في خدمته وخدمة إدارته . ولكن على الرغم من العظمة والمجد والقوة التي وصلت إليها الامبراطورية الأكادية فإن الحملات والانتصارات التي حققها الملوك الأكاديون كانت تحمل في طياتها بذور الضعف والانحلال وأدت بالتالي إلى الانهيار والسقوط . فالسيطرة على مناطق واسعة وإخضاع جماعات وشعوب عديدة كان أحد العوامل الأساسية في سقوط الامبراطورية الأكادية . فعندما كان الملوك في البداية أقوياء استطاعوا

المحافظة على قوة وحدة الامبراطورية ، ولكن ما أن اعتلى العرش ملوك ضعاف حتى دبت الفوضى والاضطرابات في كل أجزاء الامبراطورية وانفصلت الأجزاء البعيدة عن العاصمة وتجرأت الشعوب الجبلية على مهاجمة قلب الامبراطورية وتدمير العاصمة تدميراً كاملاً .

ميزات العصر الأكادي الحضارية :

بظهور الأكاديين كقوة سياسية في بلاد الرافدين وتأسيس دولتهم تحققت لأول مرة في تاريخ بلاد الرافدين فكرة الدولة المركزية الواحدة بدلاً عن دويلات المدن العديدة التي كانت سائدة في عصر السلالات السومرية الباكرة .

ورافق ذلك على الصعيد الثقافي انتشار استخدام اللغة الأكادية (ليشانوم أكّاديتوم) بدلاً عن اللغة السومرية في كتابة النصوص الاقتصادية والادارية وغيرها . وانقسمت الأكادية في العصور التالية إلى العديد من اللهجات الرئيسة والفرعية نذكرها فيما يلي مع فترات ظهورها :

1 ـ الأكادية القديمة : 2500–1950 ق . م تفرعت عنها لهجتان هما البابلية والآشورية .

2 ـ اللهجة البابلية : انقسمت بدورها مع تطور الزمن إلى لهجات عدة هي :

أ ـ البابلية القديمة : 1950–1530 ق . م

ب ـ البابلية الوسطى : 1530–1000 ق . م

ج ـ البابلية الحديثة : 1000–625 ق . م

د ـ البابلية المتأخرة : 625 ق . م –75 بعد الميلاد

3 ـ اللهجة الآشورية : ولهجاتها هي :

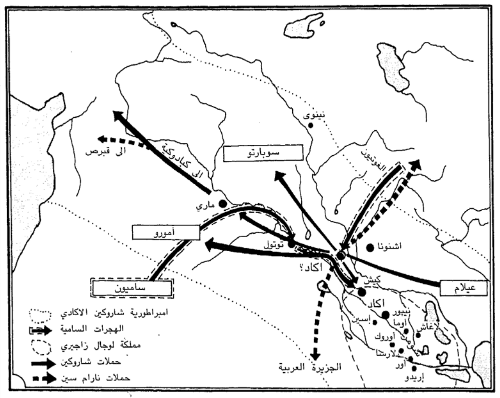
أ ـ الآشورية القديمة 1950–1750 ق . م

ب ـ الآشورية الوسطى 1500–1000 ق . م

ج ـ الآشورية الحديثة 1000–600 ق . م

ويكفي للدلالة على أهمية اللغة الأكادية وانتشارها خارج حدود بلاد الرافدين أنها كانت اللغة العالمية التي كتب بها الملوك مراسلاتهم في الألف الثاني قبل الميلاد (مراسلات تل العمارنة) . أما في بلاد الرافدين فقد بقيت اللغة السائدة حتى انتشار اللغة الآرامية في القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد كتبت بها مئات الآلاف من الوثائق والمراسلات والنصوص المختلفة وأشهرها مكتبة آشور بانيبال وأرشيف ماري . وقد أظهرت الدراسات المختلفة [29] للغة الأكادية أن معظم التراكيب اللغوية والقواعدية ومصادر الأفعال وجذورها وتصاريف الأسماء والصفات فيها تشبه ما هو موجود في لغتنا العربية الحالية . وكثير من الكلمات المستخدمة في اللغة العربية سواء الفصحى أو العامية موجود في اللغة الأكادية . بناءً على ذلك يمكننا القول أن جذور اللغة العربية موجودة في اللغة الأكادية كونها أقدم لغة «سامية» معروفة في المشرق العربي القديم . وهذا يؤكد عمق وتأصل الوحدة الحضارية للوطن العربي وسكانه منذ أقدم العصور وحتى الآن .

29 ـ أفضل الدراسات عن اللغة الأكادية وقواعدها هي : Von Soden, W., Grundriss der Akkadischen Grammatik, Roma 1969.



امبراطورية شاروكين الاكادي

على الصعيد الديني عبد الأكاديون آلهة متعددة أشهرها شَماش Shamash إله الشمس وسين Sin (أو Suen) إله القمر وعشتار أنونيتوم Ishtar anunitum «سيدة مدينة أكاد» . وقد عُرِفت هذه الآلهة عند السومريين بأسماء مختلفة : أوتو : إله الشمس ونانا إله القمر وإنانا إلهة الحب والحرب .

كذلك عبد الأكاديون الإله داجان Dagan الذي يعود بأصوله إلى سورية . وقد أصبحت منطقة الفرات الأوسط مركز عبادته الرئيس في بلاد الرافدين في العصور التالية .



الفصل السادس

العصر الغوتي 2159–2116 ق . م

أتاح ضعف الامبراطورية الأكادية المتزايد منذ عهد شاركالي شاري الفرصة حتى للمدن الرافدية أن تستعيد حريتها واستقلالها ، وانحصر نفوذ أكاد في أواخر عهدها في منطقة صغيرة تحيط بالعاصمة . وقامت في بقية المناطق ممالك صغيرة شبيهة بالممالك التي كانت قائمة في بلاد الرافدين في عصر السلالات الباكرة . وقد شجع هذا الوضع المتسم بالتفتت والانقسام والضعف القبائل الجبلية المسماة الغوتية على الهجوم على بلاد بابل وتدمير أكاد .

ويرقى أقدم ذكر مكتوب للغوتيين إلى عهد شاركالي شاري (gu–ti–um) ، وكانوا يسكنون في مناطق جبال زاغروس الجبلية (بالتحديد شمال لورستان الحالية) . وقد رأينا سابقاً أن هذه المناطق كانت مسكونة من قبل القبائل اللولوبية التي هاجمها الملوك الأكاديون شاروكين ونارام سين .

وتصف النصوص المكتشفة الغوتيين إنهم برابرة يسرقون الحيوانات ولهم سمعة سيئة وتشبّههم بالأفاعي وعقارب الجبال الذين لا يعرفون للمعابد قدسية ويحطمون تماثيل الآلهة وينهبون الكنوز ولا يرحمون امرأة أو طفلاً [30] .

30 _ Schmökel, op., cit., S. 52 f.

ويصف ابتهال سومري حالة البلاد بعد الهجوم الغوتي عليها فيقول : «البلاد في أيدي أعداء قساة ، الآلهة سيقت إلى الأسر ، وأُثقل كاهل السكان بالضرائب وجفت الأقنية وشبكات الري ، وأصبح نهر دجلة غير صالح لعبور السفن ، ولم يعد بالامكان ري الحقول ولم تعط الحقول محاصيلها» [31] .

31 _ Moortgat, A., Geschichte Vorderasiens bis zum Hellenisums, 2. Auflage 1959. تعريب توفيق سليمان وعلي أبو عساف ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ، 1967 ، ص 103 .

ويتضح من هذا أن الغوتيين خربوا ودمروا المناطق التي اكتسحوها ، وتوقفت نتيجة لذلك الأعمال الزراعية وساد البؤس والفقر في البلاد .

لم يكن الغوتيون قوة منظمة بل جماعات متوحشة جلبت بغزواتها المدمرة للبلاد الخراب والخوف والفوضى . ويبدو أن منطقة تمركزهم الرئيسة كانت بالقرب من مدينة أدَب حيث يسهل الاتصال مع مناطق سكناهم الأصلية في الجبال . وقد دام حكمهم لأواسط بلاد بابل فترة قصيرة (نحو 2159–2116 ق . م) حكم خلالها حسب قائمة الملوك السومرية واحد وعشرون ملكاً .

المعلومات المتوفرة عن الحكم الغوتي قليلة بحيث لا يمكن للمرء أن يرسم تصوراً عن توسعهم ومدة حكمهم والأحداث التي حدثت في المنطقة على عهدهم . ولكن يُعتقد أن نفوذ الغوتيين لم يكن ثابتاً ، ويتغير من وقت لآخر . ولكن من المؤكد أنهم سيطروا على شمال بلاد بابل بشكل دائم وامتد نفوذهم أحياناً نحو الجنوب كما في عهد إرِّيدو پيزير Erridupizir أول ملك منهم الذي ترك كتابة طويلة في نيپور .

كان الغوتيون متخلفين حضارياً عن المنطقة التي أخضعوها لحكمهم والتي أعملوا فيها يد التدمير والخراب ولم يبنوا فيها شيئاً . وتأثروا بالحضارة التي كانت سائدة هناك تأثراً كبيراً ، فنرى ملوكهم في النصف الثاني من عهدهم يحملون أسماءً أكادية (كوروم - بوزور سين - خبّوم . . .) ويستخدموا اللغة الأكادية والكتابة المسمارية لتدوين كتاباتهم الملكية .

وعبد الغوتيون الآلهة الأكادية عشتار وسين وسموها آلهة غوتيوم . واستخدم ملوكهم الألقاب الملكية الأكادية مثل لقب «ملك الجهات الأربع» .

يتضح من هذا كله أن الغوتيين تأثروا بالأكاديين وحضارتهم أكثر من تأثرهم بالسومريين ، ومرد ذلك سيطرتهم على المنطقة التي كانت تشكل سابقاً مركز الامبراطورية الأكادية .

أخيراً يمكن القول إن الحكم الغوتي لبلاد بابل كان مرحلة انتقالية في تاريخ هذه المنطقة .



الفصل السابع

عصر الاحياء السومري

أخضع الغوتيون شمال بلاد بابل لحكمهم أما القسم الجنوبي ، اي بلاد سومر فقد بقي خارج نطاق سيطرتهم وقامت فيه في أواخر عهدهم وقبل تأسيس مملكة أور الثالثة على يد أورنامو ، سلالات سومرية حاكمة عديدة أشهرها تلك التي حكمت في مدينة لاجاش وعُرفت باسم سلالة لاجاش الثانية .

1 ـ سلالة لاجاش الثانية :

مؤسس هذه السلالة هو الأمير أورببابا Urbaba (نحو 2164–2144 ق .م) الذي وسع المنطقة التي تسيطر عليها لاجاش لتشمل أجزاءاً كبيرة من بلاد سومر . وتتحدث كتاباته التي خلّفها عن قيامه ببناء العديد من المعابد لآلهة سومر الكبرى ، منها معبد للإله نينجرسو إله لاجاش الرئيس ومعبد للإلهة نينخور ساج Ninchursag الإلهة الأم للمدينة .

خلف أوربابا على عرش لاجاش صهره جوديا Gudea (2143–2124 ق .م) الذي يعدّ أشهر حكام هذه السلالة . وقد ترك هذا العديد من التماثيل والكتابات التي تتحدث عن أعماله المختلفة (**الشكل 7**) . ويمكن الاستنتاج من إحدى كتاباته ، التي هي عبارة عن صلاة للإلهة جاتومدو Gatumdu أنه كان ابن كاهنة لهذه الالهة : «ليس لي أم أنت أمي ، ليس لي أب أنت أبي ، أنت تلقيت نطفتي وولدتني في المعبد» .

يسمي جوديا نفسه في كتاباته «إنزي لاجاش» ensi-lagash (ki) أي «أمير لاجاش» . وتجدر الإشارة أن لاجاش كانت منذ عهد سلفه أوربابا القوة المسيطرة في جنوب بلاد بابل .

تتحدث كتابات جوديا عن جهوده للحصول على المواد الأولية اللازمة لمشاريعه العمرانية ، فتذكر حصوله على أخشاب الأرز من الأمانوس وخاخوم وأورشوم بالقرب من إبلا ، وعلى الأحجار من بَزالا جبال مارتو وكيماش ، وأيضاً من سوزة وديلمون وماجان وميلوخا ، وعلى النحاس من كيماش ، وعلى الذهب والفضة من ميلوخا .

يتضح من ذلك أن جوديا سعى إلى تحقيق الهدف نفسه الذي سعى إلى تحقيقه شاروكين وخلفاؤه ألا وهو احتكار الدولة للتجارة . ولكن اختلفت الوسائل ، فقد أرسل الملوك الأكاديون حملات عسكرية ، بينما بعث جوديا بعثات تجارية زارت المناطق التي وصلت إليها



(الشكـل 7) تمثال جوديا حاكم لاجاش في وضعية الجلوس. ارتفاعه 45سم.

الجيوش الأكادية وعقدت الصفقات التجارية المختلفة . ويبدو أن جوديا عقد اتفاقات مع الغوتيين للسماح لبعثاته التجارية بالمرور في المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء ، وبالطبع مقابل دفع أتاوة محددة .

كرس جوديا كل جهوده لتشييد الأبنية ، وبخاصة المعابد ، وحفر الأقنية وإقامة مشاريع الري . وقد مجد نفسه لتجديده معبد الإله نينجرسو في لاجاش في ترنيمة دينية مؤلفة من قسمين أمر بكتابتها على اسطوانتين من الطين المشوي .

إن عصر سلالة لاجاش الثانية ، وبخاصة عهدي أورbابا وجوديا ، لم يكن فقط عصر ازدهار اقتصادي للعاصمة ولبلاد سومر بل كان أيضاً عصراً ازدهرت فيه العلوم والفنون

والآداب كما تشهد على ذلك النصوص والكتابات والتماثيل المكتشفة . فاللغة السومرية تطورت واستخدمت لتدوين العديد من الكتابات على بعض تماثيل جوديا . وتعد تلك الكتابات مع الكتابات الموجودة على الاسطوانتين المشويتين أولى التأليفات المفصلة باللغة السومرية .

تُظهر تماثيل جوديا الكثيرة التي تمثله متعبداً في وضعية الجلوس أو الوقوف والمنحوتة في معظمها من حجر الديوريت الأسود أو غيره من الحجارة القاسية ، تقدماً فنياً كبيراً وتأثيراً أكادياً واضحاً . وكانت هذه التماثيل تودع في المعابد المنتشرة في أنحاء البلاد بغية الحصول على رضى الآلهة :

كان التأثير الأكادي واضحاً أيضاً في مجالات فنية أخرى وفي المجال الديني وفي المجال اللغوي ، فاللغة السومرية أخذت الكثير من الكلمات الأكادية واستعارت استعمالات أدبية معينة .

باختصار كانت لاجاش سومريةٍ لكنها تأثرت تأثراً كبيراً بالحضارة الأكادية .

خلف جوديا عدد من الحكام الذين ضعفت لاجاش في عهدهم ، ربما بسبب صعود أوروك تحت حكم أوتو خينجال ومن ثم قيام مملكة أور الثالثة .

2 ـ عصر سلالة أور الثالثة : 1112-3002ق .م

سمي هذا العصر بهذه التسمية استناداً إلى تعداد السلالات الحاكمة في «قائمة الملوك السومرية» . أما تسمية هذا العصر وعصر سلالة لاجاش الثانية عصر الاحياء السومري فتعود إلى ظهور السومريين من جديد على مسرح الأحداث كقوة سياسية وحضارية في بلاد الرافدين .

تزعمت المقاومة ضد الحكم الغوتي في بلاد بابل مدينة أوروك السومرية واستطاع حاكمها أُوتو خينجال Utuchengal (2116-2110 ق .م) هزيمة الغوتيين وتمكن من أسر ملكهم تيريجان Tirigan وقادة جيشه وحرر البلاد نهائياً من سيطرتهم . يقول في إحدى كتاباته : «إنليل ملك كل البلاد الأجنبية أعطى أوتو خينجال الرجل القوي ملك أونوج Unug (هكذا اسم أوروك بالسومرية) ملك جهات العالم الأربع مهمة تحطيم اسم الغوتيين» ، «أوتو خينجال الرجل القوي انتصر على الغوتيين وأسر قادتهم . قبل ذلك هرب تيريجان ملك غوتيوم وحده على الأقدام . في المكان الذي أنقذ حياته فيه في دوبروم Dubrum (ربما تل جذْر الحالي في منطقة أوما) استُقبِل بشكل جيد . ولأن سكان دوبروم علموا أن أوتو خينجال كان الملك الذي وهبه إنليل القوة فإنهم لم يطلقوا سراح تيريجان . رسول أوتو خينجال ألقى القبض على تيريجان وزوجته وأولاده في دوبروم . . . . .»[32] .

إن استخدام أوتوخينجال للقب «ملك جهات العالم الأربع» هو استمرار للتقاليد الأكادية .

32 ـ Römer, op. cit., S. 316 f.

تذكر قائمة الملوك السومرية أن أوتو خينجال حكم سبع سنوات وستة أشهر وخمسة عشر يوماً . وقد كانت هذه الفترة مقدمة لقيام مملكة أور الثالثة على يد أورنامو .

أورنامو : Urnammu (2111-2094ق .م) :

حكم مدينة أور خلال الحكم الغوتي حكام حملوا لقب «إنزي» ، وكانوا يخضعون أحياناً لمدينة لاجاش . أما على عهد أوتوخينجال فقد عُيِّن أورنامو «شاجين» Shagin (حاكم ـ حاكم عسكري) على مدينة أور . وقد استغل أورنامو منصبه هذا فقام بالتمرد على سيده وانتزع السلطة منه ، وبدأ بذلك عصر سلالة أور الثالثة . وتعبر قائمة الملوك السومرية عن انتقال الحكم من أوروك إلى أور بقولها : «ضُربت أوروك بالسلاح وانتقلت الملكية منها إلى أور . في أور أصبح أورنامو ملكاً وحكم 18 عاماً[33] » .

33 ـ ibid., S. 335.

بتأسيس سلطة سلالة أور الثالثة في أور أعاد أورنامو الوحدة من جديد إلى بلاد بابل والتي تمثلت بوجود دولة مركزية تعاقب على قيادتها أبناء أورنامو وأحفاده .

سعت سلالة أورنامو منذ البداية إلى إضفاء صبغة الشرعية على حكمها عبر تأكيد صلتها بمدينة أوروك خلال عهد حكامها المشهورين في عصر السلالات الباكرة . فسمى ملوكها أنفسهم «الابن الذي ولدته نينسون Ninsun» (نينسون هي أم جلجاميش) ، أو «أخ جلجاميش» . عُدَّ أيضاً لوجال بَندا ملك أوروك ووالد جلجاميش وزوج الإلهة نينسون ، الذي رُفع إلى مصاف الآلهة ، الأب الأسطوري لملوك أور . يكمن خلف هذا الادعاء ، بالاضافة إلى العظمة والتفاخر ، الرغبة في الابتعاد أكثر عن أوتو خينجال سيد أورنامو السابق . وربما يكون ذلك دليلاً على أن عائلة أورنامو تعود بأصولها إلى أوروك . إن خروج موظف ملكي أو أمير على سيده وانتزاعه السلطة منه ليس أمراً غير مألوف في التاريخ البابلي ، وتوجد أمثلة عديدة عنه . فقد رأينا سابقاً كيف كان شاروكين الأكادي ساقياً عند ملك كيش ثم انتزع السلطة منه ، ولدينا هنا أورنامو ، ويظهر فيما بعد إشبي إرَّا حاكم إسين الذي تمرد على سيده إبِّي سين Ibbisin ملك أور .

قام أورنامو في السنوات الأولى من حكمه ببسط سيطرته على كل الجنوب السومري وأعاد العلاقات التجارية مع ماجان عبر الخليج العربي . نستنتج ذلك من كتابة يقول فيها : «من أجل نانا (إله القمر) بن إنليل الأول ، ملكه ، جعل أورنامو الرجل القوي ، ملك أور ، ملك سومر وأكاد ، الذي بنى معبد نانا ، العلاقات الأصلية تظهر لامعة من جديد ، وأمَّن على شاطىء البحر على . . . الملاحة التجارية وأعاد سفن ماجان ثانية إلى يده (يد نانا)»[34] .

34 ـ ibid., S. 319-320.

يتضح من هذه الكتابة أن أورنامو استخدم لقباً جديداً لم يكن معروفاً سابقاً وهو لقب «ملك سومر وأكاد» الذي يحمل معنىً بشرياً وجغرافياً . فهو يدل على وجود مجموعتين سكانيتين في مملكة أورنامو هما السومريون والأكاديون ، وأن بلاد سومر وأكاد (أي بلاد بابل) خضعت لأورنامو .

لا توجد معلومات عن مدى اتساع مملكة أور الثالثة ولكن يبدو أن أورنامو تجاوز حدود بلاد بابل حيث توجد شواهد على اسمه في تل براك عند منبع الخابور في أعالي بلاد الرافدين .

خلَّف أورنامو عدة كتابات أشهرها وثيقتان تشهدان على انجازاته في مجال تنظيم المملكة التي أقامها ، وهما القانون المعروف باسمه وما يسمى السجل العقاري . وهما في الواقع نسختان عن الأصل السومري المفقود ويعود تاريخها إلى العصر البابلي القديم .

أ ـ قانون أورنامو :

وهو موجود فقط على شكل كسرات هي عبارة عن كتابات مدرسية اكتشفت في نيپور وسيپار وأور ، ومحفوظة حالياً في متحف الآثار في استانبول وفي المتحف البريطاني في لندن . ويتألف القانون من قسمين هما المقدمة والمواد القانونية البالغ عددها 32 مادة . وربما كان العدد أكبر من هذا بكثير ، وأنه كان للقانون خاتمة كبقية القوانين اللاحقة ولكنها لم تكتشف بعد .

يذكر أورنامو في بداية المقدمة أن الآلهة أن An وإنليل أعطت حكم أور إلى نانا إله القمر . واختاره هذا ليكون ممثله فيها . ثم يتحدث أورنامو عن أعماله ومحاولته تحقيق العدل في البلاد وحماية الفقراء ، وبخاصة الأرامل والأيتام ، من ظلم الأقوياء واستغلالهم . كذلك يذكر قيامه بتوحيد الأوزان والمقاييس والمكاييل . ويختتم المقدمة بقوله «أقمت العدل فعلاً في بلاد سومر» .

هذه الصورة التي يعرضها علينا أورنامو هنا نجدها في التشريعات اللاحقة ، وهي الصورة التقليدية للحاكم الذي تختاره الآلهة للحكم ، الحريص على إحقاق الحق وإقامة العدل في البلاد وحماية الضعفاء . ويمكن اعتبارها محاولة لتسويغ الوصول إلى السلطة ولإضفاء الشرعية على أعمال الحاكم .

أما مواد القانون فقد صيغت بشكل شرطي : إذا فعل إنسان كذا . . . تكون عقوبته كذا . . . ونجد هذه الصيغة أيضاً في القوانين التي ظهرت في العصور اللاحقة .

تعالج فقرات القانون قضايا اقتصادية واجتماعية مختلفة ، وتتميز عن قانون حمورابي بامكان تعويض الأضرار الجسدية كالجروح والكسور والتشوهات بغرامة مالية .

كان لقانون أورنامو تأثير في القوانين اللاحقة التي ظهرت في بلاد الرافدين كقانون ليپيت عشتار وقانون حمورابي . يلاحظ ذلك من تشابه بعض موادها مع مواد من هذا القانون [35] .

35 ـ انظر حول قانون أورنامو : فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد 1978 ، ص 25 وما يليها .

ب ـ السجل العقاري :

وهو سجل يصف فيه أورنامو مسار حدود أربع مقاطعات تقع إلى الشمال من نيپور . وكان الهدف من وضعه بيان حدود المناطق التابعة لكل وحدة إدارية . حافظ أورنامو في ذلك على الصيغ القديمة بأن إله المدينة هو سيد المنطقة الحقيقي . وربما نشأت الحاجة لوضع مثل

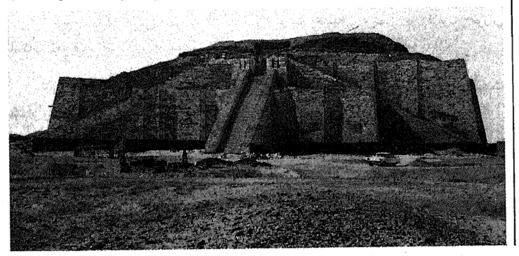
هذا السجل لإزالة حالات الحدود الغامضة التي نشأت عن الاحتلال الغوتي . وغير معروف حتى الآن ما إذا كانت هناك سجلات عقارية أخرى تخص بقية مناطق مملكة أور الثالثة .

اهتم أورنامو بالاضافة إلى الأمور الادارية والتنظيمية بحفر الأقنية وإقامة وتوسيع المنشأت المائية . فقد كانت القنوات ، بصرف النظر عن أنها ضرورية لري الحقول الزراعية ، تستخدم كوسيلة للمواصلات حيث تنقل عبرها المواد المختلفة والفرق العسكرية .

أما في مجال العمران فقد اهتم أورنامو بتشييد أبنية جديدة والمحافظة على القديمة وترميمها . ونعرف أعماله البنائية ، التي تابعها خليفته شولجي بالحماس نفسه ، من خلال العديد من الكتابات التي تذكرها . فقد أخذت زقورة نانا إله القمر في أور شكلها النهائي على عهده ، وهي الزقورة الوحيدة الباقية آثارها حتى الآن . والسبب في ذلك هو أن جدرانها الخارجية مكسوة بالطوب المشوي . وتعرف أيضاً باسم زقورة أورنامو (**الشكل 8**) .

كذلك تم بناء زقورة في أوروك وأخرى في إريدو على عهد أورنامو . إن الزقورات هي أهم ما يميز عصر أورنامو ، فالزقورة عبارة عن بناء رباعي الشكل مدرج من الطوب مؤلف من عدة طوابق تحمل في أعلاها معبداً ، لم يعثر على أي منه حتى الآن . ويعود هذا الشكل البنائي إلى نماذج مختلفة من مصاطب مرتفعة كانت تشكل ، منذ عصر العُبيد ، جزءاً هاماً للعديد من المعابد البابلية . ولكن يبدو أن الزقورة بشكلها النهائي ذات الدرج المركزي والدرجين الجانبيين هي تجديد تم في عصر سلالة أور الثالثة ، إن لم يكن يعود إلى العصر الأكادي الذي لا تُعرف هندسته حتى الآن . ولكن تجدر الإشارة أن برج بابل (زقورة بابل) من القرن السادس قبل الميلاد شيد وفق هذا النموذج المعماري .

كان الهدف من بناء الزقورة ديني ، ألا وهو كسب رضا الإله المخصصة له . استخدم أورنامو في اعماله العمرانية التي أمر بتشييدها اللبن والطوب المشوي الذي كان يحمل عدد كبير



(**الشكل 8**) زقورة اورنامو في اور.

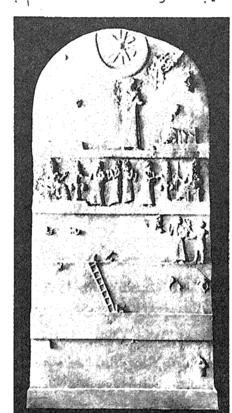
منه طبعات أختام وكتابات تذكر اسم الباني ، أي أورنامو ، واسم المدينة المقام فيها البناء ، واسم الاله والمعبد .

ترك أورنامو في مجال النحت عدة أنصاب منحوتة من الحجر تظهر الملك بانياً للمعابد وجالباً الخير والسلام للبلاد من خلال شق الأقنية للري . وأشهر تلك الأنصاب ذلك المنحوت من حجر كلسي والبالغ ارتفاعه بعد الترميم ثلاثة أمتار وعرضه 1,5 م (**الشكل 9**) . وقد قسم الوجه الأمامي للنصب إلى خمسة حقول يظهر الملك في أعلاها واقفاً أمام نانا إله القمر الذي يتوج شعاره (النجمة والهلال) النصب من الأعلى . والفكرة الرئيسة التي تظهرها المشاهد المنحوتة على النصب هي قيام الملك ببناء المعابد . ونقشت على الوجه الخلفي بالاضافة إلى مشاهد مشابهة كتابة تتحدث بالتفصيل عن الأقنية التي قام الملك بشقها في أنحاء البلاد [36] .

36 ـ انظر حول نصب أورنامو :
Moortgat, A., Die Kunst des Alten Mesopotamien, Band I, Sumer und Akkad, S. 117 f., 127 f.

وصل فن النحت على عهد أورنامو إلى مستوى جديد من التنفيذ التقني ولكنه كان يفتقر ، بالمقارنة مع فن النحت في العصر الأكادي ، إلى الابداع والتنوع .

حقق أورنامو وخلفاؤه شهرة كبيرة تركت صدى حتى في الأدب السومري ، فأُلّفت «رحلة أورنامو إلى الجحيم» وهي نص أدبي يصف دخول الحاكم المتوفى إلى العالم السفلي حيث تطيب خاطره هناك آلهة ذلك العالم بالهدايا .





(**الشكل 9ب**) احد اجزاء نصب اورنامو مكبرا.

(**الشكل 19**) نصب اورنامو من اور. نحت من الحجر الرملي ارتفاعه نحو 3م. موجود حاليا في فيلادلفيا، متحف الجامعة.

شولجي : Shulgi (2093-2046 ق .م) :

خلف أورنامو ابنه شولجي الذي استطاع خلال فترة حكمه الطويلة أن يوسع حدود مملكة اور الثالثة ، وأن يوصل نفوذها إلى مناطق بعيدة . فقد خضعت له عيلام في الشرق وآشور في الشمال ، وشمل نفوذه شمال سورية . وقد شاركه في إدارة الدولة أبناؤه الذين عينهم حكاماً على مقاطعات .

أطلق شولجي على نفسه لقب «ملك الجهات الأربع» واعتبر نفسه إلهاً ، وقد فعل ذلك خلفاؤه من بعده أيضاً حتى انهيار مملكة أور الثالثة . وفعل ذلك وكأنه كان يشعر أنه الوريث الشرعي للملوك الأكاديين الكبار شاروكين ونارام سين .

قاد شولجي حملات عديدة إلى شمال منطقة شرق دجلة لإيقاف توغل الحوريين نحو الجنوب . وكان الحوريون قد ظهروا في تلك المنطقة كمستوطنين منذ أواخر عهد الامبراطورية الأكادية ، وحاولوا فيما بعد توسيع المناطق التي يسيطرون عليها . وقد قاد شولجي أعداد كبيرة منهم كأسرى حرب إلى بلاد سومر واستخدمهم في الأعمال الزراعية المختلفة . ويظهر ذلك واضحاً من أسمائهم التي توردها النصوص المختلفة .

يظهر شولجي من خلال الكتابات المكتشفة التي تعود إلى عهده مهتماً بإشادة الأبنية ، وبخاصة الدينية ، أو تجديدها ، وبإقامة مشاريع الري وحفر الأقنية والعناية بها . وتظهر من خلال النصوص الأهمية الكبرى للأشخاص المشرفين على توزيع المياه . ونظراً لتشعب نظام السقاية وضرورة المحافظة على المشاريع المائية والعناية بها فقد أُنشأت في هذه الفترة مؤسسات مركزية مهمتها تنظيم مشاريع الري وتوسيعها والسهر على صيانتها والمحافظة عليها .

أمارسين : Amarsin(2045-2037 ق .م) :

أقام أورنامو وشولجي مملكة واسعة ذات نظام مركزي قوي . وقد بقيت هذه المملكة قوية لم تطرأ عليها تغييرات كبرى على عهد أمارسين بن شولجي وخليفته . وتتحدث أسماء سنوات حكمه عن حملات عسكرية وعن تعيين كهان كبار في معابد أور وأوروك وإريدو . ويشهد العديد من الوثائق الاقتصادية على قيام حياة تجارية واقتصادية مزدهرة . كذلك ازدهرت العلوم والفنون مع ميلها إلى المحافظة على التفكير والأسلوب السومري القديم .

شوسين :Shusin(2036-2028ق .م) :

ابن أمارسين وخليفته على عرش أور . ويظهر من بعض الكتابات المكتشفة أنه ألَّه نفسه أيضاً وتوجد طبعات أختام تظهره كإله متوج . وتذكر تواريخ سنوات حكمه قيامه بتقديم نذور للإله إنليل وتأسيس معبد للإله شارا shara إله مدينة أوما ، وقيامه ببعض الحملات العسكرية . غير أن أهم أعمال شوسين هي بنائه سور في منطقة الفرات الأوسط لإيقاف دخول البدو الأموريين إلى بلاد الرافدين . فيذكر أحد تواريخ سنوات حكمه مايلي : «السنة التي بنى فيها شوسين الملك جدار مارتو الذي يبعد تيدانوم Tidanum (تيدانوم هو اسم قبيلة أمورية» .

إبِّي سين : (الاسم يعني : سين سمًى) Ibbinsin(2027-2003ق .م) وسقوط مملكة أور الثالثة :

هو آخر ملوك سلالة أور الثالثة الذي جابه الأخطار التي كانت تحيط بمملكته من الغرب من قبل الأموريين ، ومن الشرق من قبل عيلام ، وأحرز بعض النجاحات . كذلك قام ببناء بعض المعابد وبصنع بعض أدوات العبادة . ولكن نجاحاته بقيت مؤقتة ولم يستطع المحافظة على وحدة المملكة التي أخذت بعض أجزائها بالانفصال عن العاصمة ، وقامت فيها سلالات أمورية مستقلة مثل سلالة إشبي إرًا Ishbierra من ماري الذي استولى مؤسسها على مدينة إسين واتخذها عاصمة له ، بينما قامت جماعة أمورية أخرى بقيادة المدعو نپلانوم Naplanum بالسيطرة على لارسا .

تميز عصر سلالة أور الثالثة بالاستقرار والوحدة في عهد الملوك السابقين لـ إبِّي سين ولكن هذا الاستقرار وهذه الوحدة بدءا بالاهتزاز نتيجة بروز خطرين كبيرين أحدقا بالمملكة وهما : الأموريون من الغرب والعيلاميون من الشرق الذين ارتبط تاريخهم بالأحداث التي تجري في بلاد بابل .

أخذت مملكة أور الثالثة بالانهيار عندما بدأت المدن التابعة لها بالانفصال عنها . وقد تجلى ذلك الانفصال بإصدار حكام المدن (إنزي) وثائق ونصوص مؤرخة بسنوات حكمهم بدلاً عن سنوات حكم الملك فانفصلت إشنونا الواقعة على نهر ديالي في السنة الثالثة من حكم إبِّي سين ، وتلتها سوزة العاصمة العيلامية في السنة الرابعة ، ثم لاجاش في السنة الخامسة وأوما في السنة السابعة .

يظهر تسلسل انفصال المدن عن السلطة المركزية أن الانفصال بدأ أولاً في المناطق البعيدة عن العاصمة ، ثم أخذ يقترب بالتدريج منها . وهذا أمر طبيعي فقوة الدولة تتركز عادة في العاصمة والمناطق القريبة منها . وتقدم لنا مراسلات الملك إبِّي سين مع القائد إشبي إرًّا ، الذي يعود بأصله إلى مدينة ماري ، صورة عن الوضع الضعيف الذي وصلت إليه مملكة أور الثالثة في تلك الفترة . يرجو إشبي إرا في إحدى رسائله [37] إلى الملك أن يزوده هذا بتفويض مطلق يمكنه من الوقوف في وجه البدو الأموريين (مارتو) الذين اخترقوا سور مارتو وبدأوا باحتلال القلاع في البلاد واحدة تلو الأخرى .

37 _ Römer, op. cit., S. 344.

إن رجاء إشبي إرًّا هذا هو نوع من الضغط على الملك كي يعينه حاكماً على مدينتي إسين ونيپور . وقد كان إشبي إرا في وضع يساعده على استغلال الأوضاع السيئة التي كانت تمر بها بلاد بابل لصالحه . فقد كانت المنطقة مهددة بالجوع نتيجة سوء المواسم الزراعية وبسبب دخول الأموريين وهجمات العيلامين .

وأمام رفض الملك إعطاء إشبي إرًّا التفويض المطلوب أعلن هذا الأخير نفسه حاكماً مستقلاً في مدينة إسين في السنة العاشرة أو الحادية عشرة من حكم إبِّي سين ، وبدأت بذلك سلالة حاكمة جديدة أخذت تنافس أور العاصمة . لم يكن إشبي إرًّا الوحيد الذي انفصل

عن العاصمة . فقد كانت هناك حالات مماثلة في المدن الأخرى . قام إشبي إرًا باحتلال نيپور عاصمة سومر الدينية ، وحصل بذلك على رعاية الاله إنليل كواهب للملكية الشرعية .

فقد إبِّي سين نتيجة لذلك السيطرة على وسط بلاد بابل وشمالها لكنه استطاع الحفاظ على ما تبقى من المملكة ، والمتمثل في أور والمنطقة المحيطة بها ، ثلاثة أو أربعة عشر عاماً آخر . وجاءت نهاية حكمه ومعها سقوط مملكة أور الثالثة من جهة الشرق على يد العيلاميين الذين ساروا بحملة مدمرة إلى أور . وقد ساعدهم في ذلك جماعات السو Su (أو Sua) التي كانت تسكن جبال زاغروس إلى الشمال من عيلام .

دمر العيلاميون ا لمدينة (وقد أظهرت ذلك الحفريات الأثرية) وأخذوا الملك إبِّي سين أسيراً إلى سوزة . وأبقوا لهم حامية في المدينة بعد انسحابهم منها . وقد طردها إشبي إرًا بعد ست أو سبع سنوات من ذلك التاريخ . ويبدو أن الحملة العيلامية تركزت ضد جنوب بلاد بابل ولم تتعرض للمناطق التي كان إشبي إرًا يسيطر عليها . ويسجل أحد النصوص السومرية من العصر البابلي القديم أخبار الحملة العيلامية على أور على شكل تقرير مؤثر فيه شكوى ونواح على تدمير المدينة ، ويعلل سبب الكارثة بغضب الإله إنليل .

نظام الحكم والادارة في مملكة أور الثالثة :

كان نظام الحكم في مملكة أور الثالثة نظاماً ملكياً مطلقاً لا يعرف أية قيود لسلطة الملك (لوجال) . كان الملك القاضي الأعلى ورئيس كل فروع الادارة ويقرر وحده الحرب أو السلم ، ويصل إلى منصبه عن طريق الوراثة كونه أحد أبناء العائلة المالكة . وهو الذي يعين حكام المقاطعات وكبار الكهنة ، وله وحده الحق في تشييد المعابد للآلهة . أما حكام المقاطعات فكان يمكنهم تشييد معابد لممارسة عبادة الملك المؤلَّه .

وصل مركز الملك نقطة الأوج بتأليهه . وكان نارام سين الأكادي أول من فعل ذلك في حياته ، وحذا حذوه فيما بعد شولجي وملوك آخرون حتى عهد حمورابي ولكن لم يقصد بالتأليه وضع الملك في مرتبة واحدة مع الآلهة الكبرى في البانثيون الرافدي ، بل رفعه فقط إلى مرتبة الإله الحامي للبلاد . وقد أقيمت معابد لعبادة الملك المؤله وقُدمت له الأضاحي .

توجد إلى جانب فكرة الإله الحامي للبلاد قضية غير واضحة تماماً وهي مساواة الملك المؤله مع الإله تموز محبوب إنانا وذلك بالارتباط مع طقس الزواج المقدس (تموز مع إنانا) الذي كان يُحتفل به كل عام . فكان الملك يقوم بدور تموز ، وكاهنة أحد الآلهة بدور إنانا .

كان يوجد إلى جانب منصب الملك منصب الـ سوكال ـ ماخ Sukkal-mach : الوزير الكبير . ودور من يقوم بهذا المنصب غير واضح حتى الآن . تعني سوكال ـ ماخ أصلاً بالسومرية ساعياً ـ رسولاً . وكان هذا المنصب منفصلاً عن نظام الانزي ، ويستطيع من يمارسه أن يتدخل في أمور القضاء ولكن لا توجد أدلة فيما إذا كانت هذه الوظيفة لها صفة الدوام في عصر الإحياء السومري ، أو لها صفة المراقبة إلى جانب الملك .

كانت مملكة أور الثالثة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كلاً منها إنزي يعينه الملك ، وعليه أن يقدم له تقارير عن سير أمور مقاطعته بانتظام . وكان الانزي يعين غالباً من الأسرة المالكة أو من المقربين لها . وبلغ عدد المقاطعات التي يحكمها إنزي أكثر من أربعين ، معظمها في بلاد بابل . أما في ماري وأوروك وفي المقاطعات البعيدة عن العاصمة فكان الأمر موكولاً إلى شخص يحمل لقب شاجين Shagin : حاكم عسكري . وكان الشاجين يتبع الانزي في حال وجوده ، ومسؤولاً فقط عن الأمور العسكرية . ويبدو أن النظام الذي أوجده أورنامو بقي معمولاً به في عهد خلفائه .

لم تكن مدة حكم الانزي مرتبطة بمدة حكم الملك ، وكان يتم أحياناً نقل الانزي من منطقة إلى أخرى . وربما كان السبب في ذلك في بعض الحالات منع تمركز السلطة المحلية في يد حاكم واحد قد يهدد أمن الدولة في وقت ما .

التزم العديد من الانزي في بلاد بابل بتقديم أضاحٍ بانتظام لمعابد نيبور ، وذلك بالتناوب فيما بينهم شهرياً . واستثني من ذلك الانزي البعيدون عن نيبور مثل إنزي آشور . إلى جانب المقاطعات التي يحكمها إنزي كانت هناك مقاطعات أصغر يحكمها موظف يحمل اللقب الأكادي رَبيانوم rabianum : الكبير ، الذي يظهر لأول مرة في نصوص سلالة أور الثالثة . وربما كان الرَبيانوم أساساً رئيس مدينة صغيرة لا يوجد فيها إنزي .
وكانت القرى والبلدان الصغيرة تدار من قبل موظف يحمل اللقب الأكادي خَزانوم chazannum : مختار .

انقسمت أعمال الادارة في مملكة أور الثالثة إلى قسمين هما : إدارة القصر وإدارة المعبد . فالقصر لم يكن مجرد مركز للملك بل تتبعه أبنية للاقتصاد والادارة بالاضافة إلى ورشات ومستودعات وخزائن وممتلكات . وكل هذه الفروع كانت تحتاج موظفين متعددي الاختصاصات لتسيير الأمور المختلفة .

كان الاقتصاد الزراعي يخضع إلى إدارة دقيقة تشمل الأراضي التابعة للقصر أو المعبد ، وتسجل فيها كميات البذار ومقدار المحصول والكميات المخزونة ومكان خزنها والادارة المسؤولة عن ذلك والكميات المسلمة . يتضح من ذلك الاهتمام الكبير بالزراعة التي كانت تشكل القاعدة الرئيسة للاقتصاد . وكانت الأراضي الزراعية ملكاً للقصر أو المعبد ولم توجد ملكيات خاصة . أما الفعاليات الاقتصادية الأخرى كتربية الحيوان والتجارة والصناعة فكانت منظمة تنظيماً دقيقاً تشهد عليه الوثائق المكتشفة .

أما على الصعيد الثقافي فنلاحظ في هذا العصر انتشار استخدام اللغة السومرية على نطاق واسع . ولكن لم يمنع هذا من استعمال اللغة الأكادية في بعض المجالات . وقد ازداد تأثيرها نتيجة تقدم عملية الانصهار الاجتماعي بين السومريين والأكاديين . فدخلت اللغة السومرية كلمات أكادية كثيرة ، وانتشر استخدام الأسماء والألقاب الأكادية . فأسماء الملوك أمارسين وشوسين وإبِّي سين أكادية .

وتمتع الإله داجان الذي أدخل الأكاديون عبادته إلى بلاد الرافدين ، بالتقديس والعبادة في هذا العصر . حتى أن شولجي قام في سنة حكمه التاسعة والثلاثين بتأسيس مدينة بالقرب من نيپور سماها بوزريش داجان أي «في حماية داجان» (حالياً دريهم) .

من الجدير بالذكر ان هذا الاله سوري الاصل وانتشرت عبادته في منطقة الفرات الاوسط منذ العصر الاكادي حيث كان يلقب "ملك البلاد"، ولعب دورا كبيرا في ماري في عهد السلالة الامورية التي حكمتها في بداية الالف الثاني قبل الميلاد. اما في سورية فقد انتشرت عبادته بين الكنعانيين وكان له معبد في اوجاريت. وتعني كلمة داجان في اللغات الأوجاريتية والفينيقية والعبرية حبوب، وفي اللغة العربية الدجْنُ: إلباس الغيم السماء، والدجَن: المطر الكبير. من ذلك يمكن الاستنتاج ان داجان إله ذو طبيعة زراعية، وربما كان بالاصل إلها للخصب. وقد عرف لدى الكنعانيين والفلسطيين في فلسطين باسم داجون وكانت له معابد عديدة أشهرها معبد غزة ومعبد أشدود.

بسقوط مملكة أور الثالثة يختفي السومريون نهائياً عن مسرح الأحداث وينحصر استخدام لغتهم في العصور التالية في مجال ضيق هو المجال الديني . غير أن تأثيرهم الحضاري بقي ماثلاً في منجزاتهم الفكرية التي حققوها والتي أخذتها عنهم الشعوب الأخرى .



الفصل الثامن

بلاد الرافدين بعد سقوط مملكة أور الثالثة

تعرضت بلاد الرافدين بعد سقوط مملكة أور الثالثة للتفتت والانقسام فقامت فيها دويلات عديدة أخذت تتنافس فيما بينها على السلطة والنفوذ ، وأشهرها إسين ولارسا وإشنونا .

1- دولة إسين : Isin(2017-1793 ق .م)

وقد أسسها إشبي إرًّا (2017-1985ق .م) القائد العسكري ذو الأصل الأموري الذي عرفناه منذ عهد آخر ملوك سلالة أور الثالثة . وهناك خاتم اسطواني يحمل الكتابة التالية : «إشبي إرًّا ملك قوي ، ملك جهات العالم الأربع ، شوإرّا : shuerra الحاكم العسكري (شاجين) بن تورام إلي هو عبدك» . وقد عُثر على هذه الكتابة مع طبعة الخاتم على لوح طيني مؤرخ في السنة السابعة من حكم إشبي إرًّا . يتضح من هذا أن إشبي إرًّا أطلق على نفسه لقب «ملك» قبل نهاية حكم إبّي سين آخر ملوك سلالة أور الثالثة . كذلك جعل اسمه يُكتب مقروناً بعلامة الألوهية . ويظهر في كتابة على أحد الأختام إلهاً حامياً للبلاد . باختصار يمكن القول أن إشبي إرًّا أخذ كل الألقاب التي تلقب بها ملوك سلالة أور الثالثة ، وكأنه أراد بذلك الادعاء أنه الوريث الشرعي لهم .

اتخذ إشبي إرًّا مدينة إسين عاصمة لدولته التي أنشأها وبقيت كذلك حتى سقوط تلك الدولة . لم تلعب إسين قبل ذلك أي دور في تاريخ بلاد بابل ، مثلها في ذلك مثل مدينة بابل التي لم يكن لها أي دور يذكر قبل أن تصبح عاصمةً للسلالة البابلية الأولى .

يُعرف موقع إسين الحالي باسم إيشان البحريات على بعد نحو 30 كم جنوب نيبور، والحفريات فيه لا تزال في بداياتها . كانت إسين معروفة منذ عصر السلالات الباكرة ، ولكن لم يحكمها قبل إشبي إرًّا أي حاكم مستقل . واشتهرت كمركز لعبادة الإلهة نين إنسينا Nininsina أي «سيدة إسين» التي كانت تعبد في المدن الأخرى باسم جولا Gula (الكبيرة) ، وهي إلهة الشفاء في مجمع الآلهة السومري و«الطبيبة الكبرى لبلاد سومر» ، وقد عُرف معبدها الرئيس في إسين باسم إ- جال- ماخ E.GAL.MAH : القصر الكبير .

بالاضافة إلى هذه الإلهة تمتع الإله داجان بعبادة خاصة في إسين كون سلالة إشبي إرًّا تعود بأصولها إلى منطقة الفرات الأوسط مركز عبادة هذا الإله في بلاد الرافدين .

غير معروف المدى الذي امتد إليه نفوذ إشبي إرَّا بسبب قلة الوثائق التي تتحدث عن حكمه بالمقارنة مع وثائق سلالة أور الثالثة . ونستمد معلوماتنا عن عهده من بعض الكتابات النذرية والعمرانية ومن مجموعة تواريخ بعض السنوات ، وبالدرجة الأولى من أرشيف عثر عليه في إسين يتحدث عن صناعة الجلود في المدينة ، ويعود تاريخه إلى عهد إشبي إرَّا والسنوات الأولى من عهد خليفته شو إليشو .

يبدو أن إشبي إرَّا دخل في البداية في تحالفات مع أمراء آخرين ثم أخضعهم لسلطته . أما على الصعيد الاداري فلم تحدث تغييرات جذرية في دولة إسين بالمقارنة مع الوضع الذي كان سائداً في عصر سلالة أور الثالثة . فالنصوص الادارية من إسين تشبه في طابعها ومضمونها تماماً نصوص سلالة أور الثالثة .

أما في المجال العسكري فكان الأمر مختلفاً ، فقد اهتم إشبي إرَّا اهتماماً كبيراً بتأمين حدود دولته ضد الأخطار الخارجية ، فيذكر العديد من تواريخ سني حكمه عمليات بناء تحصينات لدرء خطر البدو الأموريين والعيلاميين الذين احتلوا أور . وقد استطاع إشبي إرَّا طردهم من هناك في السنة الثانية والعشرين من حكمه وسيطر بذلك على وسط بلاد بابل وجنوبها .

خَلَفَ إشبي إرَّا ابنه شوإليشو (الاسم يعني : هو إلهه) Shuilishu (1984–1975 ق . م) الذي نجح في استعادة تمثال نانا إله القمر الذي أخذه العيلاميون عندما احتلوا أور . وقد خَلَفَ هذا إدِّين داجان (داجان أعطى) Iddindagan (1974–1954 ق . م) ثم إشمي داجان (داجان سمع) Ishmedagan (1953–1935 ق . م) .

استمر تطور إسين خلال عهود هؤلاء الحكام دون أي تعكير من ا لخارج وتركزت أعمال البناء على إعادة إعمار مدينة أور التي دمرها العيلاميون عند غزوهم بلاد بابل .

ومما يدل على أن هذه الفترة كانت فترة تطور مستمر أن الأدب السومري ، الذي عاش فترة من الازدهار والتفتح في عصر سلالة أور الثالثة ، وجد في دولة إسين استمراراً ، فأُلفت العديد من الترانيم للآلهة والملوك ونُسخت أشعار سومرية أخرى في مدارس الكتبة .

بدأت قوة إسين بالتراجع على عهد إشمي داجان فهناك نص من ماري يذكر هزيمة هذا الملك أمام أبواب مدينة كيش .

اعتلى عرش إسين بعد إشمي داجان ابنه ليبيت عشتار (صنيع عشتار) Lipitishtar (1934–1924 ق . م) ، وهو آخر ملك من سلالة إشبي إرَّا . وقد اشتُهر من خلال القانون الذي وضعه وعُرِف باسمه .

قانون ليپيت عشتار :

إن ما هو موجود من هذا القانون عبارة عن نسخ مدرسية عُثر عليها في مدن كيش ونيپور ومحفوظة حالياً في متحف اللوڤر ومتحف جامعة بنسلفانيا ومتحف الآثار في استانبول . ومن المؤكد أن القانون كان مكتوباً بالأصل على مسلة منصوبة في مكان عام كي يراها الناس

جميعاً . وهذا ما تذكره خاتمة القانون : «في اليوم الذي طبقت العدالة فيه في سومر وأكاد أقمت هذه المسلة» .

دُوِّن قانون ليبيت عشتار باللغة السومرية على الرغم من أن السلالة الحاكمة في إسين كانت أمورية . وهذا يظهر أن اللغة السومرية بقيت مستعملة خلال هذه الفترة كلغة للعلوم والآداب .

يشبه قانون ليبيت عشتار قانون أورنامو الأقدم منه فهو عبارة عن جمع لأحكام قانونية تعالج قضايا اقتصادية واجتماعية مختلفة ، ويتألف من مقدمة وخاتمة ومواد قانونية بلغ عدد المكتشف منها سبع وثلاثون مادة .

يذكر ليبيت عشتار في المقدمة أن الآلهة أوكلت إليه مهمة إقامة العدل في البلاد ، وأنه «حرر أبناء وبنات نيپور وأبناء وبنات أور وأبناء وبنات إسين وأبناء وبنات سومر وأكاد الذين وُضِعت العبودية على عاتقهم» .

ربما يشير ليبيت عشتار بهذه العبارة العامة إلى إصداره قرار عتق من الدَّين شمل العديد من أبناء وبنات مملكته ، وكان الهدف منه منع تشكل تباينات اجتماعية كبيرة في المجتمع السومري ـ الأكادي .

يقوم قانون ليبيت عشتار على مبدأ تعويض الخسارة بالمال ، وليس كقانون حمورابي على مبدأ العين بالعين والسن بالسن . وعقوبة الموت التي ترد كثيراً في قانون حمورابي لا تذكرها المواد المكتشفة من قانون ليبيت عشتار[38] .

38 ـ انظر حول قانون ليبيت عشتار : فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص 51-79 .

في أواخر عهد ليبيت عشتار احتل جونجونوم Gungunum (1932-1906 ق .م) حاكم لارسا مدينة أور ، فخسرت إسين بذلك الجنوب البابلي .

حكم إسين بعد ليبيت عشتار أور نينورتا Urninurta (1923-1896) ثم ابنه بورسين Bursin (1895-1874 ق .م) وغيره . لكن الفترة بعد ليبيت عشتار تميزت بتراجع قوة إسين ، وباحتدام الصراع بينها وبين لارسا على النفوذ في جنوب بلاد بابل ، ذلك الصراع الذي كانت خاتمته سقوط إسين بيد ريم سين ملك لارسا في سنة حكمه التاسعة والعشرين (أو الثلاثين) (نحو 1793 ق .م) . وكدليل على أهمية هذا التاريخ فإن ريم سين أرخ سنوات حكمه التالية استناداً إلى هذا الحدث .

2ـ دولة لارسا : Larsa 2025-1763ق .م

تذكر قائمة ملكية صغيرة من عهد سمسو إلونا خليفة حمورابي أن رجلاً أموري الأصل يدعى نَپلانوم Naplanum (2025-2005 ق .م) قام بتأسيس سلالة حاكمة في لارسا قبل ثمان سنوات من استيلاء إشبي إرَّا على الحكم في إسين . وهناك شخص يدعى نَپلانوم يرد ذكره في عدة وثائق إدارية من أواخر عصر سلالة أور الثالثة ، ويوصف فيها إنه «مارتو» أي أموري . من الواضح أن المقصود بذلك هو نَپلانوم مؤسس دولة لارسا . مما تجدر الاشارة إليه أن لارسا لم يكن لها أي دور يذكر في تاريخ بلاد الرافدين قبل هذه الفترة . ويُعرف موقعها الحالي باسم

السنكرة على بعد نحو 20 كم جنوب شرق الوركاء . إن المعلومات المتوافرة عن نَپلانوم والأعمال التي قام بها قليلة ، وقد خلفه في حكم لارسا على التوالي ثلاثة حكام لم يستخدم أي منهم لقب ملك . أما الحاكم الرابع المدعو جونجونوم (1932–1906 ق . م) ، والمعاصر لييبت عشتار وأورنينورتا حكام إسين ، فقد سمى نفسه «ملك لارسا ، ملك سومر وأكاد» ، وانتزع السيادة على أور من إسين . وقد خلفه عدد من الحكام أشهرهم نور أدد Nuradad (1865–1850 ق . م) وسين إدِّينام (1849–1843 ق . م) . غير أن لارسا بلغتْ أوج قوتها وازدهارها على عهد أبناء كودورمبوك Kudurmabuk الذي كان يقيم في منطقة يموت بعل شرق بلاد بابل ، وهو من أصل أموري .

قام كودور مبوك بعد استيلائه على السلكة في لارسا بتنصيب ابنه وارادسين Waradsin (عبد سين) حاكماً هناك (1834–1823) ، وبقي هو في خيام قبيلته واكتفى بلقب شيخ أو أب ، لكنه احتفظ من بعيد بالقيادة في يده من خلال تحديد سياسة وارادسين .

أولى وارادسين عنايته للأمور الدينية فبنى معابد للآلهة السومرية القديمة نانا ونين ماخ ونين إنسينا وقدم لها النذور . واهتم ببناء الأسوار لحماية المدن من الأخطار الخارجية . يقول في إحدى كتاباته : «أنا وارادسين البطل القوي الذي نصبه إنليل راعياً عادلاً ، الذي يهتم بـ أور ، ملك لارسا ، ملك سومر وأكاد ، ابن كودور مبوك «أب» يموت بعل . لتوسيع أور وحصولها على اسم سام صليت متوسلاً . نانا ملكي ضمن لي ذلك . بنيت له سوراً كبيراً لا يمكن نقبه يلمع كلمعان الخوف . مدينته بُنيت بشكل متين. هذا السور اسمه "نانا دعم اساس البلاد" . [39]

39 – Schmökel, H., Geschichte des alten Vorderasien, S. 77

اعتلى عرش لارسا بعد وارادسين أخوه ريم سين Rimsin (هدية سين) الذي حكم فترة طويلة من الزمن (1822–1763 ق . م) استطاع خلالها أن يوطد دعائم حكمه ويوسع سيطرته لتشمل كل الجنوب البابلي . قام ريم سين بالعديد من المشاريع العمرانية وشق العديد من الأقنية لتوفير المياه اللازمة للزراعة . يذكر تاريخ سنة حكمه الرابعة والعشرين ما يلي : «بناءً على أمر الآلهة أنو وإنليل وإنكي حفر الراعي الحقيقي ريم سين المالك للحكمة واللامع ذكاؤه «قناة التوأم» التي تؤمن ماء الشرب للسكان البعيدين والتي تجلب شواطئها فيض الحنطة حتى إلى البحر ، والتي حولت الأراضي الواقعة على جانبيها إلى أراضٍ زراعيةٍ» .

واجه ريم سين في بداية حكمه أخطاراً عديدة وتشكلت ضده عدة تحالفات أجبرته على إتخاذ إجراءات دفاعية تمثلت بتدعيم أسوار المدن وإقامة حصون وقلاع على الحدود . ومضت خمس عشرة سنة قبل أن يتجرأ ويوجه ضربة ضد تحالف مدن أوروك وإسين وبابل ورابيقوم وبعض القبائل البدوية . قام بعد ذلك ببعض الحملات على مدن تابعة لمملكة إسين وحاول عقد تحالفات مع حكام آخرين . فتذكر إحدى رسائل ماري أنه عرض مرة على حمورابي ملك بابل إقامة حلف دفاعي بينهما . لكن حمورابي رفض ذلك .

قام ريم سين في سنة حكمه التاسعة والعشرين (أو الثلاثين) باحتلال إسين وسيطر بذلك على كل بلاد سومر وأكاد باستثناء بابل .

اهتم ريم سين بعد هذا التاريخ بأمور مملكته الداخلية ، وبخاصة الأمور الزراعية ، وبقي يحكم لارسا حتى عام 1763 ق . م عندما هزمه حمورابي وسيطر على مملكته . ولم ينقذه هربه إلى منطقة يموت بعل مسقط رأسه ، فقد تبعه حمورابي إلى هناك وأسره . ولا شيء معروف عن نهايته .

يعد غصر دولتي إسين ولارسا عصراً متميزاً في تاريخ بلاد الرافدين على الصعيد الأدبي . فتتمثل أعظم إنجازاته في تدوين كثير من الآداب السومرية من قبل الكهنة في المعابد ، التي كانت بمثابة أكاديميات أُلِّفت أو نُسخت فيها ترانيم الآلهة والملوك وأغاني الشكوى والنواح على سقوط المدن السومرية ونهاية عصر سلالة أور الثالثة . وهنا نشأت الأشكال المعروفة حالياً للعديد من الأساطير عن الآلهة الكبرى أن وإنليل وإنكي وإنانا ونانا وغيرها ، ووُضعت أو نُسخت الأساطير عن الأبطال إن ميركار ولوجال بَندا وجلجاميش وأورنامو ، ودُونت الأقوال المأثورة ونصوص الحكمة .

مما تجدر الاشارة إليه أن اللغة السومرية بقيت في عصر إسين ـ لارسا لغة الأدب والدين على الرغم من أنها لم تعد لغة محكية .

على الصعيد الديني يبدو أن أسرة كودورمبوك كانت تعبد سين إله القمر . فواراد سين وريم سين يدخل اسم الإله سين في تركيب اسميهما . كذلك فإن كودورمبوك جعل ابنته إن أنيدو Enanedu كاهنة لإله القمر نانا في أور .

3ـ دولة إشنونا : Eshnuna (حالياً تل أسمر على بعد 80 كم شمال شرق بغداد)

نشأت هذه الدولة في منطقة ديالي . وكانت في البداية تابعة لمملكة أور الثالثة ، ولكن الاتصال انقطع بينها وبين أور في السنة الثالثة من عهد إبِّي سين ، وخضعت لحاكم يدعى إيتوريا Ituria (نحو 2020 ق . م) . وقد خلفه فيها ابنه إلشوإليا •نحو 2000 ق . م) الذي عمل في بداية حياته كاتباً عند إبِّي سين آخر ملوك سلالة أور الثالثة . ويسمي نفسه في إحدى الكتابات «الملك العظيم ملك بلاد واريوم Warium» . من الجدير بالذكر أن واريوم هو الاسم المحلي لمنطقة إشنونا .

اكتفى الحكام الذين جاؤوا بعد إلشوإليا باستعمال لقب إنزي ، واستمر الأمر كذلك حتى عهد إبيق أدد الثاني Ipiqadad II (نحو 1840 ق . م) الذي أطلق على نفسه لقب «ملك وراعي ذوي الرؤوس السوداء» . وقد حاول ابنه نارام سين (نحو 1820ق . م) أن يمد نفوذ إشنونا على بلاد آشور ومنطقة الخابور الأعلى . واعتلى عرش إشنونا بعد هذا أخوه دادوشا Dadusha (نحو 1800 ق . م) الذي دُونت على عهده ، كما يبدو ، الشريعة المسماة باسم شريعة إشنونا ، التي عثر عليها مكتوبة على لوحين طينيين في عامي 1945 و1974 خلال حفريات مديرية

الآثار العراقية في تل أبي حرمل (شادوپوم القديمة) بالقرب من بغداد . كانت شادوپوم تقع ضمن نفوذ مملكة إشنونا . واللوحان محفوظان حالياً في المتحف العراقي ببغداد[40] .

كُتب قانون إشنونا باللغة الأكادية وهو بذلك يختلف عن القوانين السابقة التي كُتبت باللغة السومرية . وهذا يعني أن اللغة الأكادية أصبحت اللغة الرسمية في البلاد . ويتألف القانون من مقدمة صغيرة تختلف عن مقدمات الشرائع السابقة ، ومن ستين مادة قانونية فيها تحديد لأسعار المواد المختلفة كالحبوب والزيت والصوف ، وتحديد للأجور ، كأجور السفن والعربات والثيران والحمير والأدوات الزراعية ، ومعالجة لقضايا اجتماعية وحقوقية مختلفة .

يذكر دادوشا في تاريخ إحدى سنوات حكمه انتصاره على إشمي داجان إبن شمشي أدد الأول ملك آشور . مما تجدر الاشارة إليه أن العلاقات ما بين إشنونا وآشور في عهد شمشي أدد الأول اتسمت بالعداء غالباً .

خلف دادوشا على عرش إشنونا إبال پيل الثاني Ibalpiel II (نحو 1760 ق .م) الذي كان ، حسب إحدى رسائل أرشيف ماري ، أحد ملوك بلاد الرافدين الأقوياء في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وقد ساهم هذا الملك ، بعد وفاة شمشي أدد الأول ملك آشور ، بشكل فعال في انهيار الامبراطورية الآشورية القديمة ، وذلك بمهاجمتها من الجنوب ووصوله حتى الفرات .

دخلت إشنونا في الفترة اللاحقة في تحالف مع عيلام ضد بابل وماري فقام حمورابي ملك بابل باحتلالها وتدميرها في سنة حكمه الثانية والثلاثين.



40 – انظر حول قانون إشنونا : فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص 83–104

الفصل التاسع

الأموريون

بدأت جماعات بدوية منذ نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد بالدخول على شكل موجات كبيرة إلى بلاد الرافدين قادمة من بادية الشام . وقد دخل أفراد من هذه الجماعات منذ عصر مبكر إلى بلاد الرافدين فتذكرهم المصادر السومرية باسم مارتو Martu ، والأكادية باسم أموروم Amurrum . ويرد أقدم ذكر لهم في أحد ألواح فارا (نحو 2600 ق.م) الواقعة في جنوب بلاد بابل حيث يُذكر شخص أموري . أما في العصر الأكادي فقد ظهر الأموريون على أطراف الأراضي الزراعية ، فتاريخ إحدى سنوات حكم الملك شاركالي شاري يذكر نصراً لهذا الملك على الأموريين عند جبل بَسار Basar (جبل بشري حالياً شمال شرق تدمر) الذي كان مكاناً يلجأ إليه بدو بادية الشام . ويخبرنا جوديا حاكم مدينة لاجاش في إحدى كتاباته أنه جلب أحجاراً كبيرة من «جبل بَزالاّ Basalla جبل مارتو وأحجاراً وألباستر من «جبال تيدانوم Tidanum وأومانوم Umanum ، جبال مارتو» لبناء معبد نينجرسو في لاجاش [41] .

إن جبل بَزالاّ ما هو إلا جبل بشري ، والأماكن الأخرى هي مناطق تقع بالقرب منه اتخذها الأموريون أماكن لتجمعهم ، لذلك عُرِفت بأسماء قبائلهم التي أقامت فيها .

إن كلمة مارتو أو أموروم لا تحمل معنىً عرقياً بل معنىً جغرافياً ، وتعني الجهة التي دخلت منها هذه الموجات البدوية إلى بلاد الرافدين ، أي جهة الغرب . ولكن اقترن معنى مارتو أو أموروم عند سكان بلاد الرافدين مع معنى بدوي ، فتصف بعض النصوص الأموريين بـ «الذين لا يعرفون الحبوب» ، «الرجل (أي الأموري) الذي يحفر عن الكمأة على أطراف الأراضي الزراعية ، الذي لا يعرف أن يحني الركبة (أمام الآلهة) ، الذي يأكل اللحم النيء ، الذي لا يعرف طوال حياته بيتاً ، الذي لا يُدفن بعد موته (بشكل صحيح)» [42] . إن كل الصفات المذكورة تنطبق على البدوي الذي يقضي حياته في الحل والترحال . لكن هذا الوضع تغير بالنسبة للأموريين بعد دخولهم واستقرارهم في بلاد الرافدين وتمثلهم لمظاهر الحضارة التي كانت سائدة هناك . لا بل نراهم يساهمون في تطوير تلك الحضارة بمظاهرها المختلفة .

إن دخول الأموريين إلى بلاد الرافدين كان في البداية سلمياً وبأعداد قليلة . فتذكر نصوص سلالة أور الثالثة أموريين كانوا يملكون حقولاً أو يمارسون وظائف في الدولة . غير أن هذا التسرب السلمي تزايد مع الزمن وأصبح يهدد وحدة مملكة أور الثالثة . فقام الملك

41 – Mari, A., Der Handel zwischen Syrien und Babylonien im achtzehnten Jahrhundert vor Christus, Würzburg 1985, S. 67.

42 – Klengel, H., Zwischen Zelt und Palast, Leipzig–Wien 1972, S. 44 f.

شوسين ببناء سور لمنع دخول تلك الجماعات إلى بلاد الرافدين سُمي «سور مارتو» ، وكان طوله في البداية نحو 63 كم ثم رمم ووسع حتى بلغ نحو 280 كم .

ويبدو أنه أدى الغرض الذي بُني من أجله لفترة من الزمن ولكنه لم يوقف بشكل نهائي دخول الجماعات الأمورية إلى بلاد الرافدين . فقد كان لهذه الجماعات دور أساسي في إسقاط سلالة أور الثالثة ، وقام بعض أفرادها بتأسيس سلالات حاكمة في إسين ولارسا قبل سقوط العاصمة أور .

لم يغمر المد الأموري في بداية الألف الثاني قبل الميلاد بلاد الرافدين فقط بل سورية أيضاً ، ولم تظهر سلالات حاكمة أمورية فقط في بابل وماري وآشور وغيرها من المدن الرافدية بل أيضاً في حلب وقَطْنَة وأوجاريت وجبيل وحاصور ، ووصلت التأثيرا الأمورية إلى الدلتا في مصر . وفيما يلي نستعرض أهم الممالك الأمورية ، التي نشأت في بلاد الرافدين وهي مملكة ماري ومملكة آشور والمملكة البابلية الأولى .

1ـ مملكة مـــاري :

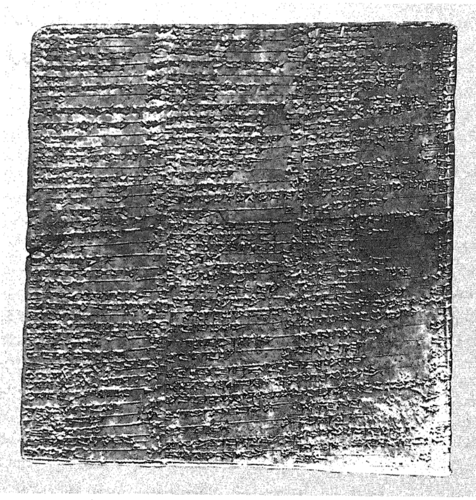
أدت الحفريات التي بدأت منذ عام 1933 في تل حريري على الضفة اليمنى لنهر الفرات بالقرب من البوكمال باشراف الفرنسي أندريه پارو A.parrot إلى الكشف عن حاضرة هامة من حواضر المشرق العربي القديم ألا وهي ماري . يرقى تاريخ نشوء ماري إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد . وقد ساعدها موقعها الجغرافي الممتاز بين بلاد الرافدين وسواحل البحر المتوسط الشرقية على أن تحرز أهمية سياسية واقتصادية كبيرة . وكانت تشغل مساحة تُقدَّر بـ 800x1000 م وترتفع في وسطها الزقورة المعروفة باسمها والبالغة مساحة قاعدتها 25x42 م والتي جدد بناءها عدة مرات . أيضاً كانت تقوم في المدينة معابد عديدة مخصصة لآلهة نذكر منها عشتار ـ نينخورساج ـ شماش . . . إلخ . غير أن أهم مكتشفات ماري هي القصر الملكي والأرشيف (المحفوظات) [43] المؤلف من نحو خمسة وعشرين ألف رقيم طيني كتبت بالخط المسماري وباللغة الأكادية (اللهجة البابلية القديمة) ، ويرقى تاريخ معظمها إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

ويشمل الأرشيف وثائق اقتصادية وإدارية ورسائل وتقارير ونصوص مختلفة ، تلقي أضواءاً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية في ماري ، وعلى العلاقات السياسية والاقتصادية التي كانت قائمة في تلك الفترة في سورية وبلاد الرافدين .

يبين لنا أرشيف ماري أن أسرة أمورية وصلت إلى الحكم في ماري في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد . وأول ملك معروف منها يدعى يجيدليم Yaggidlim (نحو 1830 ق . م) الذي دخل في صراع مع حاكم أموري آخر هو إلا كبكابو Ilakabkabu (الإله كوكب) والد شمشي أدد (الإله أدد شمسي) الذي كان يحكم في تِرقا Terqa (حالياً تل عشارة) الواقعة إلى الشمال من ماري ، وطرده من هناك . تسنم عرش ماري بعد يجيدليم ابنه يخدون ليم Yachdunlim (نحو 1825–1810 ق . م) الذي خلَّد أعماله التي قام بها في تقرير على شكل «وثيقة تأسيس» أودعها في أساسات معبد شماش إله الشمس الذي بناه في ماري [44] (**الشكـــل 10**) . يمجد يخدون

43 ـ يقوم علماء بلجيك وفرنسيون منذ عام ١٩٤٦ بنشر وترجمة نصوص أرشيف ماري في سلسلة بعنوان «محفوظات ماري الملكية» Archives Royales de Maris (ARM) والتي صدر منها حتى الآن ست وعشرون مجلداً .

44 ـ انظر حول تلك الوثيقة : عيد مرعي ، يخدون ـ ليم ملك ماري ، وثيقة تأسيس معبد إله الشمس (شماش) في ماري ، دراسات تاريخية ، العددان 27و28 أيلول ـ كانون اول 1987 ، ص 99-110 .



(الشكـل 10) وثيقة تأسيس معبد شماش في ماري من الطين المشوي. ابعادها 7x40.5x41. وهي واحدة من تسع لوحات أمر بنقشها يخدون ليم ملك ماري واودعها في اساسات معبد شماش في ماري. موجودة حاليا في المتحف الوطني بدمشق.

ليم نفسه فيه أنه أول ملك من ماري استطاع الوصول إلى شواطىء البحر (أي البحر المتوسط) وقطع أشجار الأرز والسرو والبقس والصندل في الجبال العالية ، أي الجبال الساحلية . لكن هذه الحملة لم تكن لها نتائج سياسية على الوضع العام في المنطقة ، فلم تؤدِ إلى إخضاع سورية لنفوذ مملكة ماري . وكانت أهم دوافعها الحصول على أخشاب البناء ، وبخاصة أخشاب الأرز والسرو والصنوبر ، المتوفرة في المنطقة الساحلية ، وتحقيق المجد والشهرة .

امتد نفوذ يخدون ليم باتجاه الشمال حتى مدينة إيمار Emar (مسكنة حالياً) حيث يذكر انتصاراً له على هذه المدينة في تاريخ إحدى سنوات حكمه .

انتهى حكم يخدون ليم بمؤامرة في القصر الملكي قتل فيها الخدم مليكهم . ويبدو أن شمشي أدد بن إلا كبكابو ، الذي كان قد توصل إلى الاستيلاء على الحكم في آشور ، ولم ينس صراع أسرته القديم مع أسرة يخدون ليم ، كان وراء هذه المؤامرة ، فقد احتل ماري بعدها ونصَّب ابنه يسماخ أدد حاكماً عليها .

هرب زمري ليم Zimrilim بن يخدون ليم وولي عهده إلى حلب عاصمة مملكة يمحاض بعد مقتل والده وبقي هناك طوال فترة الحكم الآشوري لماري ، حيث لقي كل رعاية

ومساعدة في البلاط الحلبي . بعد وفاة شمشي أدد عام 1782 ق . م انهارت امبراطوريته التي بناها ، وعاد زمري ليم إلى ماري بمساعدة ياريم ليم الأول . yarimlim I ملك يمحاض .

ماري على عهد زمري ليم : 1782–1759ق .م

بلغت ماري أوج قوتها وازدهارها على عهد زمري ليم آخر ملوكها ، فقد كانت تشكل قوة سياسية واقتصادية كبيرة . يشهد على ذلك أرشيفها الذي يعود في معظمه إلى عهد زمري ليم .

كانت المنطقة الخاضعة لسلطة زمري ليم المباشرة ضيقة ومحصورة في منطقة الفرات الأوسط حيث تمتد من توتول في الشمال وحتى هيت في الجنوب . ولكن موقع ماري الجغرافي المتميز ، المتحكم في طرق التجارة البرية والنهرية الواصلة ما بين بلاد الرافدين وسورية ، مكن زمري ليم من الحصول على أرباح كبيرة وبالتالي تمويل المشاريع العمرانية المختلفة . فقد لعبت ماري دور الوسيط في التجارة ما بين بلاد الرافدين وسورية . فتتحدث النصوص عن تصدير الخمر والأخشاب والخيول وزيت الزيتون والعسل من المدن السورية المختلفة (كركميش ـ إيمار ـ حلب ـ قطنة) إلى بلاد الرافدين عبر ماري سواء مع القوافل البرية أو مع السفن النهرية . وجنت ماري أرباحاً كبيرة من تجارة القصدير الذي كانت تستورده من شمال غرب إيران ومن ثم تعيد تصديره إلى العديد من المدن السورية . باختصار يمكن القول إن علاقات ماري التجارية كانت تمتد من الخليج العربي في الجنوب حتى كاروم كانيش في الأناضول ، ومن إيران في الشرق حتى سواحل البحر المتوسط في الغرب . ومما تجدر الاشارة إليه أن التجارة ، التي كانت دعامة اقتصاد ماري الأساسية ، كانت تحت إشراف الملك مباشرة .

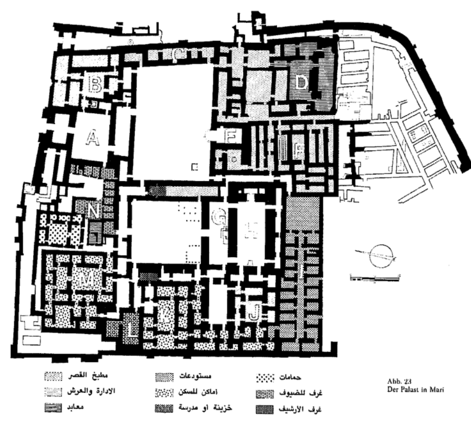
يظهر زمري ليم من خلال رسائل أرشيف ماري سياسياً بارعاً تربطه علاقات سياسية مع معاصريه من الملوك والحكام الآخرين . فقد ارتبط بعلاقة مصاهرة مع يا ريم ليم الأول ملك يمحاض بالزواج من ابنته شيبتو ، وأصبح صديقاً لحمورابي ابنه وخليفته على عرش يمحاض . وأقام علاقات صداقة مع حمورابي البابلي ودخل معه في حلف ضد عيلام وإشنونا .

وتعطي إحدى رسائل ماري المرسلة من موظف كبير إلى سيده زمري ليم صورة واضحة عن القوى السياسية التي كانت موجودة على زمن زمري ليم : «لا يوجد ملك قوي وحده . عشرة أو خمسة عشر ملكاً يتبعون حمورابي ملك بابل ، كذلك ريم سين ملك لارسا ، كذلك إبال پيل ملك إشنونا ، كذلك أموت پيل ملك قطنة ، وعشرون ملكاً يتبعون يا ريم ليم ملك يمحاض»[45] .

45 ـ Dossin, G., Les Archives épistolaires du palais de Maris, in: Syria 19 (1938), P. 117.

من الطبيعي أن يضاف زمري ليم إلى هؤلاء الملوك كملك ذي أتباع أيضاً . هذا مع العلم أن مفهوم «ملك تابع» يمكن أن يعني أيضاً أميراً أو حاكماً صغيراً أو شيخ قبيلة بدوي .

يتضح من هذه الرسالة أن يا ريم ليم الأول ملك يمحاض كان الأقوى بين ملوك عصره . وتؤكد هذه الحقيقة رسائل أخرى تظهره ملكاً قوياً له تأثير ونفوذ حتى في بلاد الرافدين .



(الشكــل 11) قصر ماري.

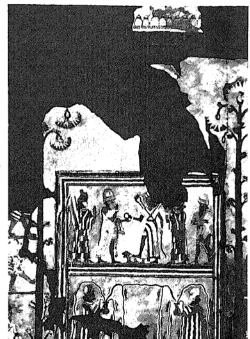
اهتم زمري ليم على الصعيد الداخلي بشؤون مملكته وبذل عناية كبيرة لتحسين شبكات الري وتوسيعها وذلك لزيادة مساحة الأراضي الصالحة للزراعة حتى لا تضطر ماري لاستيراد الحبوب من الخارج . كذلك كان مولعاً بالبناء . بالاضافة إلى بناء معابد عديدة للآلهة في مدينته فقد بنى أو أكمل بناء القصر الملكي الذي كان يعد من عجائب الدنيا في ذلك العصر ، حتى أن حاكم أوجاريت رجا زمري ليم ، عن طريق حمورابي الأول ملك يمحاض ، السماح له برؤيته .

ويعد قصر ماري الملكي من أكبر قصور الشرق القديم في الألف الثاني قبل الميلاد المكتشفة حتى الآن (**الشكــل 11**) . ويبدو أن بنائه قد بدأ قبل عهد زمري ليم الذي أكمله ووسعه بشكل ضخم . فهو يشغل مساحة قدرها هكتارين ونصف الهكتار وأكبر طول فيه 200 م وعرضه 120 م وكان يتألف من نحو 300 غرفة وباحة وقد بنيت جدرانه من اللبن على أساسات حجرية وأحيط بسور ضخم تراوحت سماكته بين 3 م في ناحيته الجنوبية الغربية حيث الادارة ، و15 م في ناحيته الشمالية الغربية حيث يقيم الملك وعائلته[46] .

كانت بعض قاعات القصر مزينة برسوم جدارية رائعة أشهرها وأكبرها ما يعرف بمشهد تنصيب زمري ليم (**الشكــل 12**) في القاعة 106 الذي يظهر فيه زمري ليم واقفاً يستلم بيده اليسرى الحلقة والصولجان رمز السلطة من الالهة عشتار التي تقف على ظهر حيوانها المقدس الأسد[47] . وعثر في القصر الملكي على العديد من التماثيل أشهرها تمثال «ربة

46 ـ انظر حول القصر الملكي في ماري :
أندريه بارو ، ماري ، ترجمة د . رباح نفاخ ، دمشق 1979 ، ص121وما يليها .

47 ـ Moortgat, A., Die Kunst des Alten Mesopotamien, Band II, Babylon und Assur, Koln 1984, S. 14.




(الشكل 13) ربة الينبوع من ماري، عثر عليها في قصر ماري وموجودة حاليا في متحف حلب. من الحجر الابيض ارتفاعها 1.50م.

(الشكل 12) "مشهد تنصيب زمري ليم ملك ماري" مقطع من لوحة جدارية

الينبوع» ، (الشكل 13) المنحوت من حجر كلسي بارتفاع 1,5 م ، الذي يمثل إلهة تسكب الماء رمز الحياة من حُقٍ تمسكه بيديها . ويعود تاريخ التمثال على ما يبدو إلى عهد زمري ليم . [48]

48 - ibid., S. 33.

كانت مملكة ماري مقسمة إلى العديد من المقاطعات يحكم كلاً منها حاكم يرسل باستمرار تقارير ورسائل إلى الملك يخبره فيها عن سير الأمور في مقاطعته ، وأشهر هؤلاء كبري داجان Kibridagan حاكم ترقا وياقّيم أدو yaqqimaddu حاكم ساجاراتوم .

إن غنى وازدهار وأهمية ماري لم تكن خافية عن أعين حكام القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وبخاصة عن أعين حمورابي ملك بابل الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة للسيطرة عليها . وعلى الرغم من علاقات الصداقة التي كانت تربطه مع زمري ليم قام ، بعد أن قضى على خصومه في بلاد بابل وسيطر على المنطقة بكاملها ، بمهاجمة ماري واحتلالها في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه (1759ق . م) ، وأمر بهدم أسوارها بعد سنتين من ذلك التاريخ ، نتيجة قيامها على ما يبدو بمحاولة للتخلص من السيطرة البابلية . أما زمري ليم فلا شيء معروف عن مصيره .

ربما كان الدافع الرئيس لاحتلال ماري وتدميرها من قبل حمورابي رغبته في أن يجعل بابل أو إحدى مدن مملكته الأخرى تحل محلها كمحطة رئيسة للمواصلات التجارية الواصلة ما بين بلاد الرافدين وسورية ، وبالتالي يجني الأرباح التي كانت تجنيها هي .

وهكذا دخلت ماري مع الزمن عالم النسيان حتى أيقظتها معاول المنقبين عام 1933فكشفت للعالم عن حضارتها الرائعة . ومما تجدر الإشارة إليه أن الحفريات في ماري تجري منذ عام 1978 بقيادة عالم الآثار الفرنسي جان مار جرون J.-cl. Margueron وهدفها الرئيس

دراسة الواقع الجغرافي والبيئوي القديم للمنطقة التي نشأت فيها ماري . كما تجري دراسات تضاريسية لموقع المدينة وعلاقتها بمجري الفرات القديم[49] .

2ـ مملكة آشـــور :

توجه شمشي أدد الأول ، بعد انتصار يجيدليم ملك ماري على والده ، إلى بلاد بابل وقاد من هناك جماعات من البدو استطاع بواسطتهم احتلال مدينة إيكالاتوم Ekallatum(القصور) الواقعة على نهر دجلة على بعد نحو 60كم جنوب آشور . ثم استولى على مدينة آشور التي كانت تحكمها منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد سلالة حمل حكامها أسماءً أكادية (پوزور آشور ، شاليم آخوم . . . إلخ) ، واستطاع أحدهم المدعو إريشوم الأول Irishum I(نحو 1900ق . م) تأسيس مستوطنات تجارية آشورية في آسية الصغرى وأشهرها كاروم كانيش (حالياً كول تيي بالقرب من قيصرية) . وقد ازدهرت تلك المستوطنات طيلة القرن التاسع عشر قبل الميلاد ولعبت دوراً أساسياً في التجارة ما بين بلاد الرافدين وآسية الصغرى . وتبين الوثائق الاقتصادية الآشورية القديمة المكتشفة في كول تيي أن التجار الآشوريين كانوا ينقلون بقوافلهم القصدير والمنسوجات من آشور إلى بلاد الأناضول ويحصلون مقابل ذلك على الفضة[50] .

وقد تمكن شمشي أدد الأول من إخضاع آشور لأنها كانت تمر بمرحلة من الضعف ولأن ملكها إريشوم الثاني كان في عمر الطفولة . ولاضفاء الشرعية على عمله ادعى أن الإله إنليل سيد البانثيون السومري هو الذي أعطاه السلطة في بلاد الرافدين وجعله ملكاً . وكشكر لهذا الإله أسس شمشي أدد معبداً له في مدينة آشور ، وسمى مدينة في أعالي بلاد الرافدين باسم شوباط إنليل أي «مسكن إنليل» ، كانت بمثابة العاصمة الثانية له . وقد بينت الحفريات الأثرية في تل ليلان بالقرب من القامشلي بقيادة الأمريكي هارفي ڤايس H.Weissأن شوباط إنليل كانت تقوم في موقع هذا التل . وكُشِفَ هناك عن معبد له قاعة مركزية أبعادها 8x18,25م تحيط بها غرف أصغر ، وعن أرشيف مؤلف من نحو ألف وأربعمئة رقيم وكسرة طينية مكتوبة بالخط المسماري وباللهجة الآشورية القديمة . وتجري حالياً دراسة هذه الرقم من قبل مختصين وستنشر قريباً .

إن معظم المعلومات المتوافرة حالياً عن عهد شمشي أدد الأول (1815-1782ق .م) مستقاة من أرشيف ماري الذي يضم نحو 129رسالة أو جزءاً من رسالة مرسلة من شمشي أدد الأول نفسه . يضاف إلى ذلك نحو مئة رسالة من ولديه يسماخ أدد (الاسم أموري ويعني : الاله أدد سمع) وإشمي داجان (الاسم أكادي ويعني : الإله داجان سمع) ، وعدد كبير من الرسائل من موظفيه ومن أمراء وحكام معاصرين .

أوكل شمشي أدد الأول إلى ابنه وولي عهده إشمي داجان أمر المقاطعات الشرقية والجنوبية الشرقية من مملكته لصد هجمات بابل وإشنونا وشعوب إيران الجبلية . كان إشمي داجان قائداً عسكرياً بارزاً حاز ثقة والده نتيجة نجاحه في الحملات العسكرية التي قام بها . يظهر ذلك من خلال رسائل عديدة من شمشي أدد الأول إلى ولده الثاني يسماخ أدد الذي كان

49 ـ انظر آخر نتائج الحفريات في ماري :
Margueron, J.-Cl., Mari, in: Contribution Francaise a L Archeologie syrienne 1969-1989, Institut Francais d archeqlogie de Proche-Orient, Centre de Damas, 1989, P. 41-49.

50 ـ توجد دراسات عديدة عن الآشوريين في الأناضول وأشهرها :
Garelli, P., Les Assyriens en Cappadoce, Paris 1963: Orlin, L.L., Assyrian Colonies in Cappadocia, Paris 1970.

مهملاً ضعيفاً ، والتي يحثه فيها على التمثل بأخيه . يقول في إحداها : «إلى متى يجب علينا أن ندللك . هل أنت صغير؟ ألست رجلاً؟ متى تستطيع أن تدير بيتك (مقاطعتك) بشكل صحيح؟ ألا ترى أخاك الذي يقود جيشاً كبيراً؟ هكذا يجب عليك أن تدير بيتك وقصرك» . ويخاطبه في رسالة أخرى قائلاً : «حقق أخوك انتصاراً على أحد القادة وتجلس أنت بين النساء . ولكن إذا ذهبت الآن مع فرقٍ من الجيش إلى قطنة كن رجلاً واصنع لنفسك اسماً كبيراً كما صنع أخوك لنفسه اسماً كبيراً»[51] .

أطلق شمشي أدد الأول على نفسه لقب «شاركيشاتيم» Shar Kishatim أي «ملك الجميع أو العالم» . وهذا اللقب يشبه اللقب المعروف سابقاً «ملك الجهات الأربع» .

كان شمشي أدد الأول يحلم بالتوسع نحو الغرب باتجاه سورية لذلك قام بعد احتلال ماري بعقد تحالفات سياسية مع كركميش (جرابلس حالياً) وخاشوم وأورشوم (ربما الرها ـ أورفة) ، وهي ممالك صغيرة كانت تقع شمال سورية على الفرات الأعلى . وقد اضطرت هذه الدويلات للتحالف مع شمشي أدد الأول ، لا بل الاعتراف بسيادته ، بسبب خوفها من قوته أو من قوة ملك يمحاض ، لأنها كانت لا تملك القوة الكافية التي تضمن بقائها مستقلة .

وقوّى شمشي أدد الأول علاقاته مع إشخي أدد ملك قطنة بتزويج ابنه يسماخ أدد حاكم ماري من ابنة هذا الملك . يقول في إحدى الرسائل لابنه : «أريد أن آخذ لك ابنة إشخي أدد . السلالة الحاكمة في قَطْنَة لها اسم كبير ، والسلالة الحاكمة في ماري لها اسم كبير (أيضاً)»[52] .

ولكن يبدو أن هذا الزواج ، الذي يمكن أن نسميه زواجاً سياسياً ، لم يكن موفقاً . وإدراكاً من شمشي أدد الأول إن الخلاف العائلي مع ملك قطنة سيؤدي حتماً إلى سوء العلاقات والتحالفات القائمة بينهما ، فإنه يخاطب يسماخ أدد في إحدى الرسائل قائلاً : «ألم يسمح الملوك السابقون لنسائهم بالعيش في القصور؟ أمّا أنت فترغب في أن تُسْكِنَ ابنة إشخي أدد في البادية ، وسيسمع والدها بالأمر وسوف لن يرتاح قلبه لذلك . وهذا لا يجوز أبداً وهناك غرف كثيرة في قصر النخيل . يجب أن تختار لها غرفة من بينها وأن يُسْمَح لها بالسكن فيها . . . . أما في البادية فلا تدعها تسكن مطلقاً» .

الأسباب التي جعلت إشخي أدد يقبل بالتحالف مع شمشي أدد غير معروفة . ولكن يُعتقد أنه كان هناك نزاع بينه وبين ملك يمحاض المجاور له من الشمال .

كانت كل تحالفات شمشي أدد الأول التي عقدها موجهة ضد دولة يمحاض التي قاومت خططه في التوسع في شمال سورية . وعلى الرغم من ادعائه في إحدى كتاباته إنه «وصل إلى شواطىء البحر وأقام نصباً في أرض لابان Laban(المعتقد أنها لبنان) على شاطىء البحر الكبير» ، فمن الثابت أن النفوذ الآشوري لم يتعد منطقة ماري على الفرات الأوسط . وربما يكون ذِكْرُ ذلك من أجل الشهرة وتشبهاً بملوك كبار قاموا بذلك في الماضي مثل شاروكين ونارام سين ويخدون ليم .

51 ـ انظر حول مراسلات شمشي أدد الأول مع ولديه :
Dossin, G., ARM IV, Correspondance de Samsi–Addu et de ses fils, Paris 1951.

52 ـ ARM I, 77.

كانت المملكة الآشورية القديمة قوية ومزدهرة وشملت كل القسم الشمالي من بلاد الرافدين ، لكن قوتها وازدهارها كانا مرتبطين بشخصية شمشي أدد الأول . فبعد وفاته عام 1782ق . م لم يستطع إشمي داجان ، ابنه وولي عهده ، المحافظة على وحدة المملكة التي أنشأها أبوه . فعاد زمري ليم إلى ماري بمساعدة ياريم ليم الأول ملك يمحاض ، بعد أن طرد يسماخ أدد الذي لم يستطع الثبات والمقاومة رغم مساعدة أخيه له ، وذلك بعد عشرين سنة من الحكم الآشوري . وقام إبال بيل الثاني ملك إشنونا بمهاجمة المملكة الآشورية من الجنوب واستطاع الاستيلاء على أجزاء منها . وخسر إشمي داجان مناطق عديدة في أعالي بلاد الرافدين ، التي إما استعادت استقلالها أو وقعت تحت سيطرة زمري ليم ملك ماري . وهكذا تقلصت المملكة الآشورية القديمة إلى دويلة صغيرة لم يعد لها دور يُذكر في الأحداث التي تجري في المنطقة .

3ـ المملكة البابلية الأولى :

كما في المدن الرافدية والسورية الأخرى تمكنت سلالة أمورية من الوصول إلى الحكم في بابل وتأسيس المملكة البابلية الأولى في بداية الألف الثاني قبل الميلاد . لم تكن بابل قبل هذا التاريخ من المراكز السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية القديمة في بلاد الرافدين ، بل كانت بلدة صغيرة عرفها السومريون باسم كا — دينجير ـ را KA.DINGIR.RA [53] ، والأكاديون باسم باب إليم Bab–ilim أي «بوابة الإله» . وقد ذكرت لأول مرة بهذا الاسم في أواخر القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد عندما بنى فيها الملك الأكادي شاركالي شاري معبداً للإلهة عشتار .

53 ـ هناك وثيقة سومرية قديمة تذكرها باسم بابيلّو Babillu . ربما يكون هذا الاسم أقدم من الاسم السومري كا ـ دينجير ـ را ، ويحمل بالتالي معنى آخر غير «بوابة الإله» .

وتحول اسم باب إليم إلى بابل في التوراة وبابيلون Babylon عند الاغريق . إن تاريخ بابل الحقيقي يبدأ مع تأسيس السلالة البابلية الأولى على يد الأمير الأموري سومو أبوم Sumuabum (1894–1881ق . م) الذي ما أن وطد سلطته حتى بدأ ببناء أسوار لمدينة بابل ، واستطاع في سنة حكمه الرابعة عشرة أن يوسع المنطقة التي يسيطر عليها ، فاحتل ديلبات Dilbat (حالياً تل الديلم على بعد 22كم جنوب الحلة) الواقعة إلى الجنوب وأحاطها بسور للدفاع عنها ، وكسب بعض النفوذ في كيش وسيبار ، ودمر مدينة كازالو Kazallu (تقع شرق نهر دجلة بالقرب من «كوت الحي») . وتذكر تواريخ سنوات حكمه قيامه بتشييد معابد ليس فقط لمردوك Marduk ، ولكن أيضاً لـ نين إنسينا «سيدة إسين» ولـ نانا إله القمر .

يُعدُّ سومو لا إل Sumulael (1880–1845ق . م) خليفة سومو أبوم باني بابل الحقيقي . فقد أتم بناء السور الكبير للمدينة وأشاد أبنية للعبادة ، وقام بحملات عسكرية عديدة وسع من خلالها منطقة نفوذ بابل ، فاحتل سيبار وكيش وبارسيبا Barsippa وديلبات .

رأى سين إدِّينام ملك لارسا في هذا خطراً يهدد مملكته فقام في سنة حكم سومولاإل الرابعة والثلاثين بحرب ضد هذا وهزمه ، فأوقف بذلك تعاظم قوة بابل لفترة من الزمن .

خلف سابيئوم Sabium أباه سومو لا إل على عرش بابل (1844-1831ق . م) ، وكان قد مارس الحكم في سيپار كولي للعهد في حياة أبيه . ويبدو أنه حقق انتصاراً على لارسا بعد أن أصبح ملكاً ، كما يذكر أحد تواريخ سنوات حكمه .

لم يستطع سابيئوم أن يمارس سياسة خارجية نشطة بسبب ظهور شخصيات قوية على عهده في بلاد الرافدين مثل كودور مبوك الذي استولى على لارسا ونصب ابنه وارادسين ملكاً على عرشها . كذلك كانت قوة إشنونا الواقعة في منطقة ديالي في صعود ، ووصل نفوذها حتى رابيقوم على الفرات (نحو 60كم شمال غرب سيپار) ، وسيطرت على عهد ملكها نارام سين على آشور لفترة قصيرة .

قام سابيئوم على الصعيد الداخلي ببناء معبد الاله مردوك المشهور في بابل واسمه إزانجيلا Esangila، وبنى ورمم معابد أخرى أيضاً . اعتلى عرش بابل بعد سابيئوم ابنه أپيل سين (1830-1813ق . م) (الاسم أكادي ويعني : الابن الوريث للاله سين) ، الذي شمل بسلطته جزءاًكبيراً من شمال بلاد بابل . وتذكر تواريخ سنوات حكمه بنائه أسواراً في العديد من المدن . ويُعتقد أن منطقة نفوذه شملت مدن كيش وديلبات وبارسيپا وسيپار . خلال عهده الذي تميز بالهدوء والحذر جلس على عرش لارسا ملك قوي هو ريم سين الابن الثاني لكودور مبوك ، واستولى شمشي أدد الأول على الحكم في آشور قبل وفاته بوقت قصير .

استلم الحكم بعد أپيل سين سين موباليط Sinmubalit(1812-1793ق . م) الذي كان يحمل كسلفه اسماً أكادياً (الاسم يعني : الاله سين مُبْقِي على الحياة) . وهذا يدل على سرعة تمثل الأموريين للحضارة الرافدية بعد دخولهم بلاد الرافدين واندماجهم مع السكان المحليين .

عاصر سين موباليط ملكين كبيرين سيطرا على شمال بلاد الرافدين وجنوبها ، وهما شمشي أدد الأول ملك آشور وريم سين ملك لارسا . ويبدو أنه توصل إلى عقد علاقات صداقة مع شمشي أدد الأول الذي أخضع إشنونا وماري ، بينما اتسمت علاقاته مع ريم سين بالسوء وقام بحملة ضده في سنة حكمه الثالثة ، بالتحالف مع حكام رابيقوم وأور وإسين ، لكنه مني بالهزيمة . وقد اتخذ عظة من ذلك وقضى بعدها وقتاً طويلاً في تحصين دولته وتقويتها .

وتتحدث تواريخ سنوات حكمه عن قيامه ببناء قلاع كثيرة ، وبخاصة في الشمال ، وببناء معابد وأسوار مدن وحفر أقنية وإقامة سدود . وقد برهنت الأحداث التالية أن سين موباليط كان رجلاًذا نظرة بعيدة ، وتعلم منه ابنه حمورابي الشيء الكثير .

بابل على عهد حمورابي[54] :

بلغت بابل على عهد حمورابي (1792-1750ق . م) أوج قوتها ومجدها وازدهارها . وقد تمكن حمورابي تحقيق ذلك باتباعه سياسة حذرة قوامها المسالمة والتحالف مع قوى عصره الكبرى ، فاستطاع بذلك بناء دولة قوية مترامية الأطراف . فقد كان هناك شمشي أدد الأول ملك آشور وريم سين ملك لارسا .

54 ـ انظر حول عصر حمورابي .
Klengel, H., Hammurapi von Babylon and seine Zeit, Berlin 1978.

اتصفت علاقات حمورابي مع شمشي أدد بالسلمية وأحياناً بنوع من التبعية . في هذا الجو اتبع حمورابي سياسة الانتظار والترقب . فتواريخ سنوات حكمه الأولى لا تذكر أية عمليات عسكرية ولا حتى إجراءات تحصين ، بل سميت حسب أعمال بناء دينية أو غيرها . كذلك صرف حمورابي اهتمامه إلى الوضع الاقتصادي والاجتماعي .

يذكر تاريخ سنة حكمه السابعة نصراً له على أوروك وإسين . وقام في سنة حكمه الثامنة بحملة على منطقة يموت بعل التي كانت تتبع ريم سين ملك لارسا . ويبدو أن حمورابي قام بهذه الأعمال العسكرية بتشجيع ودعم من شمشي أدد الأول ملك آشور . وتذكر تواريخ سنوات حكمه العاشرة والحادية عشرة انتصاره على مالجوم Malgum (على نهر دجلة جنوب مصب نهر ديالي في دجلة) ورابيقوم (على الفرات بين بابل وماري) اللتين كانتا تخضعان لنفوذ إشنونا .

توفي شمشي أدد الأول بعد سنة حكم حمورابي العاشرة ، وكان هذا نقطة تحول سياسية جديدة في حياة العاهل البابلي . إذ وجب عليه بعد ذلك التاريخ أن يحسن علاقاته مع ريم سين ملك لارسا ومع إشنونا ، وأن يحافظ في نفس الوقت على علاقات جيدة مع آشور .

بعد عودة زمري ليم إلى ماري أقام حمورابي معه علاقات قوية ودخلا معاً في تحالف ضد إشنونا وعيلام . وقد دعمت مملكة يمحاض هذا التحالف بإرسال فرق عسكرية إلى بلاد الرافدين ، استخدمها حمورابي ، إلى جانب قواته وقوات زمري ليم ، في هزيمة عيلام .

كانت علاقات حمورابي مع ريم سين ملك لارسا جيدة أحياناً ، وتذكر رسالة من أرشيف ماري أن ريم سين عرض مرة على حمورابي إقامة جلف دفاعي بينهما ، موجهاً على ما يبدو ضد إشنونا وعيلام . لكن حمورابي رفض ذلك لأنه كان ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليه فهاجمه في سنة حكمه الحادية والثلاثين (1763ق .م) وضم مملكته إليه . واحتل ودمر إشنونا في السنة التالية . وقام في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه باحتلال ماري ، وهدم أسوارها بعد سنتين من ذلك التاريخ بسبب ثورتها ضده على ما يبدو .

أما آشور فقد ضعفت كثيراً على عهد إشمي داجان خليفة شمشي أدد الأول وتحولت إلى مملكة صغيرة خضعت أيضاً لنفوذ حمورابي . وهكذا استطاع حمورابي في أواخر سنوات حكمه الذي دام نحو 43عاماً توحيد كل بلاد الرافدين تقريباً في دولة مركزية واحدة يسيطر فيها القصر على المجالات الاقتصادية والسياسية والادارية والقضائية وغيرها . ويساعده في إدارتها عدد من الحكام والموظفين الكبار أشهرهم أويل نينورتا awelninurtaالوزير وسين إدِّينام حاكم سيپار وشماش خاصير حاكم لارسا . وتظهر رسائل حمورابي إلى هؤلاء مقدرته الادارية الكبيرة في تنظيم شؤون البلاد .

إن شهرة حمورابي التاريخية تأتي من كونه مشرعاً قام بجمع القوانين المختلفة السابقة وأصدرها في مجموعة واحدة تعرف حالياً باسم قانون أو قوانين حمورابي . ويُعتقد أن ذلك تم

في السنة الرابعة والثلاثين من حكمه ، أي في أواخر عهده ، لذلك لا يرد ذكرها في تواريخ سنوات حكمه . وسنتناول هذا القانون بشيء من التفصيل بعد الحديث عن خلفاء حمورابي وسقوط المملكة البابلية الأولى .

خلفاء حمورابي وسقوط المملكة البابلية الأولى :

كانت مملكة حمورابي كبيرة ومهددة بالأخطار من الداخل والخارج ، لذلك قام سمسو إلونا Samsuiluna (1749-1712ق . م) (الاسم أموري ويعني الشمس إلهنا) ابن حمورابي وخليفته بالدفاع عن المملكة ضد خطرين كبيرين هما التمردات في جنوب بلاد بابل الذي كان يشكل قاعدة اقتصادية هامة للدولة البابلية ، والكاشيون الذين أخذوا يدخلون إلى بلاد الرافدين بأعداد كبيرة قادمين من جهة الشرق . قاد سمسو إلونا حملات عديدة على مدن الجنوب البابلي للقضاء على التمردات التي نشبت هناك ، ولكنه لم يتمكن من إخضاع هذه المنطقة بشكل نهائي لسيطرته ، وتأسست هناك سلالة حاكمة هي «سلالة بلاد البحر» (سميت كذلك لأن المنطقة قريبة من الخليج العربي وتكثر فيها المجاري المائية والمستنقعات) اعتباراً من سنة حكمه الثامنة والعشرين . وكان قد بنى في سنة حكمه الرابعة والعشرين قلعة دفاعية عند مصب نهر ديالي في دجلة سمّاها «دور سمسو إلونا» أي «قلعة سمسو إلونا» ، والتي ساهمت في الدفاع عن المملكة ضد الأخطار القادمة من الشرق .

تابع أبي إشوخ Abieshuch(1711-1684ق . م) خليفة سمسو إلونا الكفاح ضد الكاشيين الذين كبر نفوذهم وتعاظم . وتأسست في منطقة الفرات الأوسط سلالة حاكمة تدعى سلالة خانا ، وكان أحد أمرائها يحمل اسماً كاشياً . بناءً على ذلك يمكن القول أن مجموعات كاشية استوطنت هذه المنطقة أيضاً .

وهكذا أخذت مملكة حمورابي بالانقسام والتفتت بدءاً من المناطق الجنوبية والشمالية البعيدة عن العاصمة . وقد استمرت هذه العملية في عهد الملوك اللاحقين عمي ديتانا Ammiditana (1647 - 1683ق . م) وعمي صدوقا Ammisaduqa(1646-1626ق . م) (الاسم أموري ويعني عمي صادق أو الإله عم صادق) وسمسو ديتانا Samsuditana(1625-1595ق . م) .

اكتسب عمّي صدوقا شهرة من خلال المرسوم الذي أصدره في سنة حكمه الأولى والذي يتضمن العديد من الاجراءات القانونية التي تمس الحياة الاقتصادية ، ومنها إلغاء الديون الخاصة من الفضة والحبوب الناجمة عن قروض ، وإلغاء بقايا الضرائب المتبقية للقصر على موظفين محددين .

عُلِلّت سلسلة الاجراءات هذه بعبارة : «لأن الملك خلق للبلاد نظاماً عادلاً» . كان الهدف من هذه الاجراءات حماية قطاعات كبيرة من الشعب من الغرق في الديون ، ومنع تجمع الثروات في أيدي فئة قليلة من الناس .

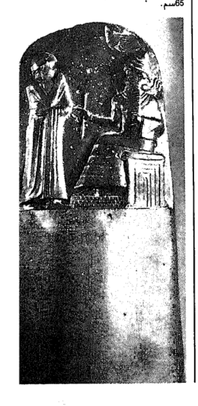
سقطت بابل عام 1595ق . م بيد الحثيين بقيادة ملكهم مورشيلي الأول ، فانتهت بذلك الفترة المسماة بالعصر البابلي القديم أو عصر السلالة البابلية الأولى . إن الأسباب التي دفعت

مورشيلي الأول للسير إلى بابل البعيدة عن بلاده غير معروفة . ولكن يبدو إن غنى هذه المنطقة وشهرتها كان الدافع الأساسي للسير اليها ونهب كنوزها . بعد انسحاب الحثيين من بابل سيطر الكاشيون على الحكم وبدأت بالتالي مرحلة جديدة من تاريخ بلاد بابل .

قانون حمـــورابـــي :

لفتت مجموعة من الرقم الطينية المكتشفة في مكتبة آشور بانيبال في نينوى أنظار العلماء اليها في أواخر القرن التاسع عشر . وبعد دراستها تبين أنها تنتمي إلى قانون يرقى تاريخه إلى عهد حمورابي ملك بابل . وبناءً على ذلك ساد الاعتقاد أنه كان يوجد على عهد حمورابي مجموعة قانونية . وجاء البرهان على ذلك بعد فترة قصيرة من الزمن . فقد عثر آثاريون فرنسيون بقيادة دو مورغان J.de Morgan كانوا ينقبون في سوزة العاصمة العيلامية ما بين كانون الأول عام 1901 وكانون الثاني عام 1902 على ثلاث قطع كبيرة من الديوريت الأسود . وتبين من جمع هذه القطع إلى بعضها بعضاً أنها تشكل نصبا واحدا هو نصب حمورابي . وهو نصب اسطواني الشكل قمته هلالية يبلغ ارتفاعه 2,25م ومحيطه عند القاعدة 1,90م . ونُحت بشكل بارز على قسمها العلوي مشهد يظهر فيه حمورابي واقفاً أمام شماش إله الشمس الجالس على عرشه يتسلم منه الخاتم والصولجان رمز السلطة والسيادة (**الشكـــل 14**) . ونقشت أسفل المشهد كتابة مسمارية في أعمدة قام بدراستها لغوي البعثة الأثرية الفرنسية شيل V.Scheil وتبين له أنها تمثل قانون حمورابي الذي كُتب باللغة الأكادية (اللهجة البابلية القديمة) .

(الشكـل 14) نصب قـانـون حمورابي. ارتفاع الجزء المنحوت منه 65سم.



ويعود السبب في وجود النصب في سوزة إلى قيام الملك العيلامي شوتروك ناخونتي عام 1170ق . م بالاغارة على بلاد بابل ونقل كثير من كنوزها وأنصابها وتماثيلها إلى بلاده ، ومن بينها نصب حمورابي ونصب النصر لنارام سين . وقد طمس العيلاميون الأعمدة السفلية السبعة من الوجه الأمامي للنصب لتخليد أعمال ملكهم مكانها ، لكن ذلك لم يحدث لأسباب مجهولة . ويوجد نصب حمورابي حالياً في متحف اللوفر في باريس .

قام شيل الذي نشر القانون لأول مرة عام 1902 بتقسيمه إلى 282 مادة معتمداً في ذلك على المقاطع المبدوءة بـ شومّا Shumma : إذا . ويتألف قانون حمورابي بمجمله من ثلاثة أقسام هي مقدمة ومواد قانونية وخاتمة . وهذا التقسيم ليس جديداً إذ نجده في قوانين سابقة مثل قانون أورنامو وقانون ليبيت عشتار . ولكن تتميز المقدمة عند حمورابي بالطول (نحو 303 أسطر) وكُتبت بلغة شعرية ، وتتحدث عن أعمال حمورابي المختلفة في جميع المدن التي أخضعها لسلطته وتُعظم آلهة تلك المدن ، وتؤكد أن الآلهة اختارت حمورابي ليحقق العدل في البلاد . ويذكر حمورابي فيها أن السلطة هبة إلهية حيث يقول : «عندما حدد أنو العظيم ملك الأنو ناكو ، وإنليل سيد السماء والأرض ومقرر مصير البلاد ، لمردوك الابن الأول لـ إيا ، العزة الإلهية فوق كل البشر ، وجعلوه كبيراً بين الـ إجيجو Igigu ، وسموا بابل باسمه العظيم وجعلوها بارزة في أنحاء العالم ، ، وأقاموا له فيها ملكاً أبدياً قواعده (ثابتة) كقواعد السماء والأرض . في ذلك الزمن أنا حمورابي الأمير الورع عابد الآلهة ، (من أجل) العدل في البلاد جعلوني مرئياً ظاهراً

لأمحق السيء والمفسد ، ولكي لا يؤذي القوي الضعيف ، ولأشرق كشماش على ذوي الرؤوس السوداء ، ولأنير البلاد . أنو وإنليل نادوا باسمي من أجل سعادة الناس» [55] .

[55] - قمت بترجمة هذا المقطع وما يليه من قانون حمورابي من اللغة الأكادية مباشرة .

أما الخاتمة فقد كتبت بنفس السلوب الذي كتبت به المقدمة ، ويذكر حمورابي فيها أعماله ويرجو من الآلهة المختلفة أن تعاقب كل من لا يعمل بقانونه ، أو يحاول محو اسمه عنه ليكتب اسمه مكانه . ويؤكد أن هدفه من وضع القانون إحقاق الحق وتطبيق العدالة فيقول : «هذه هي أحكام العدالة التي وضعها حمورابي الملك المقدس فأوجد (بذلك) تقاليد ثابتة للبلاد وقيادة جيدة . كي لا يظلم القوي الضعيف ولمساعدة اليتيم والأرملة (في الوصول) إلى حقهم في بابل المدينة التي رفع أنو وإنليل رأسها في إيزانجيلا المعبد الذي جذوره ثابتة كما السماء والأرض . لخلق قانون للبلاد ولتقرير مصير البلاد ولاحقاق الحق للمظلومين كتبت كلماتي القيِّمة على مسلتي ونصبتها أمام تمثالي (المسمى) «ملك العدالة» .

من الجدير بالذكر أن حمورابي لم يبتكر القواعد والأسس القانونية التي وردت في قانونه ، وإنما استقى الكثير منها من الشرائع والقوانين التي وجدت في بلاد الرافدين قبله ، مثل شريعة أورنامو وشريعة ليپيت عشتار وشريعة إشنونا ، وطورها بحيث تتناسب مع الظروف والأحوال التي وصل إليها المجتمع البابلي على عهده . ولكن الميزة الأساسية التي يتميز بها قانون حمورابي عن القوانين السابقة هي أنه يقوم على مبدأ «العين بالعين والسن بالسن» ويفرض العقوبات الجسدية القاسية بحق مرتكبي الجرائم المختلفة . بينما تستعيض القوانين السابقة بالعقوبات والتعويضات المادية بدلاً عن ذلك .

يتناول القانون مختلف نواحي الحياة من اقتصادية واجتماعية ، فهو ينظم أمور الزراعة والحرف والتجارة والأسرة والزواج والتبني والارث والقضاء وغيره . ويمكن تقسيم مواد القانون ، حسب المواضيع التي يعالجها ، إلى ثلاثة عشر قسماً هي :

1- المواد 1-5تتعلق بالقضاء والشهود .
2- المواد 6-25تتعلق بالاعتداء على الملكية .
3- المواد 26-41تبحث في أمور العساكر واقطاعاتهم من الأراضي
4- المواد 42-66تبحث في شؤون الزراعة والحقول والبيوت .
(المواد 67-87مطموسة أو مشوهة) .
5- المواد 88-107وتتعلق بالقروض ونسبة الفائدة والتجارة .
6- المواد 108-111تتعلق بساقية الخمر .
7- المواد 112-126 تبحث في الايداع والدين .
8- المواد 127-194وتبحث في شؤون الأسرة من زواج وطلاق وإرث وتبني وتربية وما إلى ذلك .
9- المواد 195-214تتعلق بالعقوبات والغرامات عن الأضرار التي تحدث نتيجة شجار الناس بعضهم مع بعض .
10- المواد 215-227وتبحث في أمور الطب والطب البيطري والوسم .
11- المواد 228-240تتعلق بالأسعار وتحديد أجور بناء البيوت والقوارب والصناع والرعاة .

12- المواد 241–277تحدد أجور الحيوانات والأجراء .

13- المواد 278–282تعالج موضوع شراء العبيد وعلاقتهم بأسيادهم .

ومما تجدر الاشارة إليه أن مواد قانون حمورابي كُتبت أولاً على ألواح طينية لاستخدامها من قبل القضاة في المدن البابلية المختلفة . ونُقِشَت فيها بعد على مسلات ونصب عُرضت في الساحات العامة في المدن لاتاحة الفرصة لمن يستطع القراءة الاطلاع عليها . وأحد هذه النصب أقيم في سيبار ، وهو الوحيد المعروف حالياً .

الحياة الاجتماعية:

يذكر قانون حمورابي ثلاث طبقات اجتماعية في المجتمع البابلي ويميز بينها في الحقوق والواجبات وهي :

1- الطبقة الأولى وهي طبقة الأحرار ويسمى الفرد منها أويلوم awilum . ويتمتع أفرادها بامتيازات كبيرة في الدولة والمجتمع . ويمكن تمييز فئات عديدة بين صفوفها ، فهناك رجال البلاط والموظفون الكبار وحكام الولايات والفلاحون والتجار والصناع وغيرهم .

2- الطبقة الثانية وهي طبقة الموشكينوم Mushkenumوهي الطبقة الوسطى في المجتمع . تعني كلمة موشكينوم الأكادية حرفياً «الذي ينحني إلى الأرض» . وقد جرت نقاشات طويلة بين العلماء حول معناها وما المقصود بها . ولكن لم يُتَوصل بعد إلى رأي موحد . وترد هذه التسمية في نصوص تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وفي نصوص كتبت بعد العصر البابلي القديم . لذلك يختلف معناها باختلاف العصر . ولكن ماذا كانت تعني في العصر البابلي القديم ، وبالتحديد في قانون حمورابي؟

لقد تشكل رأيان حول معنى موشكينوم . الرأي الأول يقول أن أفراد الموشكينوم هم من أتباع القصر الذين كانوا يعيشون على أرض الملك ويقدمون مقابل ذلك خدمات . بينما يرى الرأي الثاني أنهم الرعية بشكل عام الذين لا ينتمون إلى دائرة الحاكم الضيقة ، أي إلى النخبة . وربما كان تعبير موشكينوم لا يشير إلى طبقة اجتماعية بحد ذاتها؟ ويحاول البعض الربط ما بين كلمة موشكينوم الأكادية وكلمة مسكين العربية .

مهما يكن من أمر يميز قانون حمورابي في العقوبات المفروضة بين الرجل الحر (أويلوم) والموشكينوم ، مما يدل على أن الأويلوم كان يتمتع بحقوق وامتيازات أكبر من الموشكينوم الذي كان أفضل حالاً من العبد .

3- الطبقة الثالثة هي طبقة العبيد (عبد : واردوم wardum) . وهي أحط طبقة في المجتمع البابلي . كان يمكن الحصول على العبيد عن طريق الشراء وعن طريق الحروب ، فأسرى الحروب كانوا يباعون كعبيد . كذلك كان المدين الذي لا يستطيع سداد دينه يتحول إلى عبد .

غير أن قانون حمورابي أعطى العبد بعض الحرية فسمح له بالزواج من حرة ، وعد الأولاد الناتجين عن هذا الزواج أحراراً (المادة 175) : «إذا تزوج عبد القصر أو عبد موشكينوم

إبنة إنسان (حر) ووُلدت أولاداً ، فإن صاحب العبد لا يحق له أن يدَّعي العبودية على أولاد ابنة الانسان (الحر) [56] .

أما إذا تزوج حر من أمة وولدت له أولاداً واعترف ببنوتهم في حياته فيصبحون أحراراً ويحق لهم أن يرثوا أباهم (المادة 170) . أما إذا لم يعترف ببنوتهم في حياته فإنهم يصبحون أحراراً مع أمهم بعد وفاته (المادة 171أ) .

كان هناك عدة أنواع من العبيد : عبيد القصر وعبيد المعابد والعبيد الذين يعملون في خدمة الأفراد .

بالنسبة للأسرة فقد أولاها حمورابي عناية كبيرة في قانونه إذ خصها بثمان وستين مادة (128-195) عالجت قضايا الزواج والطلاق والتبني والارث وغير ذلك . فالزوجة لا تعد شرعية إذا لم يكن هناك عقد مكتوب (المادة 128) : «إذا تزوج رجل إمرأة ولم يعقد عقدها فإن هذه المرأة لا تعد زوجة» .

والطلاق كان ممكناً للزوج وللزوجة ، ولكن ضمن شروط معينة . فالرجل يستطيع أن يطلق زوجته إذا كانت عاقراً ، أو إذا أصيبت بمرض عضال ، أو إذا كانت مهملة لبيتها (المواد 138-141 ، 148 ، 149) . أما الزوجة فكان يمكنها طلب الطلاق إذا أثبتت إهمال زوجها لها (المادة 142) : «إذا كرهت امرأة زوجها وقالت له لا تضاجعني فإن قضيتها تُبحث في الدائرة المحلية التابعة لها . فإذا كانت شريفة ولم ترتكب ذنباً ، وزوجها يخرج من البيت ويهملها كثيراً ، فإن هذه المرأة بريئة ويمكنها أن تأخذ بائنتها وتذهب إلى بيت أبيها» .

كان التبني ممكناً وخصص له حمورابي العديد من مواد قانونه (185-193) .

الحيـــاة الاقتصاديـــة :

اهتم حمورابي بوضع الأسس والمبادىء القانونية التي تساعد على نمو وازدهار الحياة الاقتصادية في مملكته . بالنسبة للزراعة فقد كانت هناك الأراضي التابعة للقصر ، وتعطى لأفراد لاستثمارها شريطة أن يشاركوا في حملات الملك العسكرية عند الطلب ، وإذا تخلف أحدهم تكون عقوبته الموت (المادة 26) : «إذا أُمِرَ ريدوم أو بائيروم (صنفان من العساكر) بالذهاب في حملة الملك (العسكرية) ولم يذهب أو استأجر أجيراً وأرسله بديلاً عنه (فإن) هذا الريدوم أو البائيروم يُقتل . ويأخذ الشخص الذي استأجره بيته» .

وتعالج المواد 27-41القضايا المختلفة الناجمة عن هذه الطريقة في إقطاع الأراضي .

وهناك مواد أخرى عديدة تتحدث عن شروط تأجير الحدائق والحقول وتحدد عقوبات التقصير والاهمال (المواد 42-56) . كذلك فإن عملية استئجار العمال الزراعيين والرعاة والحيوانات المستخدمة في الحراثة ودرس المحصول أو نقله قد نظمت من خلال العديد من المواد (257-258 ، 263 ، 267-270 ، 273) .

56 ـ قمت بترجمة هذه المادة والمواد الأخرى الواردة عن النص الأصلي المكتوب باللغة الأكادية .

بالاضافة إلى أراضي القصر التي لا يجوز بيعها أو توريثها أو مبادلتها مع أراضٍ أخرى ، كانت هناك أراضي المعابد ، وأراضٍ ملكية خاصة يحق لأصحابها بيعها أو رهنها أو توريثها .

بالنسبة للحرف يشير قانون حمورابي في العديد من مواده إلى الحرف والمهن المختلفة . فالمادة 274 تحدد الأجور اليومية لأصحاب حرفٍ مختلفة مثل النساج والحداد والنجار وصانع الأقواس وغيرهم . ومما تجدر الاشارة إليه أنه كانت توجد في بلاد بابل ورشات صناعية ملحقة بالمعابد والقصور لتلبية احتياجات الملك وأسرته والكهنة من المصنوعات المختلفة .

بالاضافة للزراعة والحرف اهتم حمورابي أيضاً بتنظيم التجارة وتحديد الأسس الواجب اتباعها في عقد الصفقات التجارية . فكل عملية تجارية يجب أن تكون موثقة بعقد وشهود . كان التاجر يدعى تمكاروم ، ورئيس التجار وكيل تمكاري . وكان يوجد إلى جانبهم الـ شمالوم الذي كان بمثابة تاجر صغير متجول ينتقل من مكان إلى آخر لعقد الصفقات التجارية (المواد 100-107) . مارس التمكاروم عملية الاقراض العيني والنقدي . وقد حدد حمورابي سعر الفائدة بـ 33,3 لقروض الحبوب و20% للقروض النقدية (المادة 88) [57] .

ومما سهل العمليات التجارية وجود طرق تجارية برية ونهرية تربط بين المناطق المختلفة . وتتحدث بعض مواد قانون حمورابي عن الملاحة النهرية وبناء السفن (المواد 234-240، 276-277) ، مما يدل على أهمية المواصلات المائية .

57 ـ انظر دراستنا عن «التاجر ونشاطاته في العصر البابلي القديم» في مجلة دراسات تاريخية ، العددان 23و24 ، أيلول ـ كانون أول 1986 ، ص 138-157 .

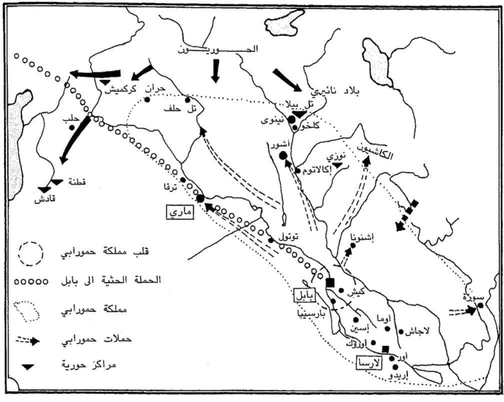
الحياة الفكرية في عهد المملكة البابلية الأولى :

ازدهرت الحياة الفكرية على عهد المملكة البابلية الأولى . وقد تمثل ذلك الازدهار في نحت الكثير من التماثيل وعروش الآلهة والمسلات والأنصاب والأختام الاسطوانية وفي تطور العلوم والآداب .

انصب اهتمام الكتاب على العناية باللغة الأكادية التي سادت وانتشرت في بلاد الرافدين وخارجها فكتب بها قانون حمورابي ومئات من الوثائق الادارية والاقتصادية المختلفة . وسُطرت بها الكثير من الأعمال الأدبية السومرية والأكادية القديمة مثل أسطورة جلجاميش وأسطورة خلق الكون (إنوما إيليش : عندما في الأعلى) وتراتيل وترانيم إلهية . وهناك أعمال أدبية قديمة معروفة فقط من خلال النسخ أو الترجمات الموجودة من العصر البابلي القديم .

ولكن على الرغم من سيادة اللغة الأكادية وانتشارها فلم تُهمل اللغة السومرية وحاول بعض الملوك تدوين كتاباتهم بها ، فنشأ بذلك أدب مزدوج اللغة . وتوجد إلى جانب النصوص الأدبية بلغتين (Bilingue) سلسلة من الكتابات الملكية لحمورابي وسمسو إلونا كتبت على ألواح منفصلة بالسومرية والأكادية . ووضعت قوائم ثنائية اللغة بأسماء حيوانات ونباتات وأحجار وآلهة .

على الصعيد الديني أصبح مردوك الإله الرئيس للمملكة البابلية القديمة . وتشير مقدمة قانون حمورابي إلى ذلك بوضوح حيث تذكر أن الآلهة إنليل وإيا أوكلا إليه حكم العالم . فصعوده إلى إله رئيس ارتبط بصعود بابل إلى عاصمة لمملكة كبيرة . وقد بني له فيها معبد



مملكة حمورابي البابلي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد)

ضخم لعبادته هو معبد إزانجيلا . ويبدو أنه وصل إلى تلك المكانة الكبيرة في بابل في أواخر عهد حمورابي أو بعده . ويعزى إلى تلك الفترة نشوء اسطورة الخلق البابلية (إنوما إيليش) التي سُطرت على سبعة ألواح طينية ، ويظهر مردوك فيها شخصية رئيسة انتصر على الفوضى المتمثلة بـ تيامات ثم خلق الكون . وقد منحته الآلهة نتيجة لذلك السلطة الإلهية عليها ، وأعطته «ألواح القضاء» . ويعدد الجزء الأخير من الأسطورة الأسماء الخمسين الفخرية لمردوك التي تظهره الإله الأعلى والأكبر بين الآلهة . وهذه الصورة هي انعكاس للوضع السياسي القائم الذي تبرز فيه بابل سيدة على المدن الرافدية .

من الالهة الاخرى شماش إله الشمس الذي يظهر على نصب حمورابي وهو إله العدالة والحق، وكان له معبد في بابل باسم "بيت قاضي البلاد". أما مركز عبادته الرئيس فكان مدينة سيبار. ورمزه في بلاد بابل قرص الشمس مع نجمة رباعية منكسرة الخطوط تخرج منها أشعة، أما في بلاد آشور فرمزه قرص الشمس المجنح .



الفصل العاشر

بلاد بابل في عهد الكاشيين

احتل الحثيون بابل عام 1595ق . م وقضوا بذلك على المملكة البابلية الأولى . إن هذا الحدث ليس ذا أهمية كبرى بحد ذاته ، فقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف السلالة الحاكمة في ذلك الوقت ، ولتعرض المنطقة لأخطار داخلية وخارجية مختلفة . لكنه كان بداية لمرحلة جديدة في تاريخ بابل . فالحثيون لم يبقوا فترة طويلة في بابل بل انسحبوا منها مخلفين ورائهم فراغاً سياسياً شغله الكاشيون الذين استولوا على السلطة هناك .

فمن هم هؤلاء الكاشيون؟

الكاشيون Kassites(بالأكادية كاشو Kashshu) مجموعات هندو أوروبية ظهرت في بلاد الرافدين قبل سقوط بابل بيد الحثيين بوقت طويل . ويسود الاعتقاد أنهم هاجروا إلى هناك من مناطق جبال زاغروس الجبلية الشرقية خلال القرون الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد . وكان الدافع الرئيس لهجرتهم غنى بلاد الرافدين وتوفر فرص العمل فيها ، وبخاصة في المجال الزراعي . كانت هذه الجماعات الجبلية تقيم قبل هجرتها إلى بلاد الرافدين في منطقة جبال لورستان الحالية . ولكن بقايا اللغة الكاشية المعروفة (خاصة أسماء الأعلام) تشير إلى أن الموطن الأصلي لهذه القبائل كان منطقة القوقاز .

ترقى أولى الدلائل على وجود الكاشيين في بلاد بابل إلى عهد الملك سمسو إلونا (1749-1712ق . م) الذي سمى السنة التاسعة من حكمه بسنة الجيش الكاشي . من المؤكد أن هذه الاشارة تدل على انتصار الملك البابلي على الكاشيين في إحدى المعارك . ويمكن الاستنتاج من خلالها أن الكاشيين بلغوا في تلك الفترة درجة كبيرة من القوة جعلت سمسو إلونا يفتخر بالانتصار عليهم . كذلك نرى وضعاً مشابهاً عند أبي إشوخ (1711-1684ق . م) خليفة سمسو إلونا الذي يؤرخ إحدى سنوات حكمه بهزيمته للجيش الكاشي .

يبدو أن الكاشيين أخذوا بعد ذلك بالدخول إلى بلاد بابل عن طريق الهجرة السلمية . فتذكر النصوص الاقتصادية البابلية أعداداً كبيرة منهم يعملون في جني المحاصيل . وتذكر وثيقة اقتصادية من تِرقا مركز مملكة خانا على الفرات الأوسط أن أحد ملوك هذه المنطقة هو كاشتيلياشو Kashtiliashu . وبما أن هذه الاسم كاشي يمكن الاعتقاد أن مجموعات كاشية استقرت في هذه المنطقة أيضاً .

يبدو أن الكاشيين توصلوا إلى مناصب هامة في بابل (موظفين عسكريين وخبراء في تربية الخيول) على عهد سمسو ديتانا (1625-1595ق .م) آخر ملك من السلالة البابلية الأولى . وعندما هاجم الملك الحثي مورشيلي الأول بابل ساعده الكاشيون في احتلالها ، وتسلموا السلطة فيها بعد انسحابه .

تذكر المعلومات المتوافرة من أواخر ايام السلالة البابلية الأولى المدعو أجوم Agumالذي استقبل رُسُل ملك حلب إلى ملك بابل . يبدو أن هذا الرجل كان شخصية هامة من خلال اللقب الذي أطلقه على نفسه وهو بوكاشوم bukashum : أمير . وعلاقته مع ملك حلب ، التي كانت في تلك الفترة تحت النفوذ الحثي ، هي برهان آخر على الصلات التي كانت قائمة بين المجموعات الكاشية في بابل والحثيين .

حكم الكاشيون بلاد بابل منذ بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد وحتى منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد عندما قضى عليهم العيلاميون ، وكان أول ملوكهم (في بداية القرن 15ق .م) أجوم الثاني (بالكاشية Agum Kakrine) . ولكن تذكر قائمة الملوك البابلية عدة ملوك سبقوا هذا إلى الحكم وأولهم جانداش Gandashالذي كان معاصراً لسمسو إلونا ، ثم تلاه ملوك عدة عرفت أسماؤهم فقط . من المعتقد أن جانداش وخلفائه أحرزوا بعض القوة والنفوذ في مناطق معينة حتى قبل سقوط بابل بيد الحثيين . ولكن لا تتوفر معلومات عنهم .

يذكر أجوم الثاني أنه من النسل الصافي لـ شوقامونا Shuqamuna(إله الجبل والحرب عند الكاشيين) ، وأن الآلهة الكبرى أنو وإنليل وإيا ومردوك وسين وشماش هي التي استدعته لحكم بابل . تكمن في هذا محاول إضفاء الشرعية على الحكم الكاشي والاعتراف والآيمان بالآلهة البابلية المعروفة .

وقد قام أجوم الثاني بأداء واجباته اتجاهها ، فأعاد تماثيل مردوك وزوجته صاربانيتو Sarpanitu ، الثنائي الإلهي البابلي ، من بلاد خانا البعيدة إلى بابل ، بعد أن بقيت هناك أربعة وعشرين عاماً ، ووضعها من جديد في معبد إيزانجيلا المرمم .

ويعتقد أن الحثيين ، أو بعض الحكام الكاشيين ، نقلوا هذه التماثيل إلى خانا بعد انسحاب الحثيين .

أطلق أجوم الثاني على نفسه الألقاب التالية : «ملك الكاشيين والأكاديين وملك بابل» . وسمى نفسه أيضاً «ملك بلاد جوتيوم» . وقد استطاع هذا الملك أن يمد نفوذه باتجاه الشرق وباتجاه الشمال حتى بحيرة أورمية . أما باتجاه الجنوب فقد حد من توسعه ملك بلاد البحر ، الذي كان قد وسع مملكته في جنوب بلاد بابل مستفيداً من احتلال الحثيين لبابل .

خلف بورنا بورياش الأول Burnaburiash أجوم الثاني الذي عقد اتفاقاً مع الملك الآشوري پوزور آشور الثالث (1490-1477ق .م) ينظم الحدود بين مملكتيهما . استلم الحكم بعده ابنه كاشتيلياش الثالث . Kashtiliash III . واستغل ابنه الثاني أولام بورياش Ulamburiash فرصة غياب ملك بلاد البحر في حملة على عيلام ، فقام بالاستيلاء على جنوب بلاد بابل ،

ولقب نفسه «ملك بلاد البحر» (بالأكادية : شار مات تا متيم) ، وأصبح بعد أخيه كاشتيلياش الثالث ملكاً على بلاد بابل . وهكذا توحدت بلاد بابل من جديد في مملكة واحدة . ولكن كانت هذه الوحدة مهددة باستمرار بالأخطار سواء الداخلية أو الخارجية . فقد قام أجوم الثالث خليفة أولام بورياش بالقضاء على تمرد قام في بلاد البحر . وتجددت الخلافات على الحدود بين بابل وآشور ، لكنها سويت مرة أخرى على عهد الملك كارا إنداش Karaindash(نحو 1450ق . م) .

شهد النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد تعاظم القوة المصرية ، فقد قام الفرعون المصري تحوتموس الثالث (1468/70 – 1436/39ق . م) في حملته السابعة عشرة باحتلال سورية ووصل حتى الفرات حيث أقام نصباً تذكارياً يخلد انتصاراته . وقد قابله هناك ملك بابل وقدم له الهدايا . يبدو أن الملك المذكور كان كارا إنداش ، ولقاؤه مع تحوتموس الثالث حدث عام 1447ق . م .

إن هذا اللقاء ، الذي هو الأول بين فرعون مصري وملك بابلي ، يعدّ ذو أهمية كبيرة . إذ أنه يدل على ظهور بابل كقوة كبرى في السياسة العالمية ، في الوقت الذي أصيبت فيه امبراطورة حوري ـ ميتاني بضربة قاسية نتيجة هزيمتها أمام الفرعون المصري وفقدانها شمال سورية .

وقد فتح اللقاء بين العاهلين عهداً من الصداقة بين البلدين . وتبين لنا مراسلات تل العمارنة أن ملوك بابل الكاشيين والفراعنة المصريين كانوا يتبادلون الرسائل وتربط بعضهم ببعض علاقات وطيدة .

يظهر كارا إنداش في الوثائق المتوافرة بانياً للمعابد والسيد الحامي لأوروك ، الذي بنى فيها معبداً للإلهة إنانا (عشتار) . وسمى نفسه «الراعي المحبوب لعشتار» . ويعدُّ ذلك المعبد من الأبنية الهندسية الكاشية الأصلية (**الشكل 15**) .

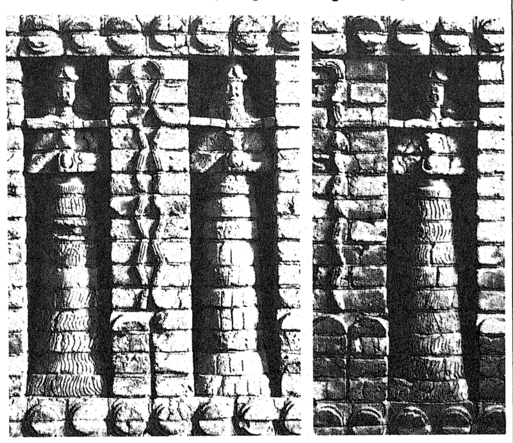
تذكر الوثائق التي تعود إلى عهد كاراإنداش أن بلاد بابل كانت تسمى بلاد كاردونياش Karduniash . ويصف كاراإنداش نفسه في كتابة على معبد إنانا في أوروك أنه «ملك مدينة بابل ، ملك سومر وأكاد ، ملك الكاشيين وملك كاردونياش» .

هذا الاسم هو بالتأكيد اسم كاشي وعُرفت به بابل أيضاً في الفترات اللاحقة من العصر الكاشي .

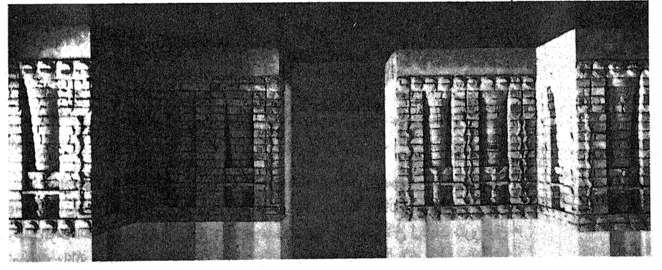
اعتلى عرش بابل بعد كارا إنداش ابنه كَدَشمان خاربي Kadashmancharbe(نحو 1410–1386ق . م) الذي حارب السوتيين . وهم مجموعة قبائل بدوية كانت تجوب بادية الشام وتهدد المراكز الحضرية باستمرار . وقد ورد ذكر هذه القبائل مراراً عديدة في أرشيف ماري وفي نصوص بابلية قديمة .

أصبحت بابل في عهد كوريجالزو Kurigalzu(نحو 1380ق . م) خليفة كَدَشمان خاربي قوة كبيرة لها اعتبارها في الشرق الأدنى القديم . وقد ارتبط اسم هذا الملك ببناء مدينة سماها دور كوريجالزو أي «قلعة كوريجالزو» (حالياً عقرقوف على بعد نحو 17كم شمال غرب بغداد) ، التي كان ينوي على ما يبدو جعلها عاصمة له للابتعاد عن تأثير كهنة مردوك في بابل .

أطلق كوريجالزو على نفسه لقب «ملك الجميع ، الكل» وألّه نفسه . تكمن في هذا رغبته بالتشبه بملوك بلاد بابل الكبار الذين سبقوه .



(الشكل 15) مقاطع من واجهة المعبد الكاشي في اوروك الذي بناه كارا انداش. توجد حاليا في متاحف الدولة في برلين.



العلاقات بين بلاد بابل ومصر في عصر العمارنة 1380-1350ق . م :

لم يتخل الحكام الكاشيون في هذا العصر عن الخط المتبع في مجال السياسة الخارجية منذ ثلاثة أجيال . ويبدو أن التحالف والصداقة مع مصر قد مُتنا بشكل أكبر عن طريق إرسال أميرة كاشية إلى الفرعون المصري أمنحوتب الثاني (1438-1412ق . م) . وقد سار كوريجالزو على هذه السياسة التي تظهر واضحاً في رفضه عرض بعض الحكام السوريين للثورة على المصريين وطردهم من بلادهم . وهذا يدل على أن بلاد بابل أصبحت في هذه الفترة قوة كبرى في الشرق الأدنى القديم إلى جانب الامبراطورية المصرية الحديثة والامبراطورية الحثية . ويعود ذلك إلى أسباب عديدة أهمها شخصية كوريجالزو وضعف مملكة حوري ـ ميتاني .

تسنم عرش بابل بعد كوريجالزو ابنه كَدَشمان إنليل الأول Kadashmanenlil I(نحو 1375ق . م) الذي قام بنشاط سياسي واضح تدل عليه بعض رسائل العمارنة التي تبادلها مع الفرعون المصري أمنحوتب الثالث (1392-1364ق . م) . تتصف تلك الرسائل بطبيعة عائلية وتتعلق بمصير أخت كَدَشمان إنليل الأول التي أصبحت زوجة لأمنحوتب الثالث ولكن لم يعد المرء يسمع عنها شيئاً في بابل ، وبأميرة مصرية كان الملك الكاشي يريدها زوجة له . وقد كان جواب الفرعون المصري أمنحوتب الثالث مخيباً لآمال الملك الكاشي حيث قال : «سابقاً لم تعط أميرة مصرية إلى أي شخص كان للزواج» .

تظهر النساء الأجنبيات ذات الدم الملكي اللواتي وفدن إلى البلاط المصري ، سواء الأميرات الكاشيات من بابل أو الأميرات الحوريات من مملكة حوري ـ ميتاني ، عاملاً حاسماً في التجارة الملكية التي كانت التجارة الوحيدة في هذا العصر . فالأمر هنا يتعلق بصفقات تجارية بكل معنى الكلمة ولكن دون استخدام التعبير الدال على ذلك . وقد قدمت مصر مقابل هؤلاء النساء مادة ثمينة ألا وهي الذهب الذي طلبه الملوك الكاشيون بكميات متزايدة لتمويل عمليات بناء القصور والمعابد التي قاموا بها . فكل رسائل كَدَشمان إنليل الأول إلى الفرعون المصري تردد الشكوى : «إذا لم ترسل ذهباً فلن أستطيع أن أتابع الأعمال التي بدأتها . الذهب لم يصل بعد . كيف أستطيع أن أكمل البناء الذي بدأته؟ الذهب وصل أخيراً ولكنه كان من نوعية سيئة . بعد أن وضعه المرء في فرن الصهر حصل فقط على كمية قليلة منه» .

نجد مثل هذه الشكاوى أيضاً عند بورنابورياش الثاني (1367-1346ق . م) بن كَدَشمان إنليل الأول في إحدى رسائله إلى أمنحوتب الرابع (أخناتون) (1364-1347ق . م) حيث يقول : «إخوة وصداقة وتحالف وعلاقة جيدة بين الملوك توجد فقط إذا كانت كميات الأحجار الكريمة والفضة والذهب كبيرة» .

تجدر الاشارة إلى أن مصر كانت تحصل على الذهب من مناجم خاصة في النوبة والسودان . وكان الاعتقاد سائداً في بابل أن الذهب موجود في مصر كالتراب .

أرسل الملوك الكاشيون إلى مصر بالاضافة إلى النساء الخيول والعربات الحربية واللازورد المستورد أصلاً من أفغانستان .

حكم بورنا بورياش الثاني فترة طويلة من الزمن وعاصر الفراعنة أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع والملك الحثي شوپيلوليوما . واستخدم كأبيه وجده لقب «شاركيشاتي» ، «ملك الجميع ، الكل» . وتبين مراسلاته مع الفراعنة أنه كان سياسياً بارعاً .

استطاعت آشور خلال هذه الفترة أن تستعيد استقلالها بشكل تدريجي عن مملكة حوري ـ ميتاني التي أخذت قوتها بالتراجع نتيجة فوضى واضطرابات داخلية . وأقام الملك الآشوري آشور أوباليط الأول (نحو 1363–1328ق . م) علاقات مع مصر ، على الرغم من احتجاج الملك الكاشي على ذلك لدى الفرعون المصري . وبذلك نشأت قوة جديدة في شمال بلاد الرافدين أخذت تنازع الكاشيين على السيادة والنفوذ في المنطقة .

إن قائمة الملوك الكاشيين طويلة ولا يمكن تتبعها بكل تفاصيلها بسبب قلة المعلومات المتوافرة . باختصار يمكن القول إن الكاشيين حكموا بابل في الفترة اللاحقة دون قيامهم بأعمال تستحق الذكر ، وبقوا في سدة الحكم حتى منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد عندما قضى عليهم العيلاميون خلال حملاتهم المتلاحقة على بلاد بابل .

الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بابل الكاشية :

كان الكاشيون غرباء عن البلاد شكلوا طبقة حاكمة تختلف عن البابليين اختلافاً جذرياً في ثقافتها وأصولها . وكان يحكم باسمها ملك يعتمد اعتماداً أساسياً على الجيش المؤلف في معظمه من مجموعات كاشية ، ومهمته الرئيسة الحفاظ على الحكم وتدعيم السلطة الكاشية . وقد أقطع الملك قادته مساحات واسعة من الأراضي الزراعية كي يضمن ولاءهم له ومساندتهم لحكمه . أعطيت أيضاً إقطاعات زراعية للأعيان والوجهاء وكبار رجالا ت الدولة . بالاضافة إلى ذلك كان يوجد تحت تصرف الملك أراضٍ زراعية واسعة المساحة يجري استثمارها لصالحه بتسخير مجموعات من أفراد الشعب للعملِ فيها .

أدخل الكاشيون طريقة جديدة لم تكن معروفة سابقاً في بلاد بابل لتثبيت حدود الاقطاعات الزراعية هي الـ كودورو Kudurru : حدود ، حجر حدود ، وهي عبارة عن أحجار كانت توضع على حدود الاقطاعات الزراعية ويكتب عليها اسم مالك الاقطاع وحدود الاقطاع ورموز الآلهة الكاشية والبابلية كشهود على ذلك (**الشكـــل 16**)

وكانت الاقطاعات الزراعية معفاة من الضرائب .

اهتم الكاشيون باقامة الأبنية المختلفة فبنى كوريجالزو ، كما أسلفنا ، مدينة جديدة سماها دور كوريجالزو أي قلعة كوريجالزو . وقد أظهرت الحفريات الأثرية العراقية في موقع عقرقوف الحالي أن المدينة كانت محاطة بسور دفاعي وتتألف من قسمين رئيسين : الأول يشمل



(الشكل 16) كودورو من سوزة. نقش عليه اقطاع من الاراضي من قبل Melishipakالثاني الى ابنه مردوك ابال إدينا الاول (القرن الثاني عشر قبل الميلاد) ونحتت عليه في خمسة افاريز رموز الهة عديدة من بينها الهلال رمز سين والتنين رمز مردوك والشمس رمز شمش. ارتفاعه 65سم موجود حاليا في متحف اللوفر.

المعابد والقصور الملكية ، والثاني سكن الشعب الذي فُصل عن القسم الأول بسور دفاعي أيضاً [58] .

وتعد دور كوريجالزو مثالاً فريداً على فن بناء المدن والقصور الكاشية . وكان الملك كاراإنداش قد بنى ، قبل كوريجالزو ، معبداً للإلهة إنانا في مدينة أوروك ، ويمكن عده النموذج التقليدي لفن البناء الكاشي .

58 ـ انظر د . سلطان محيسن ، آثار الوطن العربي القديم ، الآثار الشرقية ، دمشق 1988 ، ص 288 .

من الناحية الدينية احترم الكاشيون الآلهة البابلية وقدسوها فأعادوا تماثيل مردوك وقرينته صار بانيتو من خانا إلى بابل ، لأن ذلك كان له مدلول سياسي ويعني عودة النظام والاستقرار إلى بلاد بابل على الرغم من تغير الحاكم . وللتقرب من كهنة مردوك أعفى أجوم الثاني جميع أملاك معبد هذا الإله في بابل من الضرائب . أما بقية الآلهة فقد حظيت بالرعاية أيضاً وبقيت عباداتها تمارس كما كانت سابقاً . وقد شجع كوريجالزو على عبادة الإله إنليل وسمى ابنه باسم يدخل اسم الاله إنليل في تركيبه (كدشمان إنليل) .

غير أن الكاشيين لم ينسوا آلهتهم الخاصة بهم ، فتظهر في النصوص المكتشفة أسماء شيپاك Shipak : إله القمر ، وشوقامونا : إله الجبل والحرب ، وأخته شوماليا Shumalya : سيدة الجبال الصافية وغيرها .

استخدم الكاشيون الألقاب الملكية البابلية التي كانت معروفة سابقاً مثل : ملك بابل ، ملك سومر ، ملك أكاد ، ملك الجميع . واستخدموا أيضاً اللغة الأكادية والكتابة المسمارية في تدوين كتاباتهم ورسائلهم .

نستنتج من كل ما تقدم أن الكاشيين كانوا متخلفين حضارياً عن المنطقة التي حكموها ، لذلك أخذوا معظم المظاهر الحضارية السائدة ، وأدخلوا عليها أحياناً بعض التعديلات . فطريقة التأريخ التي كانت قائمة على تسمية سنوات حكم كل ملك بالأحداث الهامة التي تحدث خلالها ، والتي عرفتها بلاد بابل منذ تاريخها المبكر ، طرأ عليها تغيير في العهد الكاشي ، فأصبحت تقوم على تعداد سنوات حكم الملك اعتباراً من أول العام الجديد(بداية نيسان) الذي يلي اعتلائه العرش .

غير أن الكاشيين على الرغم من تخلفهم الحضاري بالمقارنة مع البابليين ، فإنهم أدخلوا ظاهرة حضارية جديدة إلى المنطقة وهي تربية الخيول . وقد اشتهروا بذلك ووضعوا لوائح للمصطلحات والتعابير الخاصة بهذه المهنة . لذلك انتشرت تربية الخيول في بلاد بابل في عهدهم ، وكانت تُصدر إلى مصر وإلى بلاد حاتي (آسية الصغرى) كما يظهر من العديد من الرسائل والنصوص المكتشفة .



الفصل الحادي عشر

الحوريون

قدم الحوريون [59] إلى بلاد الرافدين في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد من المناطق الجبلية الشمالية الشرقية وتأثروا بشكل كبير بالثقافة السومرية ـ الأكادية ، ولعبوا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد دوراً هاماً في نقل هذه الثقافة إلى آسية الصغرى .

المعلومات المتوافرة عن الحوريين في عهد الامبراطورية الأكادية قليلة ، ويبدو أنهم عاشوا على أطراف الأراضي الزراعية الرافدية ، وحدثت موجة استقرارهم الأولى في شمال المنطقة الواقعة إلى الشرق من دجلة في أواخر العهد الأكادي . بعد سقوط الامبراطورية الأكادية قامت أول إمارة حورية معروفة حتى الآن ، وكان حاكمها يحمل اسماً حورياً تقليدياً أتال شين Atal – shen ، وقد خلَّف وثيقة مكتوبة باللغة الأكادية على لوح من البرونز ، وهي عبارة عن وثيقة تأسيس معبد للإله نيرجال إله الطاعون والعالم السفلي عند السومريين والأكاديين . يسمي أتال شين نفسه في هذه الوثيقة ملك أوركيش Urkesh ونَوار Nawar . هاتان المدينتان معروفتان ولكن يصعب تحديد موقعهما بدقة .

ربما حكم أتال شين في عهد الجوتيين (نحو 2090–2048ق .م) أو فيما بعد في العقود الأولى من عهد سلالة أور الثالثة .

تُظهر لنا الوثائق العائدة إلى عهد سلالة أور الثالثة أن المناطق الجبلية الواقعة إلى الشرق والشمال من بلاد الرافدين كانت في هذه الفترة مأهولة بسكان يتكلمون اللغة الحورية ، وتقدم هؤلاء فيما بعد في منطقة شرقي دجلة إلى الشمال من نهر ديالي .

وقد قام الملك شولجي الملك الثاني من سلالة أور الثالثة بحملات عديدة إلى شمال منطقة شرقي دجلة ، وقاد من هناك ، خلال هذه الحملات ، عدداً كبيراً من الحوريين كأسرى حرب إلى سومر حيث عملوا في الزراعة .

ويعطينا أرشيف مدينة ماري على الفرات الأوسط فكرة عن وجود دويلات حورية في شمال سورية ، وفي شمال بلاد الرافدين ، وفي منطقة شرقي دجلة وجبال زاغروس . وتظهر في نصوص ألالاخ (الطبقة السابعة) العائدة إلى نهاية القرن 18ق .م وإلى القرن 17ق .م أسماء حورية عديدة . ومن المعتقد أن الحوريين ، بعد سقوط ماري ، انتشروا بشكل سريع في وادي البليخ وفي منطقة الفرات الأوسط ووصلت أعداد منهم إلى وادي العاصي الأوسط .

59 ـ معنى اسم الحوريين غير معروف حتي الآن . وربما كانت له علاقة مع كلمة خورادي Churadi : عسكري ، حارس ، التي ترد في اللغات الحورية والأورارتية والآشورية الحديثة والأوجاريتية ، انظر :
Wilhelm, G., Grundzuge der Geschichte und Kultur der Hurriter, Darmstadt 1982, S. 1.

نشوء امبراطورية حوري - ميتاني :

تمكن الحوريون من تشكيل امبراطورية واسعة بلغت أوج قوتها في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وتعرف باسم امبراطورية حوري - ميتاني . ولكن بدايات نشوء هذه الامبراطورية غير معروفة .

يذكر الملك الحثي مورشيلي الأول أنه بعد احتلاله حلب دمر «كل مدن الحوريين» . لكن غير واضح فيما إذا كان المقصود بذلك المنطقة المحيطة بحلب أو مدن واقعة شرق الفرات . ويبدو أن مورشيلي الأول اجتاز الفرات ليؤمن الجناح الأيسر لحملته العسكرية على بابل عام 1595ق . م .

وعندما قام الفرعون المصري تحوتموس الأول (1497-1482ق . م) بالزحف على شمال سورية اصطدم مع عدو يسكن في ارض سماها المصريون بالكلمة السامية نهارينا Naharina(في العهد القديم آرام نهارايم) وتعني «أرض النهر» أي الأرض الواقعة عند منحنى الفرات .

وهناك وثيقة تعود على الأغلب إلى عهد تحوتموس الأول تذكر لأول مرة الاسم الذي كان يستعمله السكان المحليون وهو مَيْتّاني Maittani ، الذي أصبح فيما بعد مِيتَاني Mittani . ومعنى هذا الاسم غير معروف حتى الآن .

كانت ميتاني تشمل على الأقل طور عابدين وربما السهول حول ديار بكر ، وتمتد في الشمال حتى بلاد إشووا Ishuwa(بحيرة كيبان حالياً) وألشي Alsheشمال دجلة .

بالاضافة إلى التسميات السابقة تذكر المصادر الحثية «الحوريون» و«أرض حوري» . وترد تسمية حوريين في مصادر مصرية تعود إلى عهد الأسرة الثامنة عشر .

وسعت مملكة ميتاني نفوذها باتجاه الغرب في بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد فاحتلت حلب ووصلت حتى شواطىء البحر المتوسط . كانت حلب قد استعادت استقلالها بعد احتلالها من قبل الملك الحثي مورشيلي الأول وحُكمت من قبل ملوكها شارًّا إل Sharrael وأبَّاإل Abbael وإليم إليمّا Ilimilimma . وقد سقطت حلب بيد الميتانيين نتيجة قيام تمرد فيها بدعم من مملكة ميتاني أجبر إدريمي Idrimiابن إليم إليمّا آخر ملوك حلب المستقلين ، وإخوته على الهرب إلى إيمار على الفرات ، بينما وسع الملك الحوري پارّاتّارنا Parrattarnaنفوذ مملكته حتى سواحل المتوسط . ولكن حدثت فيما بعد مصالحة بين الملك الحوري وإدريمي (**الشكل** 17) الذي عاد إلى ألالاخ (على العاصي بالقرب من أنطاكية) ليحكم فيها كتابع لمملكة حوري - ميتاني . [60]

وهكذا خضع شمال سورية لمملكة حوري - ميتاني . ولكن هذا الوضع تغير فيما بعد نتيجة سياسة التوسع التي اتبعها فراعنة الدولة الحديثة في مصر . ففي عام 1458ق . م حقق تحوتموس الثالث نصراً في مجيدّو ضد تحالف سوري بقيادة ملك قادش . ويعتقد أن امبراطورية حوري - ميتاني كانت وراء هذا التحالف . واستطاع تحوتموس الثالث في حملة لاحقة احتلال

60 - انظر حول تلك الأحداث : عيد مرعي ، إدريمي ملك الالاخ ، دراسات تاريخية ، العددان 29و30 ، آذار - حزيران 1988 ، ص 103-126 .

(الشكـل 17) تمثال إدريمي في وضعية الجلوس. عثر عليه في الالاخ ويوجد حاليا في المتحف البريطاني في لندن. نحت من الحجر الكلسي. ارتفاعه 1.05م.



(الشكـل 18) مقطع من لوحة جدارية من الالباستر من قصر اشور ناصر بال الثاني في كلخو يظهر فيها الملك اشور ناصر بال الثاني يصطاد اسودا.



قلعة قادش ووجه حملاته التالية ضد منطقة نفوذ ميتاني غرب الفرات . ووصل عام 1447ق . م إلى منطقة كركميش وعبر الفرات دون أن نسمع عن أية إجراءات ميتانية ضده .

ولكن على الرغم من الانتصارات العسكرية التي حققها تحوتموس الثالث فإنه لم يستطع أن يقضي نهائياً على تدخلات ميتاني في شمال سورية التي أعادت نفوذها السابق على المنطقة بعد وفاة الفرعون المصري تحوتموس الثالث في عهد أهم ملوكها ساوشتاتار Saushtatar . احتل ساوشتاتار آشور التي كانت قد تحالفت سابقاً مع مصر ، وأخضع إلى سلطته كل المنطقة الممتدة من جبال زاغروس في الشرق وحتى سواحل المتوسط في الغرب .

استمر النزاع على سورية بين مملكة حوري ـ ميتاني ومصر حتى بداية القرن الرابع عشر حيث عُقد اتفاق بين القوتين الكبيرتين يحدد مناطق نفوذهما في سورية ، والذي تُوج فيما بعد بزواج ربط بين العائلتين الحاكمتين . فقد أرسل ملك حوري ـ ميتاني توشراتا Tushrata ابنته تاتوخيبا (نفرتيتي فيما بعد) كزوجة إلى الفرعون المصري أمنحوتب الثالث .

وقد استمرت المحادثات حول موضوع الزواج ، وبخاصة حول المهر ، عدة سنوات . وتعطينا رسالة من توشراتا إلى أمنحوتب الثالث فكرة عن العلاقات بين مصر وميتاني في تلك الفترة . وقد وجدت تلك الرسالة ضمن أرشيف العمارنة وتعد من أهم الوثائق الحورية وتسمى «رسالة ميتاني» ، وأمكن من خلالها معرفة الكثير عن اللغة الحورية . وربما أُرسلت مع الأميرة تاتوخيبا عند رحلتها إلى الفرعون المصري . وفيما يلي مقاطع منها :

«إلى نيمّوريا (المقصود الفرعون المصري) ملك مصر ، أخي ، صهري الذي أحبه والذي يحبني أقول : هكذا يتكلم توشراتا ملك بلاد ميتاني عمك الذي يحبك ، أخوك . أحوالي جيدة . أرجو أن تكون أحوالك جيدة أيضاً . أرجو أن تكون أحوال زوج ابنتي ، نسائك ، أولادك ، أعيانك ، خيولك ، عربات قتالك ، قواتك ، بلادك وممتلكاتك بخير . أخي تمنى زوجة وهاأنذا أرسلها . . . . أرجو أن يجعلني أخي غنياً في عيون سكان دولتي . وأرجو ألا يحزن أخي قلبي . لقد تمنيت من أخي تمثالاً من الذهب لابنتي . أنا أعرف أن أخي يحبني كثيراً وأعرف أيضاً أن الذهب موجود بكثرة في بلد أخي . كما أريد من أخي تمثالاً من العاج .

في بلادنا يسود السلام . الآن لا يوجد عدو لأخي . ولكن إذا هاجم عدو أخي ودخل في بلاده فعلى أخي أن يخبرني وستكون بلاد الحوريين بأسلحتها وجيوشها تحت تصرفه . من ناحية أخرى إذا وُجِدَ عدو ضدي فسأخبر أخي وستكون مصر وأسحلتها إلى جانبي» . [61]

[61] Wilhelm, G., op. cit., S. 45 – 61 f.

يتضح من هذه الرسالة أن العلاقات بين ميتاني ومصر كانت جيدة خلال حكم أمنحوتب الثالث . ولكنها ساءت في عهد أمنحوتب الرابع ، ربما بسبب تزايد قوة الحثيين وعدم مقدرة الحوريين على الوقوف في وجههم .

وكانت أولى نتائج ضعف مملكة حري ـ ميتاني تخلص آشور من سيطرتها . وهكذا أخذت قوة ميتاني بالضعف تدريجياً نتيجة صراعات داخلية على السلطة ونتيجة تدخلات

الحثيين والآشوريين في شؤونها ، وبقيت قائمة كدولة ذات مساحة محدودة في أعالي بلاد الرافدين حتى بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

من الجدير بالذكر أنه كان للعناصر الهندوأوربية دور كبير في تاريخ مملكة حوري ، ميتاني . فقد مكنتهم خبرتهم العسكرية ، وخاصة في استخدام المركبات الحربية من تبوءمراكز قيادية في الدولة . ويظهر تأثيرهم في مجالات عديدة ، فبعض الملوك كانوا يحملون أسماءً هندو أوربية ، واللغة الحورية التي تعد من اللغات اللاصقة ، أي التي لا تعرف الاشتقاق ، تتضمن الغديد من الكلمات الهندو أوربية . وكانت هناك آلهة هندية قديمة تُعبد في ميتاني . وعرفت تربية الخيول العديد من الكلمات والتعابير الاختصاصية الهندية .

كان للهنود الأوروبيين خبرة كبيرة في تربية الخيول وتدريبها . وقد أطلق على الفرسان في ميتاني اسم مارياني (أوماريانا) . وترتبط هذه الكلمة على ما يبدو مع الكلمة الهندية القديمة ماريا Marya . شاب . وقد تحول أفراد طبقة الماریاني ذات الخبرة العسكرية خلال تاريخ ميتاني إلى نوع من طبقة النبلاء بالولادة .

تجدر الاشارة أخيراً أن واشوكاني Washshukkanni كانت عاصمة الامبراطورية الحورية ـ الميتانية . ويعتقد أنها كانت تقوم في موقع تل فخيرية الحالي بالقرب من رأس العين في الجزيرة العليا . ومن مدن الامبراطورية الهامة نوزي Nuzi (حالياً يورغان تبه) جنوب غرب كركوك التي ازدهرت خلال القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد . كانت المدينة معروفة منذ عصر السلالات الباكرة باسم جاسور Gasur ، وسماها الحوريون نوزي .

وكشفت الحفريات الأمريكية فيها (1925–1931) عن معبد وقصر ، وعن نوع جديد من الفخار سُمي فخار نوزي ، وعن أرشيف مؤلف من أكثر من أربعة آلاف رقيم طيني مكتوب بالخط المسماري وباللغة الأكادية المتأثرة بالحورية تأثراً كبيراً . لكن معظم أسماء الأعلام حورية . تتحدث معظم وثائق هذا الأرشيف عن مواضيع اقتصادية وحقوقية . أما المعلومات التاريخية والسياسية فقليلة جداً .



الفصل الثاني عشر

المملكة الآشورية الوسطى

بعد انهيار الامبراطورية الآشورية القديمة بموت شمشي أدد الأول تحولت آشور إلى دولة صغيرة في عهد خلفه وابنه اشمي داجان (1781-1742ق . م) ، ولم يعد لها أي دور يذكر في الأحداث الجارية في بلاد الرافدين .

ويبدو أن آشور دخلت في القرون التالية مرحلة النسيان ، فلا تتوافر عنها أية معلومات حتى نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد ، عندما نسمع عن حكام آشورين سموا أنفسهم إنزي آشور . وكانوا بلا شك تابعين لمملكة حوري ـ ميتاني التي قامت في أعالي بلاد الرافدين في هذه الفترة ومدت نفوذها على المناطق المجاورة ، ومنها آشور .

وقد ترك هؤلاء وثائق تتحدث فقط عن بناء معابد وقصور وأسوار . حدث توتر في العلاقات ما بين آشور وبلاد بابل التي كان يحكمها الكاشيون في عهد الحاكم الآشوري پوزور آشور الثالث Puzurashshur III(1490-1477ق . م) ، انتهى بعقد اتفاق سوى خلافات الحدود بين المملكتين .

قامت في عهد آشوررابي الأول . Ashshurrapi I(1450-1431ق . م) ثورة ضد السيطرة الميتانية ، لكن الميتانيين قضوا عليها وأخضعوا آشور من جديد لحكمهم . بيد أن الاضطرابات التي حدثت فيها بعد في مملكة حوري ـ ميتاني حول وراثة العرش أعطت آشور الفرصة المناسبة للتخلص من التبعية والخضوع لتلك المملكة . وأرسل الملك الآشوري آشور نادين أخّي الثاني . Ashshurnadin achche II(آشور معطي إخوة) (1402-1393ق . م) وفداً إلى الفرعون المصري أمنحوتب الثالث وتلقى منه هدية نحو عشرين تالنتاً ذهباً . يكمن في هذا اعتراف مصر بآشور كقوة جديدة في الشرق الأدنى القديم إلى جانب القوى الأخرى المعروفة كالكاشيين والحوريين والحثيين .

يعد آشور أو بالّيط الأول Ashshuruballit I(آشور يُبقي على الحياة) (1363-1328ق . م) أول حاكم هام حكم آشور في هذه الفترة . وقد أظهر ذكاءً وبراعة في قيادة الدولة ، فقوى علاقاته مع مصر ، وزوَّج ابنته من أمير كاشي كان يحكم في بابل لمد نفوذه إلى تلك المنطقة . وأطلق على نفسه لقب شار كيشّاتي (ملك الجميع ، الكل) ، وهو لقب معروف منذ عهد شمشي أدد الأول .

واستطاع أحد أحفاده وهو أدد نيراري الأول Adad nirari I(أدد مُعيني) (1305–1274ق . م) أن يوسع حدود الامبراطورية الآشورية لتشمل كل أعالي بلاد الرافدين حتى كركميش . وقام أيضاً بالعديد من الأعمال العمرانية مثل بناء سور لمدينة آشور ومعبدٍ لعشتار ، ورمم بعض المعابد الأخرى . وخلفه على عرش آشور ابنه شلمانصَّر الأول . Shalmanassar I(شلمانو۔ أشاريد = الإله شُلمان هو الأول) (1273–1244ق . م) الذي كان عليه مجابهة عدو جديد لآشور هو مملكة أورارتو Urartu التي قامت في منطقة بحيرة ڤان ، ويذكر في إحدى كتاباته : «في ثلاثة أيام أخضعت أورارتو ، أحرقت إحدى وخمسين مدينة وسلبت ممتلكاتها» .

اتجه شلمانصَّر بعد ذلك لتأمين حدود مملكته الغربية ، وبخاصة مقابل الحثيين الذين كانوا يحاولون باستمرار التدخل هناك من خلال دعمهم للملك مملكة حوري ـ ميتاني الضعيف . ولكن شلمانصَّر انتصر على ذلك الملك وأسر من قواته نحو ألف وأربعمئة محارب جلبهم معه إلى آشور . وهكذا استطاع أن يقف على قدم المساواة مع حاتوشيلي الثالث ملك الحثيين القوي آنذاك .

قام شلمانصَّر الأول ، على الصعيد العمراني ، ببناء مدينة جديدة عام 1270ق .م على الضفة الشرقية من نهر دجلة هي كَلْخو Kalchu (حالياً نمرود على بعد نحو 40كم جنوب شرق الموصل) .

بلغ صعود آشور المستمر ، الذي بدأ منذ عهد آشور أو باليط الأول ، درجة كبيرة من القوة على عهد توكولتي نينورتا الأول Tukultininurta I(الاله نينورتا اتكالي ـ ثقتي) (1243–1207ق .م) الذي قام خلال سنتين من حكمه بضم أجزاء كبيرة من الشرق الأدنى القديم إلى مملكته ، من كركميش إلى أرمينية في الشرق وحتى البحرين في الخليج العربي . واستطاع بعد انتصاره على ملك بابل الكاشي أن يخضع بابل لنفوذه ، ونقل تماثيل الإله مردوك منها وهدم أسوارها وعين عليها حاكماً آشورياً . لكن توكولتي نينورتا سقط فيها بعد ضحية مؤامرة كان على رأسها ابنه وولي عهده . أطلق توكولتي نينورتا على نفسه ألقاب عديدة منها : «الملك القوي ؛ ملك آشور ، ملك كاردونياش ، ملك سومر وأكاد ، ملك ديلمون وميلوخا ، ملك البحر الأعلى والبحر الأدنى» .

وتشير هذه الألقاب إلى الحدود التي وصلتها الامبراطورية الآشورية في عهده .

مرت آشور بعد اغتيال توكولتي نينورتا بفترة من الضعف خضعت خلالها لنفوذ بابل التي كانت قد تخلصت من التبعية لها قبل وفاة توكولتي نينورتا .

عادت قوة آشور إلى الصعود مرة أخرى على عهد ملكها تيجلات بيليصر الأول . Tiglatpileser I(توكولتي أبيل إيشارًا = ثقتي هي الابن الأول للمعبد ايشارا. ايشارا هو معبد الاله اشور في مدينة اشور) (1112–1074ق .م) الذي كان يتمتع بذكاء ومقدرة عسكرية فائقتين . فقد قام أولاً بالانتصار على تحالف عسكري هدد حدوده الشمالية ، ثم أخذ يوسع نفوذه في هذه المنطقة على حساب الدويلات الصغيرة التي كانت قد نشأت هناك بعد سقوط

الامبراطورية الحثية في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وقاد حملات عديدة باتجاه الشمال الشرقي ووصل حتى بحيرة ڤان حيث وطد النفوذ الآشوري هناك .

اتجه بعد ذلك بأنظاره نحو الغرب إلى سورية ، حيث تقع غابات الأرز والسرو والصنوبر في منطقة الجبال الساحلية . وكانت أخشاب تلك الأشجار ضرورية لأعمال البناء المختلفة ، وخاصة بناء القصور والمعابد . ويفتخر الكثير من ملوك بلاد الرافدين في كتاباتهم بالوصول إلى تلك المنطقة وقطع الأشجار هناك .

سبقت تيجلات بيليصر الأول شهرته العسكرية وبطشه فقدمت له مدن جبيل وصيدا وأرواد فروض الطاعة دون قتال ودفعت له جزية . ولكن الاتصالات مع سورية كانت مهددة دائماً من قبل القبائل الآرامية التي تتجول في المنطقة ، لذلك يذكر تيجلات بيليصر أنه قطع الفرات ثمان وعشرين مرة من أجل القضاء عليهم . يقول في إحدى كتاباته : «بناءً على أمر أنو وأدد الآلهة الكبرى سادتي ، سرت إلى جبال لبنان وقطعت دعائم من خشب الأرز لمعبد أنو وأدد الآلهة الكبرى سادتي ، وأخذتها معي . وتابعت المسير إلى أمورو ، وفتحت أمورو بأكملها . تلقيت جزية من جبيل وصيدا وأرواد . وسرت على سفن من أرواد في أمورو . ثلاثة مراحل مضاعفة (نحو 30كم) من أرواد الواقعة في وسط البحر حتى صيمورا[62] في أمورو أنجزت كل شيء بنجاح .

قتلت ناخيرو (ربما نوع من الحيتان) الذي يسميه المرء «حصان البحر» في أعالي البحر . في طريق عودتي (أخضعت) بلاد الحثيين (كَركميش) بكاملها . وفرضت على إني تيشوب ملك بلاد الحثيين رهائن وجزية وضرائب ودعائم من خشب الأرز . 28مرة عبرت الفرات خلف الأخلامو الآراميين حتى بلاد الحثيين ، مرتين في سنة واحدة . من سفوح لبنان ومن تدمر في أمورو ومن أنات في سوخو (منطقة على الفرات الأوسط) حتى رابيقو (بالقرب من الرمادي) في كاردونياش ألحقت بهم الهزيمة وأخذت غنائمهم وممتلكاتهم إلى مدينتي آشور»[63] .

وتذكر حوليات تيجلات بيليصر الأول أنه قام مرتين بالهجوم على بلاد بابل واحتلها ، وانتصر خلال خمس سنوات على اثنتين وأربعين دولة وأمير من منطقة ما بعد الزاب الأسفل وحتى الفرات وبلاد حاتي والبحر الأعلى (البحر المتوسط) .

بالإضافة إلى هذا النشاط العسكري الواسع قام تيجلات بيليصر الأول بنشاط عمراني كبير فقد أتم بناء معبد أنو ـ أدد في آشور ومعبد عشتار في نينوى . ويفتخر أيضاً ببناء أحد الأسوار ، وبصنع محراث جديد للزراعة ، وبمحاولة إدخال زراعة بعض النباتات الغريبة إلى بلاده ، ومنها القطن ، الذي لم يكن معروفاً قبل هذا التاريخ في بلاد الرافدين .

عاشت آشور بعد تيجلات بيليصر مرحلة من الركود ، تراجعت فيها قوتها بشكل تدريجي وخسرت معظم المناطق التي كانت تسيطر عليها ، على الرغم من محاولات الملوك اللاحقين المحافظة على قوتها واتساعها .

كانت الامبراطورية الآشورية الوسطى امبراطورية عسكرية تعتمد على الفتوحات وإخضاع الشعوب المغلوبة وفرض جزية سنوية عليها . وقد نتج عن هذه السياسة حصول

62 ـ صيمورا : ربما كانت تقع في تل الكزل الحالي جنوب طرطوس . وتقوم بالتنقيبات الأثرية فيه بعثة من الجامعة الأميركية في بيروت برئاسة الدكتورة ليلى بدر .

63 ـ Borger, R., TUAT, Band I, Lieferung 4, Historisch–chronologische Texte I, Gutersloh 1984, S. 356–357.

الآشوريين على خيرات البلاد التي أخضعوها . ولكنهم قدموا بالمقابل خسائر بشرية كبيرة خلال حملاتهم المتلاحقة التي قاموا بها . وربما يكون هذا أحد الأسباب الرئيسة التي ساهمت في ضعف آشور وانحطاطها .

اعتمد الآشوريون في حروبهم على العزبات بشكل رئيسي ، وكان لديهم المشاة ايضاً . وقد اتبعوا سياسة تهجير السكان من بلادهم لكسر شوكة مقاومتهم .

عرف الآشوريون في الفترة ما بين القرنين 15-12ق .م مجموعة من القوانين والأحكام القضائية التي تعالج قضايا اجتماعية ، وخاصة قضايا الزواج والخيانة الزوجية والاغتصاب والسرقة ، وقضايا ملكية الأراضي الزراعية . وقد عثرت على تلك القوانين جمعية الشرق الألمانية خلال حفرياتها في آشور (قلعة الشرقاط) ما بين 1903-1918 ، مكتوبة على تسعة رقم طينية [64] . وتتميز القوانين بفرض عقوبات جسدية قاسية بحق مخالفيها كقطع الأذن أو ثقبها أو قطع الشفة السفلى أو الأصابع ، والخصي وتشويه الوجه بصب الاسفلت الحار عليه وغير ذلك .

64 ـ انظر حولها : فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص 180وما يليها .



الفصل الثالث عشر

الامبراطورية الآشورية الحديثة

عانت مملكة آشور في بداية الألف الأول قبل الميلاد من ضعف شديد . فعلى عهد الملك آشور رابي الثاني . Ashshurrapi II(نحو 1010-970ق .م) توصلت قبائل آرامية إلى تأسيس العديد من الإمارات المستقلة في بلاد الرافدين . واستوطن الكلدانيون ، وهم فرع من الآراميين ، في منطقة بلاد سومر القديمة . وأحاط التيار الآرامي ببلاد آشور وببلاد بابل من الخابور حتى عيلام ، ووصل حتى شمال سورية حيث تأسست هناك العديد من الإمارات الآرامية المستقلة ، وأشهرها أرپاد بالقرب من حلب وآرام حماة . وانتشر الآراميون أيضاً في جنوب سورية ، وظهرت ممالك عديدة لهم هناك أهمها آرام دمشق وآرام صوبا .

ولم يستطع الملوك الآشوريون آشور رابي الثاني وآشور ريش إشي الثاني Ashshur-resh-ishi II(969-965ق .م) وتيجلات بيليصر الثاني (964-935ق .م) مقاومة القبائل الآرامية ، فتقلصت مملكة آشور إلى حدودها الطبيعية .

ولكن هذا الوضع بدأ بالتغيير على عهد آشور دان الثاني Ashshur dan II(935-912ق .م) الذي صرف همه أولاً إلى توطيد الوضع الداخلي في آشور ، ثم قام بمهاجمة بعض القبائل الآرامية المجاورة وحقق انتصاراً عليها . وأخذت قوة آشور بالتنامي من جديد على عهد ابنه وخليفته أدد نيراري الثاني (912-891ق .م) الذي قام بحملات عديدة ضد الآراميين ، وسيطر على كل منطقة الخابور ، ثم أطلق على نفسه ألقاب «ملك الجميع» ، وملك جهات العالم الأربع» . تابع ابنه توكولتي نينورتا الثاني (891-884ق .م) سياسته الحربية فقاد حملات عديدة باتجاه الشرق والشمال ووطد السيطرة الآشورية في منطقة الخابور . أما في آشور نفسها فقد جدد بناء القلاع والتحصينات الموجودة .

أخذت في هذه الفترة قوة أورارتو ، المملكة التي نشأت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد في منطقة بحيرة ڤان ، بالتنامي ، وبدأت بالتوسع والسيطرة على المناطق المجاورة . من الجدير بالذكر أن الأورارتيين هم أقرباء الحوريين ، واستطاعوا أن يقيموا حضارة رائعة أدهشت الآشوريين بمشاريع مياهها عندما رأوها . ازدهرت مملكة أورارتو وبلغت درجة كبيرة من القوة في الفترة ما بين 900-750ق .م حيث سيطرت على مناطق واسعة من الشرق الأدنى القديم فامتدت غرباً حتى الفرات وشرقاً حتى بحيرة أورميا وشمالاً حتى القوقاز ، واصطدمت بالآشوريين في العديد من المعارك . تأثر الأورارتيون بالحضارة الآشورية فأخذوا عن

الآشوريين الكتابة المسمارية واستخدموها لكتابة لغتهم التي تعد من اللغات اللاصقة ، أي التي لا تعرف الاشتقاق .

آشور ناصر پال الثاني :(الشكل 18)

اعتلى عرش آشور عام 884ق .م آشور ناصر پال الثاني Ashshurnasir pal II(آشور ناصر أپلي=الإله آشور ناصر الابن الوريث) (884-859ق .م) الذي قاد حملات عديدة إلى مختلف الجهات وسع من خلالها الامبراطورية الآشورية الحديثة ، فشملت مناطق تمتد من سواحل البحر المتوسط في الغرب وحتى الشواطىء الغربية لبحيرة أورميا في الشرق ، وكانت حدودها الشمالية تمر في أرمينية . فبعد أن قضى على ثورات الآراميين في منطقة الفرات الأوسط قام بضم إمارة لاقي Laqeإلى امبراطوريته ، وأخضع عام 879ق .م بلاد نائيري الواقعة شمال بلاد آشور . وبعد عدة حملات على مملكة بيت عديني الآرامية (حالياً تل برسيب جنوب كركميش) عبر الفرات عند كركميش وأخضعها . ثم اتجه نحو الغرب وأخضع المنطقة الواقعة غرب حلب ، بعد ذلك سار نحو الجنوب بمحاذاة العاصي حتى وصل إلى لبنان حيث دفعت له مدن صور وصيدا وجبيل وأرواد ومملكة أمورو الجزية . اتجه بعد ذلك نحو جبال الأمانوس للحصول على أخشاب الأرز والسرو والعرعر اللازمة لمشاريعه العمرانية . يقول في حولياته :

«سرت من بيت عديني وعبرت الفرات وقت الفيضان بسفن من جلد خام . واقتربت من كركميش . تلقيت جزية من سَنْغَارا Sangaraملك بلاد الحثيين (المقصود هنا كركميش) : 20تالنت فضة . . . . خواتم من ذهب ، سيوف من ذهب ، 100تالنت برونز ، 250تالنت حديد . . . العديد من أدوات قصره التي لا يمكن حساب وزنها ، أَسِرَّة من خشب البقس ، كرسي من خشب البقس ، مناضد من خشب البقس مطعمة بالعاج ، 200صبية ، ألبسة من أنسجة ملونة وكتان ، أرجوان أحمر ، أرجوان أزرق ، ألباستر ، عاج . . . . علامة ملكيته . أخذت معي عربات وفرسان ومشاة من كركميش . كل ملوك البلاد نزلوا إليَّ وتجمعوا حول قدميَّ . أخذت منهم رهائن . هؤلاء أُبقوا إلى جانبي وذهبوا إلى لبنان .

سابقاً سرت إلى منطقة لبنان وصعدت إلى البحر الكبير لبلاد أمورو . في البحر الكبير نظفت أسلحتي . وقدمت قرابين للآلهة . تلقيت جزية ملوك المنطقة على البحر ، (ملوك) الصوريين والصيداويين والجبيليين . . . . والأموريين و(مدينة) أرواد (الواقعة) في وسط البحر ، فضة ، ذهباً ، قصديراً ، برونزاً ، أواني من البرونز ، ألبسة من أنسجة ملونة وكتان ، قردة كبيرة وقردة صغيرة ، خشب أبنوس ، خشب بقس . . . .

صعدت إلى جبال الأمانوس وقطعت دعائم من الأرز والسرو والعرعر . قدمت قرابين لآلهتي . صنعت نصباً (نقشت) عليه أعمالي البطولية وأقمته هناك . دعائم من خشب الأرز من جبال الأمانوس حملتها إلى إيشارا (معبد الإله آشور في مدينة آشور). . . . بيت الفرح وإلى معبد سين وشماش الآلهة النقية» [65] .

65 – Börger, R., op. cit., S. 358 f.

يتضح من هذه الكتابة أن آشور ناصر پال الثاني أخضع كل شمال سورية لسلطته بما في ذلك المنطقة الساحلية حتى صور ، وحمل من هناك غنائم كثيرة إلى عاصمته آشور . أما على الجبهة الشمالية فقد جرت صدامات عديدة مع أورارتو في أواخر عهده .

لم تجلب الحملات العسكرية الناجحة التي قام بها آشور ناصر پال الثاني النصر العسكري فقط ، بل الثروة والغنى والرفاه المادي أيضاً ، فكانت آشور تحصل من المناطق الخاضعة لها على المعادن والمواد والمنتجات المختلفة وعلى قطعان الماشية ، وذلك إما على شكل جزية سنوية أو على شكل غنيمة في أعقاب كل حملة عسكرية .

قام آشور ناصر پال الثاني ، على الصعيد الداخلي ، بأعمال عمرانية عديدة أهمها إعادة بناء مدينة كَلْخو (نمرود حالياً) واتخذها عاصمة له . كان شلمانصَّر الأول قد أمر ببناء هذه المدينة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، لكنها هُجرت وتهدمت من بعده . استخدم آشور ناصر پال الثاني الآلاف من العمال من أسرى الحروب والاراميين والمهجَّرين من سورية لإعادة بناء تلك المدينة وإحاطتها بسور دفاعي بلغ طوله 8كم . وبنى لنفسه قصراً ضخماً فيها يعرف حالياً «بالقصر الشمالي الغربي» الذي دُشّن عام 879ق .م باحتفال ملكي كبير حضره نحو سبعين ألف شخص حسب ما يذكره نصب حجري أقيم تخليداً لهذه المناسبة ويحمل كتابة مسمارية باللهجة الآشورية الحديثة . (**الشكل 19**)

كان القصر الشمالي الغربي أول القصور الآشورية التي اكتشفت في القرن الماضي ، وعثر فيه على أرشيف من الألواح المسمارية المكتوبة باللهجة الآشورية الحديثة وعلى العديد من اللوحات الجدارية التي كانت تزين جدرانه (**الشكل 20**) . وقد أقام آشور ناصر پال الثاني في هذا القصر حتى نهاية حكمه . وجُدِّد بناء هذا القصر عدة مرات في القرن الثامن قبل الميلاد ، وسكن فيه فيما بعد آشور بانيپال . وعُثر في كلخو على عدة قصور أخرى ومعابد وزقورة .

شلمانصَّر الثالث وخلفاؤه :

اعتلى عرش آشور بعد آشور ناصر پال الثاني ابنه شلمانصَّر الثالث (858-824ق . م) الذي كان كوالده محارباً كبيراً . فقد كان يقود الجيش إلى خارج آشور بنفسه كل عام طيلة سبع وعشرين سنة . وعندما تقدم في السن كان قد عبر الفرات خمساً وعشرين مرة ، وأخضع شعوباً في الشمال والشرق «لم يسمع أسلافه حتى باسمها» . وشكل الوصول إلى سواحل البحر المتوسط الشرقية وإخضاع سورية هدفاً رئيساً من أهدافه ، وذلك لمراقبة طرق التجارة الممتدة من بلاد الرافدين إلى البحر المتوسط . لكنه اصطدم هنا بمقاومة الممالك الآرامية المختلفة . فركز هجومه أولاً على مملكة بيت عديني (تل برسيب) واحتلها بعد عدة حملات ، وحوَّلها إلى مقاطعة آشورية يحكمها حاكم آشوري ، وسماها «كار شلمانصَّر» ، أي «قلعة شلمانصَّر» .



الباستر ارتفاعها 2.92 م

الباستر ارتفاعها 1.78 م



الباستر ارتفاعها 2.18 م

(**الشكل 20**) لوحات جدارية من قصر آشور ناصر پال الثاني في كلخو (نمرود).

(**الشكل** 19) نصب من الحجر الرملي أقيم بمناسبة تدشين قصر اشور ناصر پال الثاني في كلخو عام 879ق.م. ويبلغ ارتفاعه 1.28م عثر عليه على مدخل قاعة العرش ويوجد حاليا في متحف الموصل في العراق، يظهر اشور ناصر پال الثاني فيه واقفا في مساحة مربعة تقريبا في الوسط و بيديه صولجان وقضيب وتظلله رموز الهته الكبرى: اشور وسين وعشتار وانو وادد. وتحيط به كتابة مسمارية باللهجة الاشورية الحديثة مؤلفة من 153سطرا تتحدث عن بناء القصر والاحتفالات التي اقيمت عند الانتهاء منه.

وفي السنة السادسة من حكمه عبر شلمانصَّر الثالث بجيشه الفرات مرة أخرى متجهاً نحو الغرب فاحتل حلب والتقى في قرقر على العاصي عام 853ق.م بجيش تحالف آرامي يقوده ملوك دمشق وحماة. يقول في إحدى كتاباته :

«في السنة السادسة من حكمي خرجت من نينوى واقتربت من مدن منطقة البليخ . . . . سرت من منطقة البليخ . عبرت الفرات وقت الفيضان . تسلمت جزية من ملك بلاد الحثيين (كركميش) . سرت من بلاد الحثيين واقتربت من حلب . قدمت أضاحي للإله أدد من حلب . خرجت من حلب واقتربت من قَرْقَرَا Qarqara . هدد عِذْر من دمشق ، إرخوليني من بلاد أماتو (حماة) و12ملك من شاطىء البحر خرجوا ضدي معتمدين كل على قوة

الآخر لخوض المعركة . اشتبكت معهم . وأرديت خمسة وعشرين ألفاً من محاربيهم بالسلاح . وسلبتهم عرباتهم الحربية وخيولهم وعتادهم الحربي . ومن أجل انقاذ حياتهم ولوا هاربين» [66] .

66 - ibid., S. 363 f.

ويذكر تقرير آخر أكثر تفصيلاً عن معركة قرقر على العاصي بين حلفاء ملك دمشق شيخ العرب جِنديبو Gindibu الذي شارك في المعركة بألف جمل [67] . ويعد هذا أول ذكر لاستخدام الجمال في المعارك .

67 - ibid., S. 361.

أما ذكر العرب في هذا التقرير فهو أقدم ذكر لهم معروف حتى الآن . ومن البديهي أنهم كانوا موجودين قبل هذا التاريخ بوقت طويل ، ويعيشون غالباً حياة البداوة والترحال في البوادي العربية معتمدين على تربية الحيوان ، وعلى ممارسة شيء من التجارة . وتذكرهم النصوص العائدة للفترة الآشورية الحديثة خصوماً ألداء للآشوريين .

لم تكن معركة قرقر نصراً آشورياً حاسماً على تحالف الممالك الآرامية ، لذلك اضطر شلمانصَّر الثالث إلى الزحف فيها بعد مراتٍ عديدة على سورية لاخضاعها . فهاجم دمشق عام 849ق . م ، ولكن دون جدوى . ثم هاجمها مرة أخرى عام 841ق . م بعد اغتيال ملكها هدد عِذْر وصعود حازا إل العرش معتقداً أن الفرصة أصبحت مواتية لاحتلالها . لكن حازا إل قاوم مقاومة عنيفة في دمشق بعد هزيمته في معركة عند جبل حرمون . ولم يستطع الآشوريون احتلال المدينة فصبوا جام غضبهم على المناطق المجاورة ووصلوا حتى جبل حوران . يقول شلمانصَّر الثالث في إحدى كتاباته : «في السنة الثامنة عشرة من حكمي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة . حازا إل من دمشق اعتمد على ضخامة قواته وحشد فرقه بكثرة . وجعل سينير Senir (جبل حرمون) قمة إحدى الجبال مقابل لبنان حصنه . اشتبكت معه وألحقت به هزيمة . أرديت بالسلاح ستة عشر ألفاً من محاربيه . وسلبته 1121 من عرباته الحربية و470من خيوله ومعسكره . وهرب لانقاذ حياته . سرت خلفه وحاصرته في دمشق مقره . قطعت بساتينه . زحفت حتى جبل حوران . خربت مدناً لا تعد ودمرت وأحرقت بالنار . وغنمت غنائمَ لا تحصى . . . . . سابقاً تلقيت جزية من الصوريين والصيداويين . . . . . » [68] .

68 - ibid., S. 365 f.

يتضح مما تقدم أن النفوذ الآشوري في سورية لم يكن دائماً نتيجة مقاومة الممالك الآرامية المختلفة ، وعلى رأسها آرام دمشق .

على الرغم من الحملات العديدة التي قادها شلمانصَّر الثالث نحو الغرب فإنه لم يهمل حدود امبراطوريته الأخرى . فكان قد قام قبل توجهه نحو سورية (856ق . م) بتأمين حدوده الشمالية بالسير إلى أورارتو وتدمير عاصمتها توشپا Tushpaالواقعة على الضفة الشرقية من بحيرة ڤان . وأرسل عام 832ق . م حملة إلى هناك بقيادة أحد القادة الكبار .

كان شلمانصر الثالث يحب الاقامة في نينوى ، أما العاصمة آشور فأمر بتحصينها ، وقام بتوسيع كلخو حيث بنى عام 845ق .م في زاويتها الجنوبية الشرقية حصناً مساحته ستة هكتارات يعرف بـ«حصن شلمانصر» ، كان بمثابة قصر ملكي وثكنة للجند ومستودع للأسلحة ومركز إداري .

وقد أحيط الحصن بسور فيه ثلاث بوابات تربطه بالمدينة . وكان شلمانصَّر يقيم أحياناً هناك . (الشكل 21)

يعد شلمانصَّر الثالث مؤسس الامبراطورية الآشورية الحديثة ، فقد أوصل آشور إلى درجة كبيرة من القوة لم تعهدها من قبل . ولكن تمرد عليه في سنة حكمه الثانية والثلاثين ابنه آشور دان أبلي ، وانشغلت آشور بهذا التمرد أربع سنوات استنفذت خلالها جزءاً كبيراً من قوتها ، وتوفي شلمانصَّر الثالث عام 824ق .م قبل أن يقضي على هذا التمرد . وخلفه على عرش آشور ابنه شمشي أدد الخامس (823–810ق .م) الذي كان عليه أن يمضي سنتين أخريتين حتى يستطيع القضاء على تمرد أخيه ، ويصبح سيد آشور الأوحد . وعندما توفي عام 810ق .م كان الوضع السياسي الداخلي في الامبراطورية الآشورية مستقراً . ولكن ابنه أدد نيراري الثالث كان صغير السن فحكمت أمه سمّورامات Sammuramat باسمه خمس سنوات (809–804ق .م) . ويرد ذكرها في كتابة مؤلفة من سبعة أسطر على العديد من النصب الملكية المكتشفة في آشور : «نصب سمورامات ، سيدة قصر شمشي أدد ، ملك الكل ملك بلاد آشور ، أم أدد نيراري ، ملك الكل ملك بلاد آشور ، . . . شلمانصَّر ، ملك الجهات الأربعة» [69] .

عُرفت سمورامات في الأسطورة الاغريقية باسم سميراميس Semiramis ويورد دويودور الصقلي الأسطورة بكل تفاصيلها نقلاً عن مصادر أقدم تعود إلى نحو 400ق .م ، وذلك في «مكتبته التاريخية» (الفصول 4–20) . ويذكر هيرودوت في «تواريخه» (الكتاب الأول ، الفصل 184) أنها ملكة بابلية قامت ببناء سدود خارج بابل لدرء خطر الفيضانات .

وقد نسج الفرس وشعوب أخرى أساطير عديدة حول سمورامات [70] نُسبت إليها فيها أعمال عظيمة . ويبدو أن سمورامات كانت تتمتع بقدرات كبيرة ، الأمر الذي أدى إلى شهرتها وذيوع صيتها .

وبقي تأثيرها قوياً في إدارة الدولة حتى بعد اعتلاء ابنها أدد نيراري الثالث العرش (804–782ق .م) ، الذي كان عمره آنذاك خمس سنوات حسب إحدى كتاباته : «في السنة الخامسة بعد أن جلست باحتفال مهيب على العرش الملكي حشدت المملكة كلها . أمرت العديد من الفرق بالسير إلى بلاد الحثيين (كركميش)» [71] .

وجه أدد نيراري الثالث اهتمامه للمقاطعات الغربية التابعة لآشور حيث كان خطر الانفصال قائماً . فسار إلى سورية حيث أخضع أمورو ودمشق وصور وصيدا وغيرها من المناطق . وتتحدث إحدى كتاباته عن ذلك فتقول : «انطلاقاً من الفرات أخضعت لقدميّ بلاد الحثيين (كركميش) وكل بلاد أمورو وصور وصيدا وبيت أومري وإدوم وفلسطيا حتى بحر مغرب الشمس الكبير . فرضت عليهم جزية وضرائب . سرت إلى دمشق . حاصرت ماريئي ملك دمشق في دمشق مقره . وبسبب خوفه من رهبة آشور سيدي خر راكعاً عند قدميّ وأظهر خضوعه» [72] .

69 – Eileps, W., semiramis. Entstehung and Nachall eines altopientabschen Sage, Wien 1971. S.35.

70 – ibid., S. 47 f.

71 – Borger, R., op. cit., S. 369.

72 – ibid., S. 367 f.



(الشكل 21) مسلة شلمنصر الثالث السوداء. عثر عليها في كلخو. ارتفاعها 2.02م. موجودة حاليا في المتحف البريطاني في لندن الجزء السفلي منها وقمتها المدرجة مغطاة بكتابة مسمارية باللهجة الاشورية الحديثة تتحدث عن اعمال الملك الاشوري حتى سنة حكمه الحادية والثلاثين.

وكل جانب من جوانب المسلة الاربعة مقسم الى خمس افاريز نحتت عليها مشاهد تقديم الطاعة والجزية الى شلمنصر الثالث من قبل ملوك الشعوب المغلوبة.

اهتم أدد نيراري الثالث بتوطيد النفوذ الآشوري في المناطق الأخرى التابعة لآشور فقام عام 794/95ق . م بحملة على بلاد بابل . ولكن الامبراطورية الآشورية عانت في أواخر عهده من اضطرابات في المقاطعات الخاضعة لها ، واشتد ضغط أورارتو عليها .

وعندما توفي أدد نيراري الثالث ترك آشور على عتبة فترة ضعف جديدة ولم يجرؤ أحد من أبنائه الثلاثة الذين خلفوه بالتتالي على العرش (شلمانصَّر الرابع 781–772، آشور دان الثالث 771–754، آشور نيراري الخامس 753–746) على استخدام لقب «ملك الجميع» كأبيهم وجدهم .

تيجلات بيليصر الثالث :

ولكن آشور عادت إلى الظهور مرة اخرى كقوة كبيرة على عهد تيجلات بيليصر الثالث (745–727ق . م) الابن الرابع لأدد نيراري الثالث ، الذي يعد مؤسس امبراطورية آشور العالمية . فقد أعاد بقبضته الحديدية الهدوء إلى أرجاء الامبراطورية . سار في سنة حكمه الأولى ضد القبائل الآرامية والكلدانية في بلاد بابل ، ورتب في حملته الثانية الوضع في زاغروس ، وقام في حملته الثالثة بالقضاء على المقاومة في سورية ، وانتصر عام 743ق . م على ساردور الثالث ملك أورارتو وأتباعه في معركة في شمال سورية . ثم حاصر أرپاد Arpad(حالياً تل أرفاد بالقرب من حلب) التي كانت متحالفة مع ملك أورارتو ، ودام الحصار من 742–740ق . م . وعندما سقطت المدينة ترك ذلك صدى في كل أرجاء سورية فجلب له ملوك كركميش ودمشق وصور الجزية إلى أرپاد التي أصبحت عاصمة اقليمية آشورية .

توجه تيجلات بيليصر الثالث بعد ذلك بأنظاره نحو الشرق لاخضاع الميديين ، ونحو الشمال للقضاء على خطر أورارتو . فقام عام 735ق . م بالزحف على أورارتو وحاصر العاصمة توشبا Tushpaولكنه لم يستطع فتحها وهذا ما تعترف به أيضاً حولياته : «حاصرت ساردوري الأورارتي في توشپا عاصمته . وعملت مذبحة أمام أبواب المدينة . بعد ذلك أقمت نصباً لجلالتي الملكية أمام المدينة» .

اضطر تيجلات بيليصر الثالث للزحف مرة أخرى على سورية حيث شكل ريزون ملك دمشق تحالفاً كبيراً معادياً للآشوريين كان من أعضائه ملكة عربية تدعى زبيبة . فقام الملك الآشوري باخضاع دمشق عام 732ق . م ، وهجّر ثمانية آلاف إنسان من سكانها ونصَّب عليها حاكماً آشورياً . قام بعد ذلك باحتلال المدن الفلسطينية حتى غزة . فأتم بذلك السيطرة الآشورية على كل سورية .

توفي تيجلات بيليصر الثالث عام 727ق . م ، وكان قبل ذلك بسنتين (729ق . م) قد أعاد إخضاع بابل للسيطرة الآشورية . وقد خلفه في الحكم ابنه شلمانصَّر الخامس (726–722ق . م) . ويبدو أنه ضم كيليكية إلى الامبراطورية الآشورية ، وقضى على تمردات قامت في فلسطين ضد الحكم الآشوري .

شاروكين الثاني وسنحريب :

اعتلى بعده عرش آشور أخوه شاروكين الثاني (722-705ق .م) الذي كان عليه أن يهاجم عيلام أولاً ، لأنها بدأت بالتحرك بعد عدة قرون من الهدوء . ثم اتجه نحو سورية فقضى على التمردات التي قامت فيها ضد الآشوريين وهجَّر قسماً من السكان ، وانتصر على المصريين عام 720ق .م في معركة عند رفح . مما يجدر ذكره أن المصريين كانوا يحاولون باستمرار إثارة التمردات ضد الآشوريين في فلسطين .

حقق شاروكين الثاني عام 714ق .م نصراً على أورارتو ، التي اختفت اعتباراً من هذا التاريخ كقوة كبرى عن مسرح الأحداث في الشرق الأدنى القديم . وأخضع فيها بعد الميديين والفرس ، وقضى على بقايا الدويلات التي قامت في آسية الصغرى بعد سقوط الامبراطورية الحثية في أوائل القرن 12ق .م .

ولكن على الرغم من هذه الانتصارات فإن الامبراطورية الآشورية لم تنعم بالهدوء . فلم يتوقف المصريون عن التدخل في فلسطين ، وقامت اضطرابات في بابل حيث أعلن المغامر مردوك أبال إدِّينا نفسه ملكاً ، معتمداً على مجموعات آرامية وكلدانية . وللرد على هذه الأخطار أُرسِلت حملة إلى فلسطين أعادت الأمور إلى نصابها . وقام الملك نفسه عام 710ق .م بقيادة حملة كبيرة ضد مردوك أبال إدِّنا الذي أدرك عقم المقاومة فهرب إلى الجنوب وسقطت بابل بيد العاهل الآشوري الذي نُصِّب فيها ملكاً شرعياً ، وزوَّج ابنه سنحريب من أميرة بابلية ذات أصل آرامي لاظهار حسن النية اتجاه السكان المحليين . وأعلن ملك ديلمون (البحرين) وأمراء قبرص الخضوع لشاروكين .

عاد شاروكين الثاني عام 707من بابل حاملاً معه كل الغنائم التي حصل عليها من الجنوب الرافدي ، وكرس جهوده بعد هذا التاريخ لبناء عاصمة جديدة للامبراطورية هي دور شاروكين (حصن شاروكين) (حالياً خورصَباد على بعد نحو 16كم شمال نينوى) التي كان قد وضع حجر أساسها قبل ذلك بعدة سنوات ودُشِّنت في بداية عام 706ق .م . شكلها المربع تقريباً كان يشغل مساحة قدرها نحو 3كم² ، ويحيط بها سور ضخم سمك أساساته الحجرية 24م ، وعليه 183برج دفاعي ، وفيه سبع بوابات . وكانت أهم أبنية المدينة القصر الملكي الضخم الذي بناه شاروكين ما بين 713-708ق .م على مصطبة ارتفاعها 15م ، وزينت جدرانه لوحات حجرية منحوتة ورسوم جدارية[73] (**الشكل 22**)

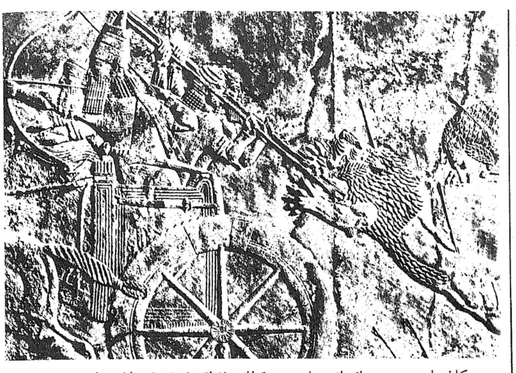
أما سكان المدينة فكانوا من أسرى الحروب والمهجَّرين ذوي الأصول المختلفة . وقد اختارهم شاروكين الثاني كذلك حتى لا ينشأ بينهم بسرعة ترابط وتماسك سياسي واجتماعي .

ولكن دور شاروكين لم تبق طويلاً عاصمة للامبراطورية الآشورية الحديثة . فما أن أُغتيل شاروكين الثاني من قبل أحد جنوده عام 705ق .م حتى عاد ابنه وخليفته سنحريب Sanherib(سين أخِّي إريبا=الاله سين عوضني إخوة) (704-681ق .م) إلى العاصمة القديمة نينوى التي قام بتوسيعها وتدعيم أسوارها وتزويدها بالمياه عن طريق قناة .

73 ـ انظر تفاصيل أكثر في : سلطان محيسن ، آثار الوطن العربي القديم ، الآثار الشرقية ، ص - 310-311 .



(الشكـــل 22) لوحات حجرية منحوتة ورسوم جدارية من قصر شاروكين الثاني في دور شاروكين. (خورصباد).



كان على سنحريب انجاز مهمات صعبة للمحافظة على اتساع الامبراطورية كما تركها له والده . فسار في حملته الأولى ضد المغامر مردوك أپال إدِّينا الذي عاد إلى بابل وأعلن نفسه ملكاً ، وتحالف معه ملك عيلام . وقد ألحق سنحريب الهزيمة بهذا التحالف وبسط السيرة الآشورية من جديد على بلاد بابل . اتجه بعد ذلك نحو منطقة جبال زاغروس وتلقى جزية من الميديين .

تشكل في هذه الأثناء في فلسطين تحالف معادٍ للآشوريين بدعم من مصر ، فقام سنحريب بحملة احتل فيها كل المدن الفينيقية ، عدا صور ، وانتصر على جيش مصري وحاصر أورشليم [74] عام 700/701ق . م . لكنه فك الحصار عنها وانسحب إلى آشور بعد تفشي الطاعون بين جنوده . غير أن ملك أورشليم أرسل جزية باهظة إلى الآشوريين خوفاً من عودتهم إلى مدينته .

تجددت الاضطرابات والتمردات ضد الآشوريين في بلاد بابل مما اضطر الملك الآشوري على السير إلى هناك واحتلال بابل ونهبها وتخريبها عام 689ق . م .

74 – أورُشليـم Urushalemتسمية كنعانية قديمة لـمـدينة القـدس وتعني «مدينة السلام» أو «مدينة (الإلـه) شاليم (أوساليم)» . علماً أن الإله شاليم هو إله الغروب عند الكنعانيين انتشرت عبادته في فلسطين منذ القرن 19ق . م .

أسر حدون و آشور بانيپال :

اغتيل سنحريب عام 681، ربما من قبل أحد أولاده ، فخلفه على العرش ابنه أسر حدّون Asarhaddon(آشور أخو إدِّينا=الاله آشور أعطاني أخاً) (681–669ق .م) الذي كان عليه مجابهة أخطار عديدة . فقضى أولاً على تمرد قام به إخوته ضده . ثم أمر باعادة بناء بابل لكسب تأييد السكان الناقمين على الآشوريين . ووجه أنظاره إلى الكمريين الذين قضوا على المملكة الفريجية ولاحقهم حتى كبادوكيا (678ق .م) . وكان عليه القضاء على تمردات قبائل



(الشكل 23) نصب من الحجر يظهر عليه اشور بانيبال حاملا قفة من القش على رأسه وهو يشارك في اعادة بناء معبد مردوك في بابل. يوجد النصب حاليا في المتحف البريطاني في لندن. ارتفاعه 37سم.

كلدانية في بلاد بابل . أخيراً توجه بأنظاره نحو سورية فاحتلها . ولكن تبين له أن النفوذ الآشوري هناك عرضة للزوال نتيجة تدخلات المصريين المستمرة . فسار مرتين نحو مصر ، أخفق في الأولى (674ق .م) ونجح في الثانية (671ق .م) حيث احتل منف (ممفيس) العاصمة ، وهرب الفرعون المصري طهارقا إلى الصعيد . يصف أسر حدون في إحدى كتاباته احتلاله لمصر فيقول :

«من مدينة إيشوپري : Ishupriحتى مسيرة خمسة عشر يوماً ، حاربت كل يوم في معارك دموية ضد طهارقا ملك مصر وكوش ، الملعون من كافة الآلهة العظام . ضربته خمس مرات بسنان سهمي وسببت له جرحاً بليغاً . حاصرت منف مقره وفتحتها في نصف يوم . . . . دمرتها وهدمت أسوارها . . . اقتلعت جذور كوش من مصر . نفيت كل الكوشيين من مصر ولم أترك واحداً منهم ليقدم لي الخضوع . وعينت من جديد على كل مصر ولاة وحكاماً ومراقبي موانىء ومشرفين ومدراء» [75] .

قسّم أسر حدون المنطقة التي سيطر عليها في مصر إلى مقاطعات وسمى المدن المصرية بأسماء أشورية ، ووضع حكاماً آشوريين إلى جانب الأمراء المصريين ، وسمى نفسه «ملك ملوك مصر وپاتروس patros(مصر العليا) وكوش» وعلى الرغم من أنه احتل الدلتا فقط ، فقد جاء إليه ، كما يظهر ، ممثلون عن مدن الصعيد وأعلنوا خضوعهم له ، وقدموا جزية له تعبيراً عن ذلك .

75 ـ Borger, R., Die Inschriften Asarhaddon, konigs von Assyrien, S. 89–99.

استغل الفرعون طهارقا الذي هرب إلى الصعيد فرصة انسحاب أسر حدون من مصر وعاد إلى ممفيس ، فقام أسر حدون بالزحف مرة أخرى على مصر عام 669ق .م لكنه توفي وهو في الطريق إليها . فخلفه ابنه آشور بانيپال Ashshurbanipal(آشور باني أبلي=الاله آشور خالق الابن الوريث) (668–626ق .م) ، الذي قاد حملتين مظفرتين على مصر ، الأولى عام 666ق .م ، والثانية عام 664ق .م ووصل فيها حتى الشلال الأول ، ونهب ودمر طيبة وأخذ منها غنائم كثيرة إلى آشور .

وصلت الامبراطورية الآشورية الحديثة أوج قوتها وازدهارها على عهد آشور بانيپال (**الشكل 23**) فامتدت من جبال زاغروس في الشرق حتى الشلال الأول في مصر في الغرب ، ومن أواسط آسية الصغرى في الشمال حتى الخليج العربي في الجنوب . ولكن على الرغم من قوة واتساع هذه الامبراطورية فقد كانت تنشب فيها أحياناً بعض الاضطرابات . فقد قام آشور بانيپال عام 648ق .م باحتلال بابل التي ثارت ضده ، منذ عام 652ق .م بقيادة أخيه شماش شوم أوكين . ودمر عام 646ق .م سوزة العاصمة العيلامية .

وأخضع في الفترة ما بين 640–638ق .م قبائل عربية ودولاً عديدة ثارت ضده .

ولكن العمل الخالد الذي قام به آشور بانيپال هو تأسيسه مكتبة كبرى في نينوى العاصمة ، تضم نحو خمسة وعشرين ألف رقيم طيني تتناول مواضيع مختلفة في الآداب

والأساطير والعلوم والدين . وتشكل تلك الرقم حالياً مصدراً هاماً من مصادر تاريخ بلاد الرافدين .

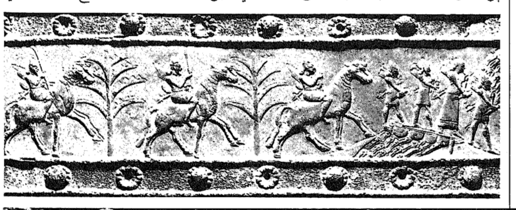
من الجدير بالذكر أن بعض الملوك الآشوريين مثل تيجلات بيليصر الأول وشاروكين الثاني وسنحريب قاموا بتأسيس مكتبات في قصورهم ، ولكن ما من أحد منهم وصل إلى الدرجة التي وصلها آشور بانيپال في عنايته بالعلم والأدب والفن . فقد عهد إلى كتّاب قصره مهمة نسخ العديد من النصوص والأعمال الكتابية المختلفة وإيداع تلك النسخ في مكتبته . ويفتخر بذلك فيقول : «المختار من فن كتابة الرقم التي لم يملكها أحد من الملوك أسلافي ، حكمة نابو (إله الكتابة والكتاب والحكمة) ، الأسافين المضغوطة على اختلافاتها كتبتها على ألواح ورتبتها وراجعتها ، ثم وضعتها وسط قصري لرؤيتها وقراءتها[76] » .

76 _ Otten H., Bibliotheken im Alten Orient, in: Das Altertum 1 (1955), S. 68.

كان آشور بانيپال مشجعاً للفنون أيضاً . وتشهد على ذلك المنحوتات والرسوم الجدارية الرائعة التي اكتشفت في قصره في نينوى (**الشكل 24**)

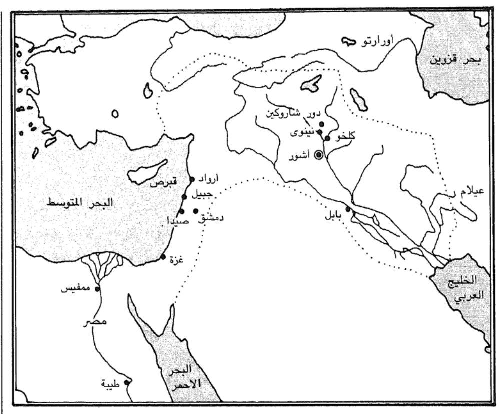
نهاية الامبراطورية الآشورية الحديثة وسقوطها :

مرت الامبراطورية الآشورية الحديثة بعد موت آشور بانيپال (626ق .م) بمرحلة من الضعف والفوضى حكم خلالها ثلاثة من الملوك . ففي عام 625ق .م قام الكلداني نابو پولاصَّار Nabupolassarبالاستيلاء على السلطة في بابل ، وتحالف فيها بعد مع الملك الميدي





(**الشكل 24**) منحوتات ورسوم جدارية من قصر آشور بانيپال في نينوى.



الامبراطورية الاشورية في عهد آشور بانيپال (القرن السابع قبل الميلاد)

كياكسيريس Kyaxeres ، وقاما بمهاجمة بلاد آشور فسقطت آشور بيدهم عام 614ق .م ونينوى عام 612ق .م . وهرب آخر ملك آشوري المدعو آشور أوباليط الثاني إلى حرَّان ، لكنها سقطت عام 610ق .م . وفشلت محاولة استعادتها عام 609ق .م ، على الرغم من المساعدة المصرية التي أرسلها الفرعون نيخو الثاني . وهكذا اختفت آشور من تاريخ الشرق الأدنى القديم .

اعتمدت الامبراطورية الآشوزية الحديثة في قيامها واستمرارها على القوة العسكرية ، فكان الجيش ، بمشاته وعرباته الحربية ، عماد الدولة ، ولعب قادته دوراً كبيراً في بناء الأمجاد لملوكهم . وكان لبعضهم أحياناً دوراً في تسيير شؤون الدولة .

اتصف الآشوريون بالعنف والقسوة في حروبهم وحملاتهم المختلفة التي قاموا بها . وتراوحت العقوبات التي فرضوها بحق أعدائهم بين التعذيب والقتل والتشويه أو التهجير من مناطقهم واسكانهم في مناطق أخرى بعيدة لكسر شوكة مقاومتهم . وقد عكست الصبغة العسكرية ، التي اتسمت بها الامبراطورية الآشورية الحديثة ، آثارها على الفن . فمعظم التماثيل والمنحوتات والرسوم الجدارية العائدة إلى تلك الفترة تمثل مشاهد عسكرية مستقاة من معارك حربية . وتظهر الصبغة العسكرية واضحة في العمارة أيضاً ، فالمدن التي بنيت لتكون حصوناً عسكرية .

وإن أحد أهم أسباب سقوط الامبراطورية الآشورية الحديثة اعتمادها على القوة والعنف في حكم البلدان والشعوب الأخرى ، التي ما أن لمست ضعف الامبراطورية في أواخر أيامها حتى هبت لتتخلص من الحكم الآشوري . فانفصلت أولاً المقاطعات البعيدة ، ثم سقطت المدن الآشورية الواحدة تلو الأخرى بيد الأعداء ، لتطوى بذلك آخر صفحة من تاريخ هذا الشعب الذي أخضع مناطق عديدة من الشرق الأدنى القديم لحكمه ردحاً طويلاً من الزمن .



الفصل الرابع عشر

الامبراطورية البابلية الحديثة (الكلدانية)

ضعف النفوذ الآشوري في بلاد بابل بعد وفاة العاهل الآشوري الكبير آشور بانيپال ، واستغل هذا الضعف نابو بولاصَّار (نابو أپال أوصّور=ليحم الإله نابو الابن الوريث) زعيم القبائل الكلدانية ، أقوى الجماعات الآرامية في بلاد بابل ، فاستولى على السلطة هناك . كان في البداية زعيم منطقة بلاد البحر الواقعة في الجنوب البابلي ثم نهب أوروك بمساعدة عيلامية وهاجم نيپور وهزم الجيش الآشوري الذي أُرسل للقضاء عليه . بعد ذلك نصب نفسه رسمياً «ملك أكاد» أولاً في مدينة سيپار ثم في بابل عام 525ق .م . وعلى الرغم من ذلك لم يكن موقفه قوياً ، فالجيش الآشوري استمر بالقيام بغارات على بلاد بابل ، وكان رد نابو پولاصار عليه حذراً ومحدوداً . ولكن هذا الوضع تغير مع الزمن ووصل البابليون في هجماتهم حتى دجلة ، وحاصروا عام 616ق .م آشور العاصمة القديمة . غير أنهم أُجبروا على التراجع نتيجة هجوم آشوري معاكس عليهم . في هذه الأثناء كانت المملكة الميدية التي تأسست في نهاية القرن الثامن في المنطقة الواقعة جنوب غرب بحر قزوين ، قد بلغت درجة كبيرة من القوة على عهد ملكها كياكسيريس Kyaxeres(625–585ق .م) ، وأخذت تهاجم الامبراطورية الآشورية . ففي عام 614ق .م هاجم كياكسيريس بجيش ميدي كبير نينوى التي قاومته بقوة وضراوة اضطرته إلى الانسحاب والتوجه إلى العاصمة القديمة آشور . لم تستطع آشور المقاومة والصمود طويلاً أمام الحصار الميدي فسقطت وتعرضت للنهب والتدمير ، أما سكانها فقتل قسم منهم ، وهُجِّر من بقي على قيد الحياة . وعندما وصل نابوپولاصار إلى آشور لم يجد أمامه إلا خرائباً ودخاناً . لكنه استغل الفرصة فعقد مع كياكسيريس الملك الميدي تحالفاً عُزِّزَ ، حسب برحوشا المؤرخ البابلي ، بزواج نبوخذ نصَّر الثاني ولي العهد البابلي من إحدى بنات الملك الميدي .

كانت الامبراطورية الآشورية الحديثة ما تزال تحتفظ ببعض القوة على الرغم من سقوط آشور . فاتجهت قوات التحالف الميدي ـ البابلي عام 612ق .م نحو العاصمة نينوى وحاصرتها . قاومت المدينة المهاجمين ثلاثة أشهر ثم سقطت في شهر آب وتعرضت للنهب والتدمير الكامل ، ولم تعد تُسكن بعد ذلك التاريخ .

انسحب قسم من الآشوريين من نينوى إلى حرَّان بقيادة آشور أوباليط الثاني ، ولاحقهم البابليون حتى نصيبين . أما الميديون فقد خرجوا بنصيب الأسد من كنوز نينوى التي نقلوها إلى بلادهم .

أعلن آشور أوباليط الثاني نفسه ملكاً في حرَّان ، التي كانت بمثابة آخر معقل آشوري . لكنها سقطت عام 610ق . م بيد البابليين والميديين ، وانسحب آشور أوباليط الثاني مع بعض قواته ، وقوات أرسلها الفرعون المصري بسامتيك الأول للساعدة ، إلى الجانب الغربي من الفرات . أما حرَّان فقد نُهبت ووضعت فيها حامية بابلية . بعد ذلك بعدة أشهر قام آشور أوباليط الثاني (609ق . م) بالتحرك نحو الشرق عبر الفرات لاسترجاع عاصمته (حرَّان) . وكانت تساعده وحدات مصرية قوية أرسلها الفرعون المصري الجديد نيخو الثاني . فحاصر المدينة مدة شهرين دون فائدة . وقبل أن يصل نابوپولاصار إلى حرَّان لنجدة حاميته استطاعت هذه أن ترد المهاجمين . أما ماذا حدث بعد ذلك مع آشور اوباليط الثاني فلا تتوافر أية معلومات .

وبذلك اختفت آشور من خارطة الشرق الأدنى القديم واقتسمت المملكتان المنتصرتان ممتلكاتها ، فسيطرت ميدية على بلاد آشور الأصلية وشكل المجريان الأعلى والأوسط لنهر دجلة حدودها الغربية . أما بابل فقد شملت بنفوذها جنوب بلاد الرافدين ووسطها وعيلام ووادي الفرات كله وأعالي بلاد الرافدين غرب دجلة ، ووقفت بذلك وجهاً لوجه أمام المصريين في سورية . مما تجدر الإشارة إليه أن مصر أرسلت المساعدات العسكرية إلى آخر ملك آشوري حرصاً منها على منع اختلال التوازن الدولي الذي كان قائماً آنذاك .

كان نابو پولاصَّار يشرك معه ابنه وولي عهده نبوخذ نصَّر الثاني Nebukadnezar(نابو ـ كودورِّي ـ أوصور = ليحم الإله نابو حدودي) في الحملات العسكرية . ومع الزمن أصبح نبوخذ نصَّر يقود الحملات العسكرية وحده ، بينما يدير أبوه دفة الحكم في بابل ، أو العكس .

وبعد أن استتب لهما الأمر في بلاد الرافدين اتجها بأنظارهما نحو سورية . وقد شكلت كركميش العقبة الرئيسة أمامهم حيث كانت ترابط هناك حامية مصرية قوية . وفشلت عدة محاولات لعبور الفرات عام 606ق . م . وفي ربيع عام 605ق . م أوكل نابوپولاصَّار قيادة كل قواته لابنه وولي عهده وكلفه بعبور الفرات واحتلال كركميش ، بينما بقي هو في بابل . وقد نجح هذا في ذلك وقضى قضاءً مبرماً على الحامية المصرية التي كانت ترابط في تلك المدينة ولاحق فلولها حتى حماة .

كان من نتائج هذا النصر في كركميش خضوع أجزاء كبيرة من سورية لنبوخذ نصَّر الثاني دون قتال . وبينما كان نبوخذ نصَّر منشغلاً بذلك وصلته أخبار وفاة والده في 18آب عام 605، فعاد مسرعاً إلى بابل ونصب نفسه ملكاً في الأول من أيلول من العام نفسه .

وتتحدث إحدى الكتابات البابلية عن تلك الأحداث فتقول :

«في العام العشرين (نحو 606ق . م) سارت فرق من مصر إلى كيموخو Kimuchu(مدينة على الفرات موقعها غير معروف حتى الآن) ضد الحامية التي وضعها ملك أكاد فيها . أربعة أشهر حاربوا ضد المدينة . احتلوا المدينة وقتلوا حامية ملك أكاد . في شهر تشرين جمع ملك أكاد قواته وسار بمحاذاة الفرات وأقام معسكره عند قورروماتي Qurumatiعلى ضفة الفرات .

وجعل قواته تعبر الفرات . شوناديري shunadiri ، إلامّو Elammu ، داخامّو Dachammu ، مدن على الجانب الآخر من النهر احتلوها ونهبوها .

في شهر شباط قفل ملك أكاد راجعاً إلى بلاده . القوات المصرية التي كانت موجودة في كركميش عبرت الفرات وسارت ضد قوات أكاد الموجودة في قوروماتي . ودحرت قوات أكاد التي تراجعت . في العام الحادي والعشرين (نحو 605ق .م) بقي ملك أكاد في بلاده . ابنه الأكبر نبوخذ نصَّر وولي العهد حشد قوات أكاد وسار على رأس قواته إلى كركميش على ضفة الفرات . عبر النهر ضد القوات المصرية التي كانت موجودة في كركميش . . . . هاجموا بعضهم بعضاً . الفرق المصرية تراجعت أمامه وألحق بهم هزيمة وسحقهم . بقايا القوات المصرية التي نجت من المعركة وبقيت خارج مدى (الوصول إليها) أدركتها قوات أكاد في منطقة حماة وألحقت بها الهزيمة ، ولم يعد أي رجل إلى بلاده . واحتل نبوخذ نصَّر كل منطقة حماة . واحد وعشرون عاماً حكم نابوبولاصار في بابل . توفي في 18آب . في شهر أيلول عاد نبوخذ نصَّر إلى بابل . في الأول من أيلول اعتلى العرش الملكي في بابل »[77] .

77 – Borger, R., TUAT 1, Lieferung 4, I., S. 402 f.

وبما أن الوضع الداخلي في بلاد بابل كان مستقراً قام نبوخذ نصَّر الثاني في خريف العام نفسه بحملة على سورية دامت حتى شهر شباط عام 604ق .م ، لم يواجه فيها أية مقاومة ، وعاد إلى بابل محملاً بالغنائم الكثيرة .

كانت هذه الحملة واحدة من سلسلة حملات متلاحقة على سورية قام بها العاهل البابلي . ولكن على الرغم من ذلك فإن النفوذ البابلي في سورية لم يستقر بسبب تدخلات المصريين ، لذلك فكر نبوخذ نصر بغزو مصر والتقى الفرعون المصري نيخو الثاني في معركة كبرى عام 601ق .م تكبد فيها الطرفان خسائر جسيمة . ولكن خسائر البابليين كانت أكبر حيث احتاج نبوخذ نصر سنتين بعد ذلك (كانون ثاني عام 600ـ كانون أول عام 599ق .م) لإعادة تنظيم قواته ودعمها ، وبخاصة فرق العربات والفرسان . وتتحدث «التواريخ البابلية» عن ذلك فتقول : «في العام الرابع (نحو 601ق .م) جمع ملك أكاد قواته وسار إلى بلاد الحثيين (سورية) . عبر بلاد الحثيين منتصراً . في شهر كيسليمو (كانون الأول) خرج على رأس قواته وسار إلى مصر . عندما سمع ملك مصر بذلك جمع قواته . في معركة هاجموا بعضهم بعضاً وألحقوا بأنفسهم في الطرفين خسائر فادحة . وعاد ملك أكاد وقواته إلى بابل .

في العام الخامس (نحو 600ق .م) بقي ملك أكاد في بلاده وجمع عدداً كبيراً من العربات الحربية والخيول»[78] .

78 – ibid. S. 403

استأنف نبوخذ نصر الثاني في نهاية عام 599ق .م حملاته على سورية ، فأرسل فرقاً ضد القبائل العربية التي كانت تناصبه العداء . وقام عام 598ق .م بحصار أورشليم واحتلالها بسبب تحالف ملكها مع المصريين الذي أسره ونصَّب مكانه ملكاً آخر موالياً له .

اضطر نبوخذ نصَّر الثاني إلى العودة مرة ثانية إلى المنطقة عام 587ق .م بسبب محاولات المصريين كسب نفوذ لهم في فلسطين ، فطردهم من هناك واحتل أورشليم للمرة الثانية بعد حصار طويل ، وسبى بضعة آلاف من سكانها إلى بابل بسبب تعاونهم مع المصريين . لكنه

فشل في احتلال مدينة صور على الرغم من حصاره لها مدة ثلاثة عشر عاماً (586–573ق .م) ، وذلك بسبب مساعدة المصريين لها عن طريق البحر . تم الاتفاق بعد ذلك على أن تبقى المدينة مستقلة داخلياً مقابل اعترافها بالسيادة البابلية .

يوجد نص يتحدث عن قيام نبوخذ نصَّر عام 568ق .م بهجوم على مصر . ربما أراد العاهل البابلي الاستفادة من الفوضى التي كانت تمر بها مصر في ذلك الوقت عند اعتلاء الفرعون أحمس الثاني العرش . ولكن حالة النص السيئة لا تسمح بمعرفة دقيقة عن العملية ونتائجها . أما بالنسبة لسورية فقد دام النفوذ البابلي فيها حتى قبل نهاية حكم نبوخذ نصر بعشر سنوات على الأقل .

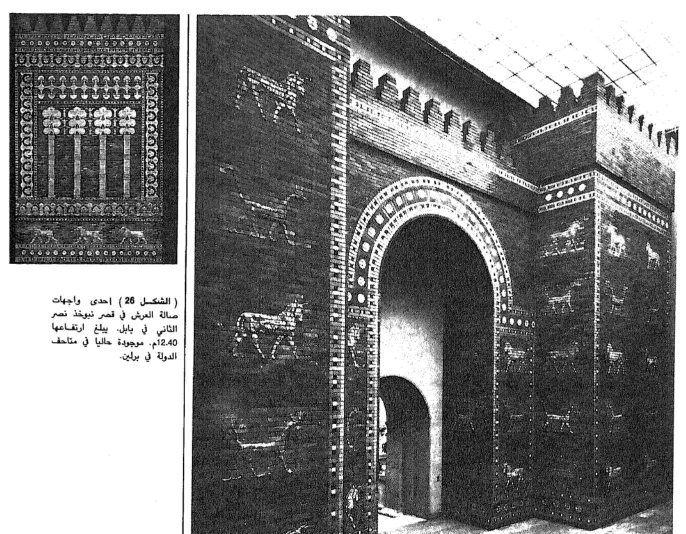
بلغت بابل على عهد نبوخذ نصر الثاني (605–562ق .م) ذروة قوتها ومجدها وازدهارها ، وأصبحت من جديد مركز امبراطورية قوية ازدهرت فيها الحياة الاقتصادية والعلمية .

كانت عملية إعادة بناء بابل قد بدأت على عهد ناپوبولا صار الذي أخذ باعادة بناء أكبر زقورة فيها وهي إتيمين أنكي Etemenanki(حجر أساس السماء والأرض) . وقد أتم نبوخذ نصر ذلك . وعُرفت الزقورة في التوراة باسم برج بابل ، ويتسم الحديث عن بنائها بصبغة أسطورية . وكان يبلغ ارتفاعها نحو 91م ومؤلفة من ثمان طبقات مدرجة يمكن الصعود إليها على درج حلزوني . وتحمل الطبقة الأخيرة معبداً صغيراً مخصصاً للاله مردوك ، إله بابل الرئيس .

قام نبوخذ نصَّر بمشاريع عديدة في بابل كان الهدف منها جعل بابل المدينة المقدسة ، عاصمة قوية وغنية وجميلة . واستخدم في ذلك جزءاً كبيراً من موارد الامبراطورية الكلدانية . فرمم السور المزدوج المحيط بالمدينة ، وبنى سوراً آخر مزوداً بأبراج دفاعية طوله نحو 7,5كم . وأقام شارع المواكب الممتد من بوابة عشتار شمالاً وحتى زقورة بابل ومعبد مردوك جنوباً ، وهو شارع للاحتفالات الدينية عرضه 16م مرصوف ببلاط مستورد من لبنان كتب على كل بلاطة فيه اسم نبوخذ نصَّر . ويحيط به من جانبيه جدار سمكه 7م تزيينه بالآجر المزجج ، على أرضية أجرية أيضاً ، أشكال لأسود تزأر ، علماً أن الأسد كان رمز الإلهة عشتار .

بن نبوخذ نصَّر أيضاً بوابة عشتار ، التي تعد أجمل بوابات بابل التسعة ، التي سميت بأسماء ألهة مشهورة . وهي عبارة عن بوابة مزدوجة كسيت واجهاتها بالأجر المزجج أيضاً والمزينة بصفوف من حيوانات مقدسة ترمز لآلهة بابل ، التنين برأس أفعى لمردوك والثور لأدد (**الشكل** 25) .

قام نبوخذ نصَّر أيضاً بترميم وتوسيع معبد مردوك في بابل ، وببناء قصر لنفسه بلغ اتساعه 190x322م . كان اجمل ما فيه صالة العرش (17x52م) ذات الجدران السميكة (6م) المغطاة بالطوب ا لمزجج على شكل تزيينات مؤلفة من أشجار في الوسط وأسود في الاسفل وأشكال اخرى في الاعلى والجوانب (**الشكل** 26). وقد أدى اكتشاف وجود شرفة كبيرة فيه مقامة على أربعة عشر حجرة مقببة إلى الاعتقاد أنه كانت تقوم هنا «حدائق بابل المعلقة» الشهيرة ، التي تعد إحدى عجائب العالم السبعة .



(الشكـل 26) إحدى واجهات صالة العرش في قصر نبوخذ نصر الثاني في بابل. يبلغ ارتفاعها 12.40م. موجودة حاليا في متاحف الدولة في برلين.

(الشكـل 25) بوابة عشتار في بابل.

إن معظم هذه الأعمال العمرانية معروف من خلال الحفريات الأثرية التي تمت في بابل في بداية هذا القرن ، والتي كشفت فقط عن آثار تعود إلى الفترة البابلية الحديثة ، لأن ارتفاع مستوى الماء الجوفي منع المنقبين من متابعة حفرياتهم والوصول إلى المدينة القديمة .

على الرغم من قوة وعظمة نبوخذ نصّر تبدو سنوات حكمه الأخيرة مشوبة باضطرابات داخلية . خلفه في الحكم ابنه أويل مردوك (رجل مردوك) الذي حكم سنتين فقط (562-560ق . م) . واعتلى عرش بابل بعد وفاته القائد العسكري نيرجال شار أوصور (ليحم الاله نيرجال الملك) (559-556ق . م)

الذي كان تحت تصرفه مساحات واسعة من الأراضي . وقد كرس معظم فترة حكمه القصيرة لأعمال سلمية كترميم المعابد والقصور وحفر الأقنية . وقاد فقط حملة عسكرية في سنة حكمه الأخيرة إلى كيليكية .

استلم الحكم بعد وفاته ابنه لاباشي مردوك Labashi Marduk الذي حكم فقط ثلاثة أشهر (556ق . م) اغتيل في نهايتها . وعين الفريق المنتصر نابونيد Nabunid ملكاً على بابل (555–539ق . م) .

لم يكن نابونيد من أصل ملكي ، فأبوه كان كما يبدو ، شيخ إحدى القبائل الآرامية ، أما أمه فكانت كاهنة سين إله القمر في حرَّان ، ووجدت مع ابنها ، بعد سقوط المدن الآشورية ، ملجأ في بلاط بابل .

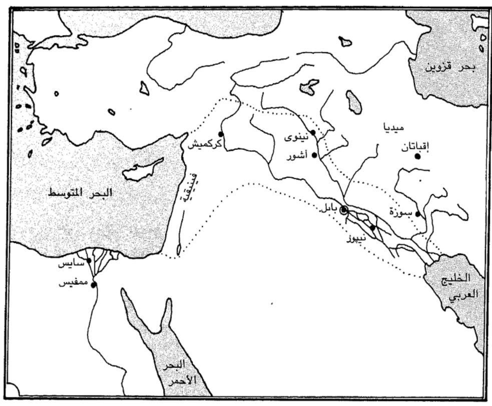
دخل نابونيد في خدمة نبوخذ نصَّر ونيرجال شار أوصور . وقد مارست عليه أمه تأثيراً كبيراً ، فكرس معظم جهوده لجعل عبادة سين إله القمر العبادة الرئيسة في بابل بدلاً من عبادة مردوك . فدخل ، نتيجة لذلك ، في صراع مع كهنة مردوك الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير في بابل . وربما كان ذلك أحد الأسباب الرئيسة التي جعلته يغادر بابل ويقيم في واحة تيماء في شبه الجزيرة العربية لمدة عشر سنوات تاركاً إدارة البلاد لابنه وولي عهده بيل سازار Belsazar(بالأكادية بيل شار أوصور = ليحم بيل (المقصود مردوك) الملك) .

يقول نابونيد في إحدى كتاباته : «أنا نابونيد ، ابن وحيد ليس له أحد . لم يكن في ذهنه استلام العرش الملكي . الآلهة والإلهات صلوا من أجلي ، وسين دعاني لاستلام الحكم . في الليل جعلني أرى حلماً (قال لي فيه) ما يلي : إخول خول Echulchul معبد سين في حران شَيِّدْهُ بسرعة . أريد أن أعطيك كل البلاد في يد(ك)) . الناس ، سكان بابل وبارسيبا ونيبور وأور وأوروك ولارسا ، الكهنة ، أناس من مناطق سكن في أكاد أخطأوا في حق ألوهيته الكبرى وارتكبوا إثماً في عدم معرفة الغضب المخيف لملك الآلهة نَنَّار Nannar(سين) . نسوا طقوسهم وتكلموا كذباً وزوراً . ككلاب افترسوا بعضهم . جعلت (الآلهة) مرضاً وجوعاً ينتشر بينهم . هو (سين) أنقص سكان البلاد . أما أنا فقد جعلني أهرب من مدينتي بابل ، (وسلكت) الطريق إلى تيماء ، دادانو Dadanu ، پاداكّو padakku ، خيبرا chibra ، ياديخو yadichu حتى إلى يتريبو yatribu . عشر سنوات تجولت بينهم ولم أدخل مدينتي بابل»[79] .

79 – Rollig, W., Erwagungen zu neuen Stelen Konig Nabonids, in: Zeitschrift fur Assyriologie, neue Folge, Band 22 (Band 56), S. 219f.

إن الأسباب الحقيقية لخروج نابونيد من بابل وإقامته في واحات شبه الجزيرة العربية غير معروفة . والاشارة في هذه الكتابة إلى المرض والجوع غير مقنعة . فلا توجد أدلة وبراهين كافية على أن أمراضاً ومجاعات شملت بلاد بابل كل تلك الفترة الطويلة (عشر سنوات) . ولم يُجْبِر نابونيد على العودة إلى بابل إلا ظهور قورش الثاني Kyros II ، مؤسس الامبراطورية الأخمينية ـ الفارسية ، على حدود مملكته الشرقية .

حاول نابونيد الوقوف في وجه قورش ، لكن بابل المدينة الناقمة على مليكها ، وبخاصة كهنة الإله مردوك ، فتحوا الأبواب مرحبين بالعاهل الفارسي ، ورأوا فيه مخلصاً لهم . وكان ذلك عام 539ق . م . وتتحدث إحدى الكتابات البابلية عن ذلك بقولها :



الامبراطورية البابلية الحديثة في عهد نبوخذ نصر (القرن السادس قبل الميلاد)

«في شهر تشريت قام قورش، بعد أن التقى في معركة مع قوات أكاد عند أوپيس opisعلى دجلة (بالقرب من سلوقية؟)، بقتل الناس ..... في اليوم الرابع عشر سقطت سيپار دون قتال.

نابونيد هرب. في اليوم السادس عشر دخل جوبرياس Gobryasوالي جوتيوم (منطقة شرق دجلة) وقوات قورش إلى بابل دون قتال. بعد ذلك أُسِرَ نابونيد في بابل بعد أن عاد.

حتى نهاية الشهر أحاطت دروع جوتيوم بوابات إيزاجيلا (معبد مردوك الرئيس في بابل). ولم تحدث انقطاعات في إيزاجيلا وفي المعابد (الأخرى) ولم تهمل أية مواعيد (أعياد واحتفالات دينية). في الثالث من مَرشيشوان دخل قورش إلى بابل ..... أعلن سلام لكل بابل[80].

80 ـ Borger, R., op. cit., S. 404.

وتذكر كتابة أخرى أن مردوك إله بابل هو الذي أمر قورش بالسير إلى بابل لتخليصها من ملكها نابونيد الذي لم يعبده[81].

81 ـ Ibid., S. 408.

بسقوط بابل بيد الملك الفارسي قورش الثاني اختفت المملكة البابلية الحديثة من الوجود، كما اختفت قبلها المملكة الآشورية الحديثة، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ المشرق العربي القديم هي مرحلة الاحتلال الفارسي، الذي دام حتى عام 333ق.م عندما هزم الاسكندر المقدوني الملك الفارسي داريوس الثالث في معركة إسوس Issosالشهيرة.

مصادر الكتاب

أولاً : العربية والمعربة :

1 ـ بارو ، أندريه ، ماري ، ترجمة د . رباح نفاخ ، دمشق 1979 .

2 ـ رشيد ، فوزي ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد 1979 .

3 ـ رشيد ، فوزي ، قواعد اللغة السومرية .

4 ـ سليمان ، توفيق ، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة ، دمشق 1985 .

5 ـ مرعي ، عيد ، التاجر ونشاطاته في العصر البابلي القديم ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان 23 و24 ، أيلول ـ كانون أول 1986 ، ص 138-157 .

6 ـ مرعي ، عيد ، يخدون ـ ليم ملك ماري ، وثيقة تأسيس معبد إله الشمس (شماش) في ماري ، دراسات تاريخية ، العددان 27 و28 ، أيلول ـ كانون أول 1987 ، ص 99-110 .

7 ـ مرعي ، عيد ، إدريمي ملك ألالاخ ، دراسات تاريخية ، العددان 29و 30 ، آذار ـ حزيران 1988 ، ص 103-126 .

8 ـ مورتغات ، أنطون ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ، تعريب توفيق سليمان وعلي أبو عساف وقاسم طوير ، دمشق 1967 .

9 ـ محيسن ، سلطان ، عصور ما قبل التاريخ ، دمشق 1986 (كتاب جامعي)

10 ـ محيسن ، سلطان ، آثار الوطن العربي القديم ، الآثار الشرقية ، دمشق 1988 (كتاب جامعي) .

ثانياً : الأجنبية :

1. Borger, R., Die Inschriften Asarhaddon, Konigs von Assyrien, in: Archiv fur Orientforschungen Beiheft 9 (1956).
2. Braidwood, R., J. and B. Howe, Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan, Chicago 1969.
3. Contribution Française a l'Archeologie Syrienne 1969–1989, Institut Français d'archeologie de Proche–Orient, Centre de Damas 1989.
4. Dossin, G., Les Archives épistolaries du palais de Mari, in: Syria 19 (1938), P. 105–126.
5. Dossin, G., Archives Royales de Mari I, Correspondance de samsi–Addu et de ses fils, Paris 1950.
6. Dossin, G., Archives Royales de Mari IV, Correspondance de samsi–Addu et de ses fils, Paris 1951.
7. Eilers, W., Semiramis, Entstehung und Nachall einer altorientalischen Sage, Wien 1971.
8. Fischer Weltgeschichte, Die Altorientalische Reiche, Bande 2–4, Frankfurt am Main 1965–67.
9. Garelli, P., Les Assyriens en Cappadoce, paris 1963.
10. gorys, E., Kleines Handbuch der Archaologie, Munchen 1983.
11. Gressman, H., Altorietalische Texte zum Alten Testament, Berlin–Leipzig 1927.
12. Herodot, Historien, Deutsche Gesamtausgabe, Stuttgart 1971.
13. Hirsch, H., Die Inschriften der Konige von Agade, in: Archiv fur Orientforschungen 20 (1963), S. 1–82.

14. lloyd, S., Die Archaologie Mesopotamiens, Munchen 1981.
15. Kinnier Wilson, J.V., The Legend of Etana, anew edition, Warminster 1985.
16. Klengel, H., Zwischen Zelt und Palast, Leipzig-Wien 1972.
17. Klengel, H., Hammurapi von Babylon und seine Zeit, Berlin 1978.
18. Klengel, H., Handel und Handler im alten Orient, Wien-koln- Graz 1979.
19. Kramer, S.N., Mesopotamien, Fruhe Staaten an Euphrat und Tigris, Hamburg 1979.
20. Mari, A., Der Handel zwischen Syrien und Babylonien im achtzehnten Jahrhundert v. Chr., Wurzburg 1985.
21. Matthiae, P., Ebla, An Empire Rediscovered, London 1980.
22. Moorgat, A., Die Kunst des Alten Mesopotamien,
Band I, Sumer und Akkad, Koln 1982.
Band II, Babylon und Assur, Koln 1984.
23. Nissen, H.J., Grundzuge einer Geschichte der Fruhzeit des Vorderen Orients, Darmstadt 1983.
24. Oates, J., Babylon, london 1979.
25. Orlin, L.L., Assyrian Colonies in Cappadocia, Paris 1970.
26. Otten, H., Bibliotheken im Alten Orient, in: Das Altertum 1 (1955). S. 67-81.
27. Pettinato, G., The Archives of Ebla, An Empire inscribed in Clay, Garden City-New York 1981.
28. Pitard, W.T., Ancient Damascus, Ahistorical Study of the syrian City-State from the earliest Times until its Fall to the Assyrians in 732 B.C., Winona Lake, Indiana 1987.
29. Rollig, W., Erwagungen zu neuen Stelen Konig Nabonids, in: Zeitschrift fur Assyriologie, Neue Folge, Band 22 (Band 56), S. 218-260.
30. Romer, W.H.Ph., Einfuhrung in die Sumerologie, 6. verbesserte Auflage, Nijmegen 1984.
31. Schmokel, H., Geschichte des Alten Vorderasien, Leiden 1957.
32. Texte aus der Umwelt des Alten Testament, Band I, Lieferunf 4, Historisch-chronologische Texte I, (TUAT), R. Borger, Walther Hinz und Willem H.Ph. Romer, herausgegeben von Otto kaiser, Gutersloh 1984.
33. Von Soden, W., Herrscher im alten Orient, Berlin-Gottingen-Heidelberg 1954.
34. Von Soden, W., Grundriss der Akkadischen Grammatik, Roma 1969.
35. Von Soden, W., Einfuhrung in die Altorientalistik, Darmstadt 1985.
36. Wilhelm, G., Grundzuge der Geschichte und Kultur der Hurriter, Darmstadt 1982.
37. Worterbuch der Mythologie, Band I, Gotter und Mythen im Vorderen Orient, herausgegeben von H.W. Haussig, Stuttgart 1965.



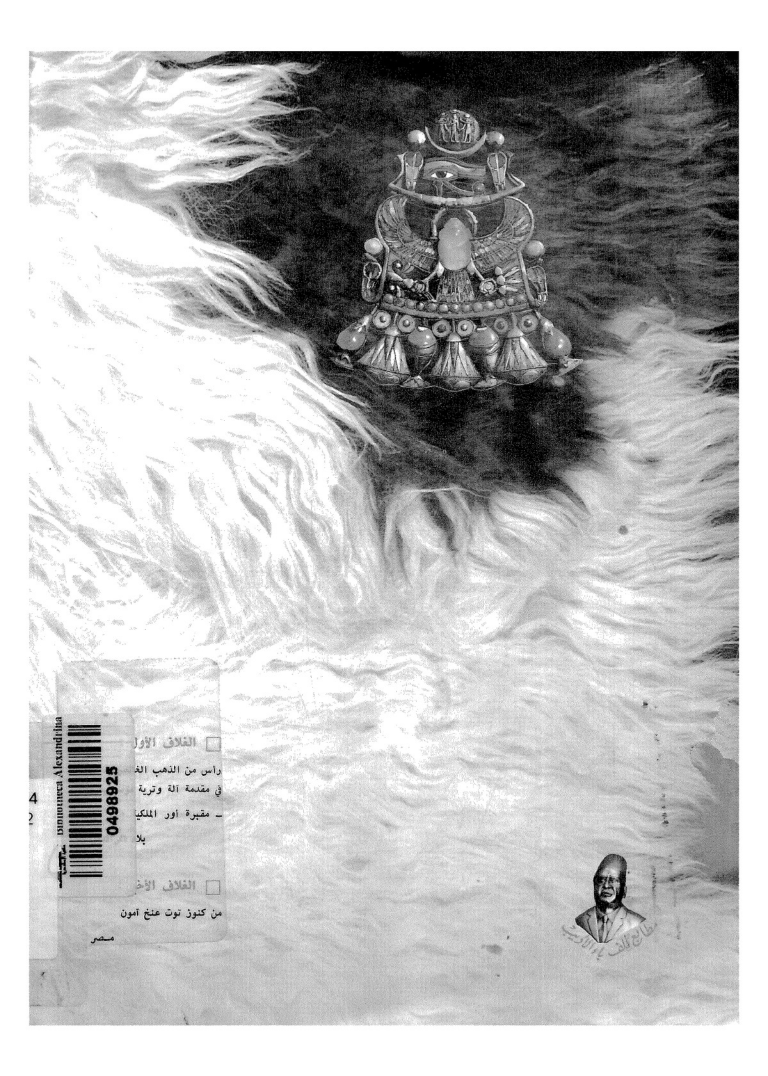
دعــوة

إلى السّادة الباحثين في التاريخ القديم

الأبجديّة للنشــر

ترحّب بكل عمل يبحث في تاريخ الحضارات القديمة

للاتصــال:
دمشــق - الأبجديةللنشــر
ص.ب:4428 برقيا:ابجدار.
☏ 455720 ـ 221711 ـ 214315 تلكس: 412059 TAJ SY


الغلاف
رأس من الذهب
في مقدمة آلة وترية
مقبرة أور
الغلاف
من كنوز توت عنخ آمون
مصر